تاريخ الجدل

الإمام محمد أبو زهرة

دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة

تاريخ الجدل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ،
أما بعد ، فهذه مذكرة فى تاريخ الجدل ، تشتمل على ملخص للمحاضرات التى ألقيت على طلبة السنة الثانية من كلية أصول الدين ، تحريت فيها الايجاز من غير إخلال فى بيان الخلاف ومواضعه ، والإطناب من غير إملال فى بيان صور الجدل وأحواله .

وأسأل الله التوفيق ، وأن يجعل لها ثمرتها المرجوة وهى تربية روح الجدل المنظم فى نفوس أولئك الطلبة الذين يهيئون أنفسهم ليكونوا وعاظا ومرشدين .

والله سبحانه وتعالى المستعان .

يناير سنة ١٩٣٤ — محمد أبو زهرة

المناظرة والجدل والمكابرة

تدور على الألسنة عبارات المناظرة والجدل والمكابرة ، وأحياناً تطلق إحداها في موضع الأخرى ، وفي الحق أن بينها اختلافاً واضحاً في الاصطلاح :

فالمناظرة يكون الغرض منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت أنظار المتناقشين فيه .

والجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم ، والتغلب عليه في مقام الاستدلال .

والمكابرة لا يكون الغرض منها إلزام الخصم ، ولا الوصول للحق ، بل اجتياز المجلس ، والشهرة أو مطلق اللجاجة ، أو غير ذلك من الأغراض التي لا تغني في الحق فتيلا .

ويلاحظ أمران :

أحدهما : أن المناقشة الواحدة قد تشتمل على كل هذه الأنواع الثلاثة ، قد يبتدىء المناقشان متناظرين طالبين للحق ، فينقدح في ذهن أحدهما رأي يثبت عليه ، ويأخذ في جذب خصمه إليه ، وإلزامه به ، وحينئذ تنقلب المناظرة جدلا . وقد تدفعه اللجاجة إلى التعصب لرأيه ، وتأخذه العزة بالإثم ، تبدو له الحجج واضحة على نقيض رأيه ، ويبدهه خصمه بالدليل تلو الدليل ، فلا يحير جواباً ، ومع ذلك يستمر في لجاجته ، فينتقل الجدل إلى مكابرة . وقد تشتمل المناقشة على جدل ومناظرة ، كأكثر المحاورات السقراطية . كان سقراط يبتدىء بمجادلة خصمه فيما يدعيه ، حتى يفحمه ، فيقتنع بجهله ، ثم يناقشه حتى يأخذ بيده إلى الحق .

ثانيهما : أن الجدل قد يطلق فى اللغة ويراد منه المناظرة كقوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » . وقد تطلق المناظرة ويراد منها الجدل أو المكابرة لغة . كقول الغزالى فى رسالة (أيها الولد) : أيها الولد إنى أنصحك بثمانية أشياء اقبلها منى لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة ، تعمل منها أربعة ، وتدع منها أربعة : أما اللواتى تدع ، فاحداها ألا تناظر أحداً فى مسألة ما استطعت لأن فيها آفات كثيرة ، فإثمها أكبر من نفعها ، إذ هى منبع كل خلق ذميم ، كالرياء والحسد ، والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها إلخ . إلخ . . والمناقشة التى تجر إلى هذه الرذائل إنما هى جدل أو مكابرة وسنطلق فى كتابتنا كلمة الجدل على ما يشمله هو والمناظرة .

العناية بالجدل :

وقد عنى العلماء فى الإسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة ، من يوم أن نشب الخلاف الفكرى بين العلماء ورجال الفكر فى هذه الأمة ، وانتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة ، لكى يكونا فى دائرة المنطق والفكر المستقيم ، أسموها علم الجدل ، أو علم أدب البحث والمناظرة ، وقد قال فيه ابن خلدون فى مقدمته : وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة ، التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعاً ، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ، ومنه ما يكون صواباً ، ومنه ما يكون خطأً ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ أن يكون مستدلا ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ، ولخصمه الكلام والاستدلال ، ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى ، أوهدمه ؛ كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره . . . . . وأول من كتب فيه البزدوى والعميدى ، ثم كثر التأليف فيه من بعدهما .

الاختلاف ومنشؤه

لا جدل إلا حيث الاختلاف فى إدراك حقيقة من الحقائق ، ولو أردنا أن نعين مبدأ هذا الاختلاف الفكرى بين بنى الإنسان ، ما اهتدينا ، ويظهر لى أن ذلك النوع من الاختلاف قديم بقدم الإنسان فى هذه الأرض ، ابتدأ معه حيث ابتدأ ينظر إلى الكون فيشده بعظمته ، وتأخذه الحيرة فى إدراك كنهه وحقيقته ، وإذا كان العلماء يقولون أن الإنسان من يوم نشأته أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون ، فلابد أن نقول : إن الصور والأخيلة التى تثيرها تلك النظرات تختلف فى بنى الإنسان باختلاف ما وقعت عليه أنظارهم وما أثار إعجابهم ، وكلما خطا الإنسان خطوات فى سبيل المدنية والحضارة اتسعت فرجات الخلاف ، حتى تولد من هذا الاختلاف المذاهب الفلسفية ، والديانات غير المنزلة ، وغير ذلك .

وأسباب الاختلاف فى الحقيقة كثيرة جداً منها :

غموض الموضوع فى ذاته :

تصدى الفلاسفة من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة فى ذاتها ، وليست الطرق لفهمها وإدراكها معبدة ، فكل يرى ما تقع عليه بصيرته ، وما تهديه إليه هويته ، وربما كان الحق مجموع أقوالهم . وقد قال أفلاطون فى مثل هذا المقام : إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ، ولا أخطئوه فى كل وجوهه ، بل أصاب كل إنسان جهة ، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل ، وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده ، ومثلها فى نفسه فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة ، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة ،

وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره . فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك، وكل يكذب صاحبه ، ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل ، فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم .

ومن الموضوعات التى كان غموضها سبباً فى الاختلاف حقيقة النفس ، وحقيقة المنشىء للكون فى فترة من الرسل، ومسألة صفات الله سبحانه وتعالى .

غموض موضع النزاع :

كثيراً ما يختلف المتجادلان ، ويشتد بينهما الخلاف لأن موضع النزاع لم يعلم بالتعيين ، وكان سقراط يقول : إذا عرف موضع النزاع بطل كل خلاف . وذلك لأن كلا المتناظرين المختلفين فى طلب الحقيقة يقع نظره على ما لا يقع عليه نظر الآخر ، ويبنى حكمه على ما وقع عليه نظره ، فكأنه فى الحقيقة لم يتلاق مع خصمه فى موضوع ، وذلك كما إذا رأى أحد الناظرين وجها لقرطاس فحكم بما رأى ، ورأى الآخر وجها آخر ، فحكم بما رآه ولذلك كان سقراط يعنى كل العناية بدلالات الألفاظ ، ليفهم كلا الخصمين كلام الآخر ، فيتلاقيا فى نقطة واحدة ، وإذا تلاقيا انحسم الخلاف .

اختلاف الرغبات والشهوات :

قال إسـبينوزا : إن الرغبة هى التى ترينا الأشياء مليحة لا بصيرتنا . وإذا كانت الرغبة تستولى على مقياس الحسن والقبح على النفس ذلك الاستيلاء ، كما قال ذلك الحكيم ، ورغبات الناس مختلفة متضاربة ، فلابد إذن من أن يختلفوا باختلافها ، وتتباين آراؤهم لتباين رغباتهم .

اختلاف الأمزجة :

قال وليام جيمس : إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ، وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضاً شأنه فى ميـدان الأدب

والفن والحكومة . وذلك قول حق ، فإن كثيراً من اختلاف الآراء سببه اختلاف أمزجة القائلين لها . فذو المزاج العصبى الحاد يرى ما لا يراه الورع الهادئ ، وإذا كانت الأحوال العارضة للإنسان من هدوء أو غضب ، واستقرار واضطراب تجعل آراءه مختلفة باختلافها ، فلابد أن يعتقد أن اختلاف شخصين فى المزاج داع لكثير من اختلافهما فيما يذهبان إليه من آراء :

اختلاف الاتجاه :

جاء فى الجزء الثالث من رسائل إخوان الصفا : القياسات مختلفة الأنواع ، كثيرة الفنون ، كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها. مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء ، ولا قياس المدبرين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين ، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين ، وهكذا قياس المنطقيين فى الرياضيات لا تشبه قياسات الجدليين ، ولا تشبه قياساتهم فى الطبيعيات ولا الإلهيات . وإذا كان لكل علم أقيسة خاصة به ، فمن غلبت عليه أقيسة علم إذا بحث فى موضوع مع صاحب علم آخر يختلف نظراهما ، وكل ينبعث فى تفكيره روح علمه ، واعتبر ذلك بالخلاف بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين فى مسألة خلق القرآن ، فإن الاختلاف بينهما كان سببه اختلاف مناهج البحث ، وإن شئت فقل اختلاف عقليتين : إحداهما تستنبط العقائد من الآثار كما تستنبط الأحكام العملية ، والأخرى تسير وراء العقل مهتدية به ، ومندفعة فى تياره .

تقليد السابقين ومحاكاتهم من غير نظر إلى الدليل ؛ ونقص للبرهان :

كثيراً ما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليدهم للآباء ، ونعى عليهم إهمال العقل فى مثل قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . وقوله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

ولا تزال نزعة تقليد السابقين فى نفوس الناس ، وإن كانوا يتفاوتون فيها قوة وضعفاً ؛ وإن سلطان الأفكار التى أكسبتها الأجيال قداسة يسيطر على القلوب فيدفع العقول إلى وضع أقيسة وبراهين لبيان حسنها ، وقبح غيرها . وطبعى أن يدفع ذلك إلى الاختلاف ، والمشاحنة ، والمجادلة غير المنتجة ، لأن كلا يناقش وهو مغلول بقيود الأسلاف ، من حيث لا يشعر . ولو فكت قيود المتناظرين للاح لهما وضح الحق المبين ، وأشد ما يكون الاختلاف بسبب التقليد فى المسائل الاجتماعية .

اختلاف المدارك :

بعض الناس قد آتاه الله عقلا راجحاً ، وبصيرة نافذة ، وفكراً ثاقباً يدرك الموضوع من كل نواحيه ، ويلم بظواهره وخوافيه ، وبعضهم فيه قصور نظر ، فلا يستطيع إحاطة الموضوع بنظرة شاملة ، وفيه قصور فكر ، فلا يدأب فى البحث عن الحقيقة إلى النهاية ، ولابد أن تختلف النتائج التى يحصل من كان على هذه الشاكلة عما يصل إليه من كان من الصنف الأول ، وقد جاء فى رسائل إخوان الصفا : إنك تجد كثيراً من الناس يكون جيد التخيل : دقيق التميز ، سريع التصور ذكوراً ، ومنهم من يكون بليداً ، بطىء الذهن ، أعمى القلب ، ساهى النفس ، فهذا أيضاً بعض أسباب اختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب لأنه إذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك .

الرياسة وحب السلطان :

كثيراً ما يدفع الغرض ذا السلطان إلى الأخذ بآراء ساقته إليها رغبة ملحة جامحة ، ويحمل كثيراً من العلماء الذين جعلوا قلوبهم سلعة تباع بثمن بخس على المناداة بها ، والمجادلة لنشرها ، وقد يندفع هؤلاء فى دعوتهم حتى يخيل إليهم أنهم مخلصون فيما يدعون إليه ، أو أنه محض الحق والصواب وينبرى للرد عليهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فندبوا أنفسهم

للذود عن الحقيقة ، وحفظ ذمارها ، فتكون بين الفريقين نار مشبوبة ، وربما يكون من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير .

روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق ، عليم اللسان ، غير حكيم القلب يغيرهم بفصاحته وبيانه ، ويضلهم بجهله ، وقلة معرفته » .

التعصب :

إذا تغلبت على الإنسان فكرة ، فتجتاز عقله ، وتسيطر عليه ، وتمنعه من أن تصل إليه فكرة تناقضها ، أو خاطرة تنازعها ، تهتاج أعصابه ، ويثور ثورته إن هوجم فيها ، ومنشأ هذا التعصب الثائر ، إما قوة الإيمان بالفكرة ، أو أعصاب ضعيفة تمنع من إدراك ما لم يثب إليها أولا ، أو غرور وخيلاء ، وحيثما كان التعصب لزمته المجادلة أو المكابرة ، وقد يخفى على الإنسان موضع التعصب فى نفسه ، فيحسب أنه مخلص فى طلب الحق ، وهو منطو على عصبية تدفعه ، وقد تبين له الحقيقة إذا راقب نفسه ، وحاسبها حساباً عسيراً .

سيطرة الأوهام :

تستولى على كثير من الناس أوهام تجعلهم يسلمون بأفكار غريبة فى ذاتها وهم باعتناقهم لها يخالفون من لم يقعوا تحت تأثير أوهامهم ، وليست تلك الأوهام مقصورة على العوام ، بل إنها قد تكون فى أشد أحوالها عند بعض خواص العلماء ، ولقد قال بعض الحكماء الأوربيين : إن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر . وما ذلك إلا لسلطان الأوهام .

جدل العرب في الجاهلية

العقلية العربية :

الجدل بين شخصين صورة لمنازعهما الفكرية ، واتجاهاتهما العقلية ، لذلك كان من الضروري عند دراسة الجدل في أمة دراسة عقليتها ، وما عرض لها من منازع ، وإذا كنا بصدد دراسة تاريخ الجدل عند العرب ، كان من اللازم أن نعرف العقلية العربية .

اختلف العلماء في حقيقة العقلية العربية بين مغال في إعلائهم ؛ ومغال في التصغير من شأنهم ، فالجاحظ يجعلهم نظراء الفرس والروم واليونان والهند بل أعظم ، وابن خلدون يقول فيهم : هم أبعد الناس عن العلوم ، لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعلم ؛ فاندرجت في جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدمنا ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي ولذلك كان حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم ، أو المستعجمون باللغة والمربى ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم .

ويقول أوليرى في وصف العربي : يملك الطبع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، ولا يميل كثيراً إلى دين ، ولا يكترث لشيء إلا بمقدار ما ينتجه من فائدة عملية .

ويقول رينان في كتابه اللغات السامية ، واصفاً الأمم السامية ، ومنها العرب : إن الأمم السامية كلها على اختلاف نزعاتها أمم قصيرة الخيال ، جافة التصور ، تدرك الأشياء إدراكاً أولياً ، ولا تتعمق في بحثها ؛ ولا تسترسل في كشف الحقائق ومعرفتها ، وتحكم على الأشياء لأول وهلة ؛ حكم المعتقد

الجازم بصحة الشيء الذى أقنعته التجارب والبراهين القطعية ، خيالاتها محدودة وإدراكاتها محدودة ، ونظمها الاجتماعية معروفة محدودة ، لا تعرف الانتقال ، غير قابلة للمرونة ، وغير أهل للتقدم ، ليس فى نظم حكومتها ما يدل على سعة الإدراك ولا على أثر التفكير ، وليس لها فى علم الأدب والفنون أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الأخرى مما يدل على مجدها ومظاهر الرقى فى الاجتماع وفى باب الفنون . وقال : إن الأمم السامية لا فلسفة لها ، ولا أثر للقوانين والنظم فيها ، وإن الشرائع التى أرشدت العالم ومحت منه ظلمات الجهالة لا وجود لها عند الأمم السامية . ثم قال : إن هذا كله يرى فى بلاغتهم . ويقول : الشعر العربى يعوزه الاختلاف والتنوع ، فموضوعات الشعر محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين . وقد تبع هذا الرأى كثير من علماء أوروبا فى منتصف القرن الماضى .

ويظهر للمتأمل فى هذا الكلام أنه يصف العرب بالقصور الفكرى ويعد ذلك فيهم طبعاً وجبلة ولازمة من لوازمهم لا تفترق عنهم .

وفى الحق أننا نجده قد تجنى على الحقيقة ، وظلم التاريخ ، إذ أنكر على العرب بلاغتهم فى كلامهم ، وخيالهم الشعرى ، فقد عد عدم تنوع شعرهم دليلا على نقص تفكيرهم بالطبيعة والسليقة . فإن التاريخ الأدبى العربى يضعهم فى وصف أقوى الأمم أدباً ، وأكثرها إنتاجاً ، لا ينكر أنه ينقصه الشعر القصصى والشعر التمثيلى ، ولكن ليس معنى ذلك نقصان فطرتهم عمن انتشر بينهم هذان النوعان ، لأن البيئة الفكرية لها حكمها ، وهذان النوعان لا يسودان إلا فى أمة لها علوم وتسود فيها الكتابة والتدوين ، والعرب كانت أمة أمية ، علومها تجارب ، ودراستها تلقين ، ومعارفها تؤخذ باللسان والمشافهة ، والتمرس بالحياة وأحوالها .

ولسنا ننكر أن العرب لم تكن عندهم فى الجاهلية علوم كاملة ، وبحوث متنوعة وأفكار فلسفية عميقة كفلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، بل نقول

ما قاله صاحب الملل والنحل فى حكماء العرب : هم شرذمة قليلة ، وأكثر حكمتهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر . ولكن ليس ذلك لأن عقل العربى غير قابل للعلوم ، بل لأنه فى عصره الجاهلى لم تعرض له ثقافات واسعة النطاق ، تنظم فكره ، وتهيئه لبحث علمى منظم يتقصى أطرافه ، ويتعمق فى ظواهره ، وخوافيه .

وما كان كل ذلك إلا من أثر البيئة الطبيعية والأحوال الاقتصادية ولم يكن فيه فطرة وجبلة ، وخاصة لا تفارقه ، كما يدعى ذلك الأوربى المتعصب وإن لبس لبوس العلماء ، ولو كان القصور الفكرى الذى ظهر فى عرب الجاهلية فطرة وجبلة ما كان من سلالتهم أولئك الفلاسفة الأعلام ، كالكندى وغيره ، من حملة الفكر الإسلامى الذين قال فيهم العلامة سديو : بذل العرب همتهم فى العناية بجميع ما ابتكرته الأفهام البشرية من المعلومات والفنون ، واشتهروا فى غالب البلاد وخصوصاً أوروبا النصرانية بابتكارات تدل على أنهم أئمتنا فى المعارف ، ولنا شاهد على علو شأنهم الذى جهله الفرنجة من أزمان بعيدة . بل إن ذلك العالم المخلص فى طلب الحقيقة يرى فى طبع العرب الاستعداد للمعارف والعلوم ، إذ يقول فيهم : كانوا مستعدين استعداداً طبيعياً ، لأن يكونوا وسائط بلاغ بين الأمم .

ولقد تصدت دائرة المعارف البريطانية لإبطال ادعاء رينان وأمثاله من أن القصور الفكرى طبيعة العقل العربى ، فقد جاء فيها : وليس من صواب الرأى ما فعله رينان ولاسن بإضافتهم صفات خاصة إلى الجنس السامى هى فى الواقع ناشئة عن عوامل خارجية ، فهى نتيجة البيئة التى عاشوا فيها والأحوال التى أحاطت بهم ، وإنهم لو عاشوا فى بيئة أخرى وفى أحوال أخرى لظهرت لهم صفات جديدة .

ولسنا مغالين إذا قلنا أن العرب من ناحية الاستعداد الطبيعى ككل الأمم ذوات الأعصاب الحادة القوية ، على استعداد لتلقى أرقى الثقافات إن تهيأت لها أسبابها ، ولذلك ظهرت بحوث فلسفية عميقة دقيقة لكثير ممن عنوا بالفلسفة

منهم أيام أن ازدهرت العلوم والمعارف فى العصر العباسى ، كما اشتهر كثير منهم بالاستقصاء والضبط والنظر فى العلوم نظرة كاملة شاملة مستنبطة ، كالخليل بن أحمد فى استنباطاته اللغوية ، والشافعى فى بحوثه الشرعية القانونية ، وهما عرب بالثقافة والسلالة .

معلومات العرب ودياناتهم :

كانت معلومات العرب قليلة ساذجة ، ولم تكن لها علوم بمعناها الحقيقى :

وكان كثير من معلوماتهم مبناه التجارب الشخصية التى توارثوها خلفاً عن سلف ، كعلاجهم بالكى وغير ذلك .

وقد وصلت إليهم بعض المعلومات تسربت إليهم من مجاوريهم الفرس والرومان ، لاختلاطهم بهم فى التجارة ، أو بالمجاورة . ولذلك كانت القبائل التى فى الأطراف كالغساسنة والمناذرة أكثر ثقافة وأرقى علوماً ، وكذلك القبائل التى كانت تختلط بالفرس والرومان فى التجارة كقريش ، كانت أرقى فكراً ، وأوسع عرفاناً .

وكانت الصحراء مأوى للذين يفرون بعقائدهم وحرياتهم الدينية كالكلدان ، فإنهم لما أغار عليهم الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفتحوا بلادهم ، وأرهقوهم ، ونقبوا عن قلوبهم ، فحاولوا أن يغيروا عبادتهم انسابوا فى الجزيرة العربية ، وأفاد العرب منهم معلومات كثيرة فى الفلك أخذوا عنهم بعض ما علموا وما وصل إليهم من علم الهنود وغيرهم . وربما كان أقوى ما يدل على أن العرب أخذوا من هؤلاء بعض ما كان عندهم وخصوصاً فى الفلك أن كثيراً من أسماء النجوم والأبراج تشير مع عربيتها إلى أصلها الكلدانى . فكلمة مريخ معربة مرداخ الكلدانية ، وكلمة الثور أصلها بالكلدانية ثورا ، والعقرب عقربا ، وغير ذلك :

ديانات العرب :

العبادة نتيجة لأحد شعورين :

١ — شعور الإنسان بأن قوة خفية لا يستطيع أن يدرك كنهها تسير العالم ، وتدفعه إلى الحركة فى دقة وإحكام ، وهو شعور مستكن فى أعماق النفس متغلغل فى أبعد أغوارها ، لا ينزعه منها مراء أو جدال ، حتى لقد قال بعض الحكماء : إن إدراك الله بدهى ، وعرفانه بالفطرة والوجدان ، لا بالمنطق والقياس .

٢ — شعور المرء خطأ بأن محسوساً من المحسوسات أوتى قوة ليست لغيره تسيطر على الأشياء كشعور المصريين بأن للعجل قوة تسيطر عليهم ، وهذا شعور يدفع إلى الخطأ ، ولكن كان له أثره فى الزمن القديم .

وقد كانت الجمهرة العظمى من العرب عندها هذان الشعوران ، فدفعهم الأول إلى عبادة الله ، واعتقدوا أنه خالق الكون ، وبارىء النسم ، وشعورهم الثانى ، دفعهم إلى عبادة الأوثان تقرباً بها إلى الله زلفى كما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . ولكن كيف وجد عندهم الشعور بأن فى الأصنام قوة تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ؟

يقول بعض المؤرخين فى سبب ذلك : إن العرب كانوا يأخذون شيئاً من أحجار الكعبة إذا رحلوا من مكة ، وأقاموا فى غيرها ، فيعظمونها تعظيمهم للكعبة ، فانتشر لذلك تعظيم الحجارة بينهم ، ولما ذهب عمرو ابن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ، ورأى ما يفعله أهلها من تعظيم التماثيل والتقرب بها أخذ طائفة منها ، وأقامها على الكعبة (وقد كان سادنها) ، ودعا العرب إلى عبادتها . ويظهر أن إيمانهم بالأصنام لم يكن على دعامة من الحق .

قال العلامة دوزى : كانوا فى ظاهر أمرهم يمجدون الأصنام ويحجون

إلى محرابها . . ويذبحون القرابين فى هياكلها . . على أن عقيدتهم لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، فقد كانوا لا يترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها . . وقد تنزل بأحدهم كارثة ، فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قرباناً له إذا انكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر حتى يستبدل بالنعجة غزالا ، لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده .

فالنفس العربية لم تكن مذعنة تمام الإذعان ، مؤمنة تمام الإيمان بتلك الأحجار ، ولقد وجد من مفكريهم من أنكر عليهم عبادة الأوثان ، واعتقد بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، خالق الكون من غير شك ولا إنكار .

وقد انتشرت المسيحية واليهودية فى بلاد العرب ، فالمسيحية كانت منتشرة فى الجنوب ، وفى نجران وفى غساسنة الشام ، وقد قال دوزى : كانت المسيحية فى ذلك الزمان بما تحويه من معجزات . وبما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى .

وأما اليهودية : فقد سكنت الجزيرة العربية من الزمن القديم ، إذا وفد إليها طائفة من اليهود الأولين ، الذين كانوا أوغلوا فى الصحراء بعد خروجهم من مصر ، وفر إليها طوائف من اليهود الذين نجوا بعقائدهم لما فتح بختنصر أورشليم ، ودك أسوارها ، ومزق اليهود كل ممزق ، ومن هذه الطوائف قريظة وبنو النضير ؛ ولما عاد اليهود إلى بيت المقدس بعد ذلك التمزيق ثم شردهم الإمبراطور أدريان الذى ثاروا عليه ؛ ألحق بهم الأذى وشتتوا مرة ثانية ، كان منهم كثيرون جاءوا إلى الجزيرة ، هذا وقد دخل فى اليهودية بعض القبائل العربية ، وكانت اليهودية فى زمن دين اليمن الرسمى وكانت المدينة قبيل الإسلام مرجع اليهود ومثابتهم فيها أحبارهم ، وربانيوهم .

ويظهر أن القبائل المجاورة للفرس كان منها من تسربت إليه بعض المبادىء المجوسية ، بل من آحادها من اعتنق هذه الديانة ، ومنهم من كانوا من الصابئة

الذين كانوا يقدسون الكواكب ، وذلك لدخول كثير من الكلدان فى البلاد العربية ، وفيهم شاع تقديس الكواكب واحترامها .

هذا ولما لليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة من أثر فى البلاد فى جاهليتها ، ولما نفثه اليهود والنصارى والمجوس بين المسلمين بعد الإسلام من سموم الخرافات ، وبذور الفتن التى ترتب عليها تفرق المسلمين بعد الإسلام فرقاً مختلفة فى السياسة وأصول الاعتقاد ، لهذا وذاك نتكلم عن كل ديانة من هذه الديانات كلمة مؤجزة أشد الإيجاز .

اليهودية :

نزلت التوراة مشتملة على شريعة موسى عليه السلام ، واستمرت معمولا بها منهم ، يهديهم إليها أنبياؤهم الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام حتى أغار على بلادهم بختنصر فى المرة الأولى والثانية ، وأجلاهم عن بلادهم ، فلما عادوا بعد ذلك ، ومضت قرون عدة : اختلفوا لعروض التغيير والتبديل ، فى أصولهم الدينية واستمروا فى اختلافهم الشديد بعد تخريب الرومان بلادهم وانتهت أفكارهم الدينية إلى كتاب سموه التلمود أخفوا عنه كثيراً مما جاء به موسى عليه السلام ، وزادوا فيه أحكاماً من رأيهم .

قال المقريزى : وصاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم ، وضمنوه ما هو من رأيهم ، ينسبون ما فيه إلى الله تعالى ، ولذلك ذمهم الله فى القرآن الكريم بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » . ويقول المقريزى أيضاً : لما جاء عانان رأس الجالوت إلى العراق أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود ، وزعم أن الذى بيده هو الحق ، لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا (١) موسى عليه السلام الذى بخطه .

(١) المشنا معناه استخراج الأحكام من الأمر الإلهى .

وقد افترقت اليهود بعد تخريب بلادهم ثلاث فرق :

١ — الربانيون :

وهم الذين أخذوا بما فى التلمود ، واعتبروا أمر البيت الذى بنى ثانيا بعد التخريب كالأول ، وينزلونه منزلته فى التقديس والاحترام .

٢ — القراء :

وهم لا يعتبرون فى التقديس إلا البيت الأول ، ولا يعتبرون التلمود ، ويأخذون بما فى التوراة فقط .

٣ — السمرة :

وهم من الفرس الذين تهودوا وأقاموا بالشام ، وهؤلاء يزعمون أن التوراة التى بأيدى اليهود ليست توراة موسى ، أما توراة موسى فهى ما بأيديهم .

وقد افترقوا فى طريق فهم كتبهم على ثلاث فرق أيضا :

١ — الفروشيم : وقال المقريزى أن معناها المعتزلة ، وهؤلاء يقولون كما قال المقريزى : بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم .

٢ — وطائفة يقال لها الصدوقية ، ومذهبهم كما قال المقريزى أيضا : القول بنص التوراة ، وما دل عليه القول الإلهى فيها دون ما عداه .

٣ — وطائفة الصلحاء ومذهبهم الاشتغال بالنسك وعبادة الله والأخذ بالأفضل والأسلم فى الدين .

هذا وقد تأثر اليهود بالفلسفة اليونانية ، لوقوعهم تحت سلطان اليونان والرومان قرونا ، وكان من أحبار اليهود مَنْ تعلَّم الفلسفة اليونانية .

جاء فى كتاب فجر الإسلام للأستاذ الجليل أحمد أمين : قال بلدوين فى

كتابه معجم الفلسفة : إن الشرق والغرب إختلطا فى الاسكندرية ، وامتزجت آراء رومة واليونان والشام فى المدينة والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على إيجادها بحث الغرب وإلمام الشرق ، واتصل الدين بالفلسفة اتصالا وثيقا ، كان من نتائجه ظهور عقائد دينية ، لا هى من الفلسفة المحضة ، ولا من الدين الخالص ، بل أخذت بطرف من كل ، وجاء ذلك من عاملين :

أحدهما : ميل اليهود إلى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثرا بالعلم اليونانى .

وثانيهما : أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية ، والقضايا الدينيـــة المحضة التى جاء بها المشارقة .

ومن أى الجهتين نظرنا ، رأينا أن النتيجة ، كانت فلسفية دينية ، لا هى فلسفة محضة ، ولا هى دين خالص .

جاء اليهود إلى البلاد العربية ، ومعهم تلك الذخائر من الفكر ، لذلك أدلّوا على العرب بتلك الثقافة وكانوا يقولون عن عرب الجاهلية : ماعلينا فى الأميين سبيل . وأثروا فى أفكار المسلمين ، وكان كثير من الفتن التى وقعت بين المسلمين لهم اصبع فيها ، أو هم موقظوها ومثيروها . فعبد الله ابن سبأ كان على رأس الفتنة التى انتهت بقتل الخليفة الشهيد عثمان ، وكعب الأحبار أدخل القصص والخرافات فى أفكار كثير من المسلمين . وكان اليهود أحد ثلاثة : فريق بقوا على يهوديتهم ، وفريق دخلوا فى الإسلام ظاهرا وأبطنوا غيره ، وآخرون دخلوا فى الإسلام ولكنهم متأثرون بأقاصيصهم ، وأخبار أحبارهم ، وأولئك وهؤلاء أدخلوا فى الكتب الاسلامية وخصوصا فى بعض كتب التفسير شيئا كثيرا من أوهامهم ، وهم جميعاً كانوا من حملة الثقافة اليونانية التى كان لها الأثر الأكبر فى الفكر الاسلامى أيام ازدهار العلوم فى الدولة العباسية .

النصرانية :

النصرانية دين توحيد ، نزل على سيدنا عيسى عليه السلام ، فقد دعا إلى التوحيد ، وحث بنى إسرائيل وغيرهم على التسامح والعفو ، والدعوة بالبركة على المعتدين وغيرهم ، وفى الجملة جاء الانجيل فيه موعظة وهدى للمتقين. ولكن بعد انتقال المسيح إلى الرفيق الأعلى ، أخذت عقيدة التوحيد تلبس لبوسا يبعدها عن لبه ، ويظهر أن ذلك لم يتم دفعة واحدة ، فالتاريخ يحدثنا أن من النصارى فرقة هى أصحاب بولس الشمشاطى ، وكان بطريركا بأنطاكية كانوا يأخذون بالتوحيد المجرد ، ويقولون إن عيسى عبدالله ورسوله ككل الأنبياء ، وكان بولس هذا إذا سئل عن الكلمة وروح القدس ، قال: لا أدرى ، ومنهم فرقة أريوس ، وكان قسيسا بالاسكندرية اعتقد التوحيد ، وكون عيسى عبد الله ومخلوقه ، ولكنه زاد على ذلك أنه كلمة الله التى خلق بها السموات والأرض ويظهر أن هذه كانت الخطوة الأولى إلى التعدد والتثليث .

ثم جاءت فرقة اسمها البرترانية ، وهم يقولون أن عيسى وأمه إلهان ، ولعل هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » .

ثم جاءت بعد ذلك فكرة التثليث ، وقد أجمع القائلون به على أن معبودهم ثلاثة أقانيم ، وهذه الأقانيم الثلاثة شيء واحد ، وهو جوهر قديم ومعناه أب وابن وروح القدس ، والجميع إله واحد ، وأن الا بن نزل من السماء ، فتدرع جسداً من مريم ، وظهر للناس يحيي ويبرئ وينبئ ، ثم قتل وصلب ، وخرج من القبر ، فظهر لقوم من أصحابه ، فعرفوه حق معرفة ، ثم صعد إلى السماء (١) .

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٤٠٧ بتصرف قليل .

ولكنهم اختلفوا فى طبيعة المسيح من حيث اجتماع الألوهية والانسانية فيه :

فالملكانية ترى أن المسيح إله تام كله ، وإنسان تام كله ، وليس أحدهما غير الآخر ، ومريم ولدت الإله والإنسان ، وأنهما ابن الله ، ولكن الذى صلب وقتل الإنسان منه ، والإله لم ينله شىء .

والنسطوريون يرون مثل ذلك ولكنهم يقولون أن مريم ولدت الإنسان ، ولم تلد الإله منه ، والإله لم ينله شىء [1] :

واليعقوبيون : قالوا إن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح . وكما قال ابن حزم عنهم إن الله هو المسيح نفسه ، ولعل هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

وكان بين هذه المذاهب جدال عنيف فى العقائد كما سنبين .

وقد دخل مذهبان من هذه المذاهب فى البلاد العربية قبيل الاسلام وهما النسطورية واليعاقبة ، كان الأولون فى الحيرة ، والآخرون فى الشام .

وكان للنصارى أثر فى العرب فى الجاهلية وفى الاسلام . ففى الجاهلية دخل كثير من العرب فى النصرانية ، فانتقلت إليهم بعض الثقافات التى كانت عند النصارى ، وقد كانوا متأثرين بفلسفة الاسكندرية ، وكان النساطرة هم أساتذتها فى فارس ، فلا غرابة من أن تصل أثارة من هذه الثقافات إلى النفس العربية ، وقد أثار النصارى كاليهود حركة جدل ونقاش فى الجاهلية سنبينها عند الكلام على الجدل فى الجاهلية إن شاء الله .

المجوسية :

لب المجوسية فرض قوتين تتنازعان العالم : إحداهما قوى الخير ،

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٤٩ .

وثانيتهما قوى الشر . ورمزوا للأولى بالنور ، والثانية بالظلمة . وقد قال الشهرستانى فى الملل والنحل عن المجوس : زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ؛ بل النور أزلى ، والظلمة محدثة . ثم اختلفوا فى حدوثها من النور على فرق مختلفة يطول بنا القول لو عمدنا إلى ذكرها .

ومهما يكن من الأمر ، فآلهة الخير فى نزاع مستمر دائما مع آلهة الشر . وعبادة الانسان إعانة لآلهة الخير ، وفعله فى الحياة يجب أن يكون فيه هذا المعنى أيضاً ، وقد جاء فى المجوس مصلحون مثقفون غيروا كثيراً من لب العقيدة واختلفت آراؤهم الخلقية والاجتماعية ، ومن هؤلاء زرادشت الذى يزعمه بعض العلماء نبى الفرس ، ومانى ، ومزدك .

الزرادشتية :

وملخص تعاليم الأول أن قوى الخير شيء واحد سماه « يزدان »،وقوى الشر شيء واحد سمى « أهرمن » وبذلك يكون عنده قوتان إحداهما للخير ، والأخرى للشر . ويقول صاحب الملل والنحل فى مذهبه : كان دينه عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث . وقال : النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك يزدان وأهرمن وهما مبدأ وجود العالم ، وحدثت التراكيب من امتزاجهما . ومن هذا ترى أنه يعتبر قوى الخير والشر غير الإله الأعظم ، وأن الإله الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى ، جعل هاتين القوتين مبدأ ، وهما يتغالبان تحت سلطانه ، ولئن صح هذا لكان هذا المذهب قريباً من المذاهب التوحيدية ، ولا يعد من مذاهب التنويه ، ومن مبادئه أن أشرف عمل للإنسان الزراعة والعناية بالماشية ، وحث على العمل حتى إنه حرم على أصحابه الصوم ، لكيلا يضعفهم عن العمل ، ففضل أن يكونوا أقوياء عاملين . على أن يكونوا صواماً زهاداً غير عاملين ، وقد أثبت أن للإنسان حياتين : حياة دنيا وحياة أخرى. وأن الأخرى الباقية ، وفيها الخير كله ، كما أثبت الصراط والحساب ، والثواب والعقاب .

المـانوية :

وهم أتباع مانى ، وقد كان راهبا بحران(١) . وقد سن بعد ذلك لنفسه مذهباً جامعاً بين الزرادشتية والمسيحية ، وقال الأستاذ براون فى ديانته : لأن تعد زرادشتية منصرة أقرب من أن تعد نصرانية مزردشة(٢) . وهو يؤمن بنبـوة عيسى وزرادشت ، ويدعى أنه هو البارقليط المبشر به فى الإنجيل ، وقد قال : إن العالم يرجع فى تكوينه إلى قوى الخير وقوى الشر ، وكلتاهما تحت سلطان الله كما قال زرادشت ، ولكنه يختلف عنه بأن زرادشت رأى أن فى امتزاج النور بالظلمة طريقا لنصرة الخير على الشر ، ولما كان هذا الامتزاج فى الدنيا ، فهو يرى أن الخير فى صراع مع الشر ، وأن الخير سينتصر حتما فى هذا العالم ، ولذلك حث على التناسل ، وعلى العمـل على تعمير هـذه الدنيا ، أما مانى فيرى أن امتزاج النور بالظلمة شر ، يجب الخلاص منه ، ولذا حرم النكاح حتى نستعجل هذا الفناء .

يروى أن قاضى قضاة الفرس فى عهـد بهرام ناقشه فقال له : أنت الذى تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم ؟ . فقال مانى : واجب أن يعان النور على خلاصه ، لقطع النسل ، فقال القاضى : فمن الحق الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذى تدعو إليه ، وتعان على إبطال الامتزاج المذموم . فبهت مانى ، فأمر به ، فقتل .

وقد كان يدعو إلى الزهد وترك العمل .

ومما قال فيه بهرام عند قتله : إن هـذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شىء من مراده . وقد

---

(١) سرح العيون .
(٢) فجر الإسلام .

اضطهد أتباعه قبل الإسلام ، ولكنهم مع ذلك عاشوا إلى الإسلام ، بل استمروا إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وأخذ بمذهبهم أناس من أوربا .

المزدكية :

وهم أتباع مزدك ، وقد كان يرى أن العالم مكون من عنصرين : النور والظلمة ، كالمانوية ، غير أنه زاد عليهم الأخذ بأن النور مختار حساس ، وأن الظلمة ليست كذلك ، وأن امتزاج النور بالظلمة وقع بالاتفاق من غير اختيار ، وقد دعا إلى مذهب اجتماعى اشتراكى مخرب ، وقال الشهرستانى فيه : كان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ؛ ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .

وقال الطبرى فى تاريخه : قال مزدك وأصحابه أن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ، ليقسمها العباد بينهم بالتساوى ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة ، فليس هو بأولى من غيره ، فافترض السفلة ذلك ، واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه ، وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا قباذ[1] على تزيين ذلك ، وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صار لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئاً مما يتسع به .

وهذا كما ترى مذهب اشتراكى فوضوى مخرب ، بناه كما بينا على دعوى نشر المحبة بين الناس . ولأن فيه خلعا لكل قيود الاجتماع والفضيلة ، ودعوة للانسياق وراء الرذيلة ، وانطلاق الشهوات والنزوات ، اندفعت جموع

---

(١) قباذ ملك الفرس فى إبان ظهور مزدك .

لمناصرته ولما ترتب على ذلك من الخراب والفساد حاربهم ملوك فارس غير قباذ ، بل قيل إن قباذ هو الذى قتل مزدك، وبعد أن رأى من الفساد ما هزع الأخلاق ، وضيع الأنساب ، وأذهب المروءات، وبعد أن تفاقم الشر وادلهم الأمر ، وذاعت العداوة مما أسموه دعوة إلى المحبة ، ومع اشـتداد الدولة الفارسية فى محاربتهم والقضاء عليهم ، تسربت إلى قليل من المسلمين بعض آرائهم كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

هذه هى الديانات الثلاث التى اعتورت العقل الفارسى قبل الإسلام . وقد سرى بعضها إلى العرب فى الجاهلية . انظر إلى ما قاله ابن قتيبة فى كتابه المعارف : كانت المجوسية فى تميم ، منهم زرارة ، وحاجب بن زرارة ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً . كما سرى كثير من أفكارهم إلى بعض المسلمين الذين دخلوا فى الإسلام وفى رؤوسهم تعاليمها ، فاستمرت مستولية على شعورهم ، مع أنهم ارتضوا الإسلام دينا ، ومنهم من دخلوا فى الإسلام ظاهراً ، وأضمروا تلك النحل باطنا ، وهؤلاء وأولئك كانوا سببا فى ظهور كثير من الفرق الإسلامية . كما أن بعض الفرق ما كانت إلا لمحاربتهم ، وسترى أنهم كانوا السبب الأكبر فى حركة الجدل فى أصـول الاعتقاد بين المسلمين .

الصابئة :

اضطربت أقوال المؤرخين والعلماء فى حقيقة الصابئة اضطراباً كبيراً واختلفوا فى شأنهم اختلافاً لم يجتمعوا فيه على رأى ، ولم ينتهوا معه إلى قول يطمئن إليه الفؤاد .

فقد قال أبو بكر الرازى فى كتابه أحكام القرآن : إنهم فريقان : أحدهما بنواحى كسكر والبطائح ، وهم صنف من النصارى وإن كانوا مخالفين لهم فى كثير من دياناتهم (لأن النصارى فرق كثيرة) وهم ينتمون إلى يحيى ابن

زكريا وشيث ، وينتحلون كتباً يزعمون أنها كتب الله التى أنزلها على شيث ابن آدم ، ويحيى بن زكريا ، والنصارى تسميهم يوحناسية . وفرقة أخرى قد تسمت بالصابئين وهم الحرانيون الذين بناحية حران ، وهم لا ينتمون إلى أحد من الأنبياء ، ولا ينتحلون شيئاً من كتب الله .

وقال فى موضع آخر من كتابه : والصابئون الذين يعرفون بهذا الاسم فى هذا الوقت (١) ليس فيهم أهل كتاب ، وانتحالهم فى الأصل واحد ، أعنى الذين بناحية حران ، والذين بناحية البطائح فى سواد واسط ، وأصل اعتقادهم تعظيم الكواكب السبعة ، وعبادتها ، واتخاذها آلهة ، وهم عبدة الأوثان فى الأصل إلا أنهم منذ ظهر الفرس على إقليم العراق ، وأزالوا مملكة الصابئين ، وكانوا نبطاً لم يجسروا على عبادة الأوثان ظاهراً ، لأنهم منعوهم من ذلك ، وكذلك الروم وأهل الشام والجزيرة كانوا صابئين ، فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على الدخول فى النصرانية ، فبطلت عبادة الأوثان من ذلك الوقت ، ودخلوا فى غمار النصارى فى الظاهر ، وبقى كثير منهم على تلك النحلة مستخفين بعبادة الأوثان ، فلما ظهر الإسلام دخلوا فى جملة النصارى ، ولم يميز المسلمون بينهم وبين النصارى ، إذ كانوا مستخفين بعبادة الأوثان كاتمين لأصل اعتقادهم ، وهم أكتم الناس لاعتقادهم ولهم أمور وحيل فى صبيانهم إذا عقلوا فى كتمان دينهم وعنهم أخذ الإسماعيلية كتمان المذهب ، وإلى مذهبهم انتهت دعوتهم . وأصل الجميع اتخاذ الكواكب السبعة آلهة وعبادتها ، واتخاذهم أصناماً على أسمائها ، لا خلاف بينهم فى ذلك وإنما الخلاف بين الذين بناحية حران ، وبين الذين بناحية البطائح فى شىء من شرائعهم ، وليس فيهم أهل كتاب .

والذى يستخلص من هذا الكلام أن القرن الرابع الهجرى لم يشهد إلا

---

(١) الوقت الذى عاش فيه أبو بكر الرازى هو القرن الرابع الهجرى فقد توفى سنة ٢٧٠ من الهجرة .

صنفاً واحـــداً من الصابئين ، بعضهم يسكن بالبطائح ، وبعضهم يسكن بحران ، وقد اتفق الجميع مع تباين الأصقاع على عبادة الكواكب ، وإن اختلفا فى بعض الشرائع ، لا فى لب الاعتقاد ، ويظهر أن بعضهم قد لبس مسوح النصارى وظهر بمظاهرهم ، استخفاء بدينهم ، وكتماناً لحقيقة أمرهم .

أما قبل القرن الرابع ، فيفيد كلامه أنهم كانوا فريقين : أحدهما ينتحل دين النصارى تقية وخوفاً ، ولذا يقول : والذى يغلب فى ظنى فى قول أبى حنيفة فى الصابئين أنه شاهد قوماً منهم ، يظهرون أنهم نصارى وأنهم يقرءون الإنجيل وينتحلون دين المسيح تقية ، لأن كثيراً من الفقهاء لا يرون إقرار معتقدى مقالتهم بالجزية ، ولا يقبل منهم إلا الإســلام أو السيف . ويقول : وأما أبو يوسف ومحمد فقالا إن الصابئين ليسوا أهل كتاب ، ولم يفصلوا بين الفريقين .

وإذا كان لنا أن نستخلص من هذا شيئاً فهو أن الفريقين كانا قبل القرن الرابع متقاربين إلى درجة الالتباس ، ولذا كان ذلك الاختلاف بين أبى حنيفة وصاحبيه ، بل إن الاختلاف فى حقيقتهم لم يكن فقط بين فقهاء الحنفية ، بل كان بين فقهاء التابعين أيضاً ، فقد روى عن الحسن البصرى أنه كان يقول فى الصابئين هم بمنزلة المجوس ، وروى عن مجاهد أنه قال : الصابئون قوم من المشركين بين اليهــود والنصارى ليس لهم دين ، وروى عن جابر أنه سئل عن الصابئين : أمن أهل الكتاب وطعامهم ونساؤهم حل للمسـلمين ؟ فقال : نعم .

ومن هذا ترى أن حقيقتهم كانت ملتبسة على فقهاء التابعـين ، ولذا اختلفت أنظارهم ، وتباينت آراؤهم ، ولو كانت حقيقتهم معروفة على التعيين أهم أهل كتاب أم ليسوا أهل كتاب ؟ ما اختلفوا ذلك الاختلاف . وذلك الالتباس كان لتقارب من انتحل منهم نحلة النصارى من غيرهم .

ولنترك الفقهاء فى خلافهم ، ونول وجهنا شطر مؤرخى الملل والنحل ، فسنجد أن الشهرستانى يذكر أن الصابئة فريقان :

١ — أصحاب الروحانيات :

وهؤلاء يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى فاطر السموات والأرض ، وهو مقدس عن سمات الحدثان ، والواجب معرفته هوالعجز عن الوصــول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليــه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون فعلا وحالة ، الذين فطروا على التقديس والتسبيح ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم إنهم يرون فى الروحانيات أنهم يتوســطون فى الايجاد وتصريف الأمور ، فمع المطر روحانى يدبره ، وقد اعتقد هذا الفريق من الصابئة أن الروحانيات قد حلت فى السيارات السبع ، فقدسوها أو عبدوها .

٢ — أصحاب الأشخاص :

وقد قالوا مقالة الأولين فى أن الله هو المنشىء الأول ، وأن الروحانيات متوسطات فى الايجاد والاختراع ، وأنها تحل فى السيارات ، ولكن لما كانت السيارات تطلع وتأفل اتخذوا أصناماً على مثال الهياكل وهى السيارات ، كل شخص فى مقابل هيكل ، فكانوا بهذا من عبدة الأوثان ، وقد ذكر الشهرستانى بعد ذلك أن الخليل إبراهيم ناظر الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، ثم ناظر أصحاب الهياكل الروحانيين . وقد ذكر الله ذلك فى قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا » ....الآيات .

ويفهم من كلام الشهرستانى ومن المناظرات التى ساقها بين من سماهم حنفاء ، والروحانيين أن من الصابئة من اعتقد أن الروحانى هو الوسيط وهو الذى يعبد من غير نظر إلى هيكله (١) .

---

(١) يراجع الموضوع كله فى الملل والنحل للشهرستانى جـ ٢ .

ويقول فى الحرانيين ابن النديم فى الفهرست كلاما كالذى أثبته الشهرستانى ولكنه يزيد عليه أن هؤلاء انتحلوا اسم الصابئة فراراً من القتل ، ويحكى فى ذلك أن المأمون اجتاز فى آخر أيامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقاه الناس يدعون ، وفيهم جماعة من الحرانيين ، وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة ، فأنكر المأمون زيهم ، وقال لهم: من أنتم من الذمة ؟ فقالوا : نحن الحرانية ، فقال : أنصارى أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فيهود أنتم ؟ قالوا : لا . قال : فمجوس أنتم ؟ قالوا : لا . قال لهم :أفلكم كتاب أم نبى ؟ فجمجموا فى القول . فقال لهم : فأنتم إذن الزنادقة ، عبدة الأوثان ، وأنتم حلال دماؤكم ، لا ذمة لكم . فقالوا : نحن نؤدى الجزية . فقال لهم : إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم عز وجل فى كتابه ، فاختاروا أحد أمرين : إما أن تنتحلوا دين الإسلام ، أو دينا من الأديان التى ذكرها الله فى كتابه ، وإلا أمرت بقتلكم ، واستئصال شأفتكم(١) ، ويقول:إن المأمون رحل إلى الروم وهم قد أسلم بعضهم ، وبعضهم قد انتحل اسم الصابئة ليكون فى دين ذكر فى القرآن .

والحق أنى أشك فى صدق هذه الحكاية :

— لأنه بعيد جداً أن يكون المأمون غير عليم بعقيدة الحرانيين ، إذ المأمون يعد من العلماء الفلاسفة الذين أوتوا حظاً كبيراً من علم الملل والنحل فكيف لا يعرف شيئاً عن ملة قوم من رعيته ؟

— ولأن بعض التابعين قد وصفوا الصابئة بالوصف الذى عليه الحرانيون من أنهم يعبدون الكواكب والأوثان ، إذن فالحرانيون كان يطلق عليهم اسم الصابئة قبل المأمون .

(١) الفهرست ص ٤٤٥ .

— ولأن أبا حنيفة وصاحبيه اختلفا فى حقيقة الصابئة كما علمت ، وأن صاحبيه وصفا الصابئة بالأوصاف التى يوصف بها الحرانيون ، فالحرانيون إذن كان يطلق عليهم اسم الصابئة قبل أن يجيء المأمون ، لأن الصاحبين عاصرا الرشيد ، ومن قبله ، كما يعلم كل من له إلمام بالتاريخ .

— ولأن القصة تذكر أن المأمون سألهم أهم نصارى ؟ أهم يهود ؟ أهم مجوس ؟ ولم تشر إلى أنه سألهم أهم صابئة مع أن الصابئين ذكروا بجوار اليهود والنصارى وبعيد أن يغفل المأمون عن الصابئين ، وهو المجادل الحاضر البديهة ، القوى العارضة ، الذى قضى أكثر حياته فى نضال فكرى قوى .

وعلى ذلك فنحن نميل إلى أن الحرانيين كان يطلق عليهم اسم الصابئة قبل المأمون بل قبل مجيء الإسلام ، كما تبين من فحوى كلام أبى بكر الرازى ، ونميل مع ذلك إلى أنهم كانوا يقدسون الكواكب ، ومنهم من اقتبس من النصرانية واليهودية على ما علمت ، كما اقتبس المانوية من المسيحية على ما ذكرنا من أن دياناتهم كانت مزيجاً من النصرانية والزرادشتية .

بقى أن نتكلم فى أمر قد أثاره بعض الباحثين وهو أهؤلاء الصابئون هم المذكورون فى القرآن الكريم أم صابئة القرآن غيرهم ؟ ومن هم ؟

قد رأيت أن ابن النديم قد حكم بأن صابئة القرآن ليسوا هم الحرانيين ، ولا من يقاربونهم . وبرجوعنا إلى كتب التفسير نجد المفسرين قد اختلفوا فى حقيقتهم كاختلاف المؤرخين وعلماء الملل والنحل أيضاً .

فالراغب الأصفهانى فى مفرداته فى غريب القرآن يقول: الصابئون قوم على دين نوح ، وقيل: لكل خارج من دين إلى دين: صابىء .

وشيخ المفسرين ابن جرير يقول : قالوا : الذين عنى الله بهذا

الاسم قوم لا دين لهم . . . عن مجاهد: الصابئون ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا دين لهم ، ثم يروى عن عطاء أنه قال : الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل(١) يقولون: لا إله إلا الله ؛ ولم يؤمنوا برسول .

وفخر الدين الرازى يروى الاختلاف فى شأنهم فيروى أن بعض المفسرين يقول إنهم طائفة من المجوس واليهود ، وأن بعضهم يقول إنهم يعبدون الملائكة . ثم يختار هو أنهم يعبدون الكواكب فيقول : ثالثها وهو الأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب .

والحافظ ابن كثير يروى الأقوال السابقة ويزيد عليها قول الخليل أنهم قوم يشبه دينهم دين النصارى ، وقول القرطبي إنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم ، وأنها فاعلة .

وهكذا تدور أقوال المفسرين الأقدمين حول هذه الأقوال ، والكثرة ترى أنهم يعبدون الكواكب أو أن لها أثراً فاعلا فى الكون .

والمتأخرون من المفسرين لم يخرجوا عن ذلك النطاق ، فالآلوسى يقول فى شأنهم : هم قوم مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، واتخاذهم وسائط ، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقى منها بذواتها ، فزعت جماعة منهم إلى هياكلها ، فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وجماعة نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ، فالفرقة الأولى هم عبدة الكواكب ، والثانية هم عبدة الأوثان وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى ، مختلفون فى الاعتقادات والتعبدات .. وقيل هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ، وقيل إنهم يقرون بالله تعالى ، ويقرءون الزبور ، ويعبدون الملائكة وقد أخذوا من كل دين شيئاً .

---

(١) لعله يقصد الصابئين الذين كانوا بالبطائح ، وقد علمت أنهم كانوا يتفقون مع الحرانيين فى عبادة الكواكب ، ويختلفون منهم فى بعض الشرائع .

والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يتردد بين كونهم فرقة من النصارى، وبين كونهم أهل دين آخر ، فيقول :

وأما الصابئون ، فإن كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما فى كثير من التقاليد ، كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد ، فالأمر ظاهر ، وهو أن حكمهم كحكمهم ، وإن كان الخلط عندهم أكثر ، والبعد عن الأصل أشد ، حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب ، وأحاطت بهم البدع من كل جانب ؛ على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى ، فإن عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة تؤثر عن المسيح عليه السلام والنصارى هم أشد أمم الأرض عتواً وطمعاً وإسرافاً فى حظوظ الدنيا . ويقال إن الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين ، ولكن قد اختلط عليهم كما اختلط على الحنفاء من العرب ، إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام ما لم يكن عند العرب

مضطرب فسيح ، ومزدحم من الآراء ، يتيه العقل فى اختيار رأى يطمئن إليه ويسكن عنده ، ولكن مع ذلك نلمح من بين ثناياها ، ومن خلال ذلك المعترك أن صابئة القرآن هم قوم يقدسون الكواكب أو يعبدونها مع أخذ من النصرانية ، وهذا هو القول الذى عليه الكثرة الغالبة ، وهو الذى يتفق مع التحقيق التاريخى الذى أسلفناه .

والنتيجة من ذلك السياق ، وهذه المقدمات أن الصابئة قوم يعبدون الكواكب أو يقدسونها ، وقد خلطوا بذلك بعض المبادىء النصرانية وبعض تقاليد النصارى ، كما خلط مانى بالزرادشتية مبادىء نصرانية ، وأن هؤلاء هم الصابئة المذكورون فى القرآن الكريم والله أعلم بالصواب .

الجدل بين أهل هذه الديانات :

رأيت البلاد العربية كانت مسرحاً لكثير من الديانات ، ومضطربا فسيحاً للنحل المختلفة ، وحيثما اجتمع أهل دينين ، فلابد أن الاحتكاك يشتد بينهما ، يأخذ أحياناً صورة الجدل البيانى ، وأحياناً أخرى يمتشق الحسام ، وتتقارع الأسنة بدل مقارعة الحجج . والتاريخ يروى أن البلاد العربية كان فيها هذان النوعان من الاحتكاك . فذو نواس اليهودى كان يحاول نشر اليهودية بين نصارى نجران بالسيف ، بعد أن عجز عن استمالتهم بالحجة والبرهان ، والحرب كانت قائمة وشديدة بين القبائل الوثنية بالمدينة وبين اليهود ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم .

وأما النزال بالبيان ، والجدل باللسان فقد كان كثيراً . وإنا ذاكرون لك طرفاً منه ، واصفين حاله ، مبينين شعبه وأنواعه فمنه :

الجدل بين النصارى والمشركين :

وكان ذلك بين القبائل العربية المشركة التى تجاور القبائل النصرانية ، لأن النصارى كثيراً ما كانوا يدعون تلك القبائل إلى عقيدتهم ، ويبشرون بها وينذرون بالبعث والنشور ، وغير ذلك مما كان بعض العرب ينكره ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى قوله تعالى : « أئذا متنا وكنا تراباً أئنا لفى خلق جديد » .

بل كان القسيسون والرهبان يردون الأسواق العربية ، ويعظون ويبشرون ويذكرون البعث والجنة والنار ، ولعل خطبة قس بن ساعدة التى اشتهرت فى كتب الأدب من ذلك النوع . ولكن يظهر أن العقل العربى الفطرى لم يستسغ عقيدة التثليث ، ولا الإيمان برب مصلوب ، لذلك تصدوا للرد على النصارى وإبطال دعاويهم ، وكانت المناقشة بين الفريقين التحام عقل ساذج فطرى ،

لا يدرك تعقيداً ، وعقل معقد يدعو إلى عقيدة ليس من السهل استساغتها ، وقد روى فى التاريخ مناظرة تصور لك ذلك الالتحام تمام التصوير ، وهاهى ذه بما حاطها من أحوال .

أراد الأساقفة أن ينصروا المنذر الثالث ملك الحيرة حوالى عام ٥١٣ من الميلاد ، وأن المنذر ليصغى إليهم إذ دخل عليه قائد من قواده ، فأسر إليه بضع كلمات ، ولم يكد ينتهى منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق ، فتقدم إليه قسيس من القسيسين ، يسأله عما أشجاه ، فأجابه الملك: يا له من خـــبر سيىء ، لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسرتاه عليه ، فقال القسيس : هذا محال ، وقد غشك من أخبرك ، فإن الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء ، فأجابه الملك : أحق ما تقوله؟ وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت(١) .

انظر إلى تلك المناقشة التى تلمح فيها قوة العقل التى ترد أعقد المسائل إلى أقرب البدهيات ، ليدركها النظر السليم ، وليفحم المجادل العنيد ، وألا تلمح سذاجة الفطرة القوية ، قد التقت مع التفكير المعقد فحلت عقدته ، وبينت له ما ينبغى أن يدركه الفكر القويم .

ولكن يظهر أن النصارى كانوا يلحنون عليهم بالحجة ، عندما كانوا يعمدون إلى تحطيم عقدة العرب فى عبادة الأوثان وإنكار البعث وغيرها . وكانوا يُدِلُّون عليهم بعلمهم وثقافتهم . وكل أولئك مسائل تجعل لهم الغلب فى مقام الجدل أحياناً . ولأجل هذا وما سبقه من استقامة الفكر العربى كانت المنازلة الفكرية سجالا ، لا انتصار لأحد الفريقين على الآخر .

---

(١) جاء هذا فى كلام للمستشرق دوزى ترجمة الأستاذ كامل كيلانى .

جدل اليهود مع المشركين :

تغلغل اليهود فى البلاد العربية ، واختلطوا بأهلها ، وكانت بينهم منافسات ومنازعات ، كالحال بين طائفتين من الناس ، لم تتوحد مشاعرهما ، ولم تجمعهما عادات ، والوحدة الجنسية بينهما قوية الأواصر والمنازع الدينية ليست متحدة ، وقد كان اليهود يحاولون نشر دينهم فى البلاد العربية كلها ، والعرب ينفرون من دعوتهم ، لأنهم وجدوا فى اليهود قوماً مغالين فى تقدير أنفسهم ، ومنزلتهم الدينية ، حتى قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، ومن كانت هذه حاله لا يجيب الناس داعيه ، ولا يَغْشَوْنَ ناديه ، ولأن من اليهود من كانوا يستبيحون أموالهم ، ولا يوفون بعهدهم ، كما حكى القرآن الكريم عنهم، قال تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم ما إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » .

فهم كانوا ينظرون إلى العرب كأنهم فى المنزل الهون ، والمكان الدون ، فطبعى أنهم إذا دعوهم إلى دينهم لا يدعونهم بالحسنى والرفق ، ولايحاولون اجتذابهم ، وأولئك يجدون فى أخلاقهم ومعاملاتهم لهم ما لا يرغبهم فى اليهودية ، لذلك كانت تكثر المجادلات والملاحاة ، والمخاصمات . وقد أشار القرآن الكريم إلى شىء من ذلك فى مثل قوله تعالى فى شأنهم : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

وقد حكى أصحاب السير والمفسرون شيئاً من تلك المناقشات من ذلك ما جاء فى السيرة النبوية لابن هشام منسوباً إلى سلمة بن سلامة من أهل بدر قال : كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل قال فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل . قال سلمة وأنا يومئذ أحدث من فيه

سناً على بردة لى ، مضطجع فيها بفناء أهلى ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، قال فقال ذلك لقوم أهل شرك ، أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له ويحك يا فلان ، أو ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم . قال نعم : والذى يحلف به وبود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى النار يحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غداً ؛ فقالوا ويحك يا فلان ، فما آية ذلك ؟ قال نبى مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ؛ فقالوا : ومتى نراه ؟ قال فنظر إلى ، وأنا من أحدثهم سناً ، فقال إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه . ألا ترى من هذا صورة وإن لم تكن كاملة لمناظرة ، وضح فيها عقيدة البعث وناقشوه فيها ، ثم أتى لهم بما رآه دليلا ، وفيه تبشير بالنبى ﷺ .

جدل المشركين مع الحنفاء :

علمت أنه كان من بين العرب من أنكر على المشركين عبادة الأوثان ، فهجروها ؛ ومنهم من دخل النصرانية ، ومنهم من دخل اليهودية ، ومنهم من بقى على عبادة الله وحده ، ولم ير فى المسيحية واليهودية فى عصره ديناً يطمئن إليه قلبه ، وتسكن إليه نفسه ، وسمى أولئك حنفاء[1] وكانوا يقولون

(١) وادعى بعض الفرنجة أن الحنفاء هم مشركو العرب ، وذلك قول باطل ليس له أساس من الحقيقة ، وقد خالفهم بعض الفرنجة ، فشهد عليهم بعض أهلهم ، ومن هؤلاء دوزى فهو يقول فى الحنفاء : كان للحنفاء رأى واحد فى رفض اليهودية والمسيحية معا ، والاعتراف بدين إبراهيم . . . وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة الحجة سهلة الاقناع لهؤلاء العرب العمليين ، صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة . ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى الرد على الفريق الأول من الفرنجة : قال بعض المشتغلين بالعربية من الإفرنج أن الحنفية هى ما كان عليه العرب من الشرك ، واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى فى زمن الجاهلية : إن فعلت هذا أكون حنيفا . وإنما لفلسفة جاءت من الجهل باللغة ، وقد تأخر بعض علماء الإفرنج فى هذا ، فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصرانى ، وهو الآن يجمع كل ما نقل =

أنهم آخذون بديانة إبراهيم عليه السلام . وكانت دعوتهم إخوانهم العرب لهجر عبادة الأوثان حافزة للجميع على المناقشة ، ولم ينظر العرب إليهم نظرة عاطفة ، بل اضطهدوهم وأخرجوهم من ديارهم ، لما وجدوهم يحاربونهم فيما ألفوه ، ولم يجدوا لهم حجة يردون بها عليهم ، وحينما وجدت قوماً آخذين بعقيدة راسخة ، لا يستطيعون الدفاع عنها ، ولا الإبراء عليها ؛ وأمامهم قوم ينقضونها ، فلا يقوون على الرد عليهم ، فاعلم أن العاجزين سيعمدون إلى القوة حيث عجزوا عن الدليل ، وأمحل بهم البرهان. ومن الحنفاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وإنا ذاكرون لك شيئاً من أمره ، لتتصور كيف كان يناقش فى عقيدتهم ، وكيف اضطهد فى عقيدته . قال فيه ابن هشام ، بعد أن ذكر دخول من أنكروا عبادة الأوثان فى النصرانية واليهودية : وأما زيد بن عمرو بن نفيل ، فوقف فلم يدخل فى يهودية ، ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة وقال : أعبد رب إبراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه ، قال ابن إسحاق ، حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل شيخاً كبيراً ، مسنداً ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يسجد على راحته . وكانت زوجه صفية بنت الحضرمى تناقشه وتنكر عليه عبادته .

= عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها . ولا دليل فى كلمة النصرانى العربى على أن الكلمة تدل لغة على الشرك ، وإنما مراده بكلمته البراءة من دين العرب مطلقا . وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء وينتسبون إلى إبراهيم ويزعمون أنهم على دينه . وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضا . والسبب فى هذه التسمية أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة .

ولما اعتزم الخروج من مكة المكرمة استنكاراً لعبادة أهلها الأوثان ، منعه عمه الخطاب بن نفيل من الخروج وعاتبه ، وجعل زوجه صفية هذه عيناً عليه ، تخبره كلما أراد الخروج وتهيأ له ، وقد استمر يناقشهم فيما ارتآه ، ويدعوهم إليه حتى أغروا به سفهاءهم ، وآذوه كراهة أن يفسد عليهم دينهم ، وأن يتابعه أحد ، فضاقت به الحال ، وخرج إلى الموصل والجزيرة ، طلباً لقوم يتدينون بدين إبراهيم ، وهو حيثما حل ناقش من يلاقيهم من أهل الديانات ؛ حتى إنه شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئاً منهما ، ولما توسط بلاد لخم عائداً إلى مكة المكرمة داعياً إلى عقيدته قتلوه ، وقد قال فيه النبي ﷺ : « إنه يبعث أمة واحدة » .

ألا ترى من هذا صورة مصغرة لجدل ، كان يقوم بين المشركين ، وأولئك الموحدين ، وقد كان جدل قوم ، وصلوا بعقولهم إلى الحق ؛ فيهم من قوة النفس وقوة الفكر شطر كبير ، مع قوم اتبعوا ما ألفوا ، ولم يريدوا أن يغيروه ، فبينا ترى فى الأولين حركة فكر وقوة استدلال ، ترى فى هؤلاء جموداً وعكوفاً على فكرة بالية ، وكسلا ذهنياً يمنعهم من التحليق فى غير الجو الفكرى الذى عاشوا فيه وألفوه حقاً كان أو باطلا ، وكذلك يكون دائماً الجدل بين النشطاء ذوى الفكر المستقل العامل ، والمقلدين ذوى الفكر التابع الخامل ، وسترى صورة لذلك النوع من الجدل ، هى على أوضح منهاج له ، وأبين شكل من أشكاله فيما يلى .

* * *

الجدل في عصر النبوة

جاء النبي ﷺ بدين يخالف كل الأديان التى كانت فى البلاد العربية ، فى عقائده ، وعباداته ، وشرائعه الاجتماعية ، وآدابه الخلقية ، من بعد أن كان يسود البلاد العربية عبادة الأوثان . جاءهم محمد ﷺ بعبادة إله واحد هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، ولكل إنسان أن يدعو الله فيجيبه من غير وساطة « ادعونى أستجب لكم » وأن يفهم الدين من كتاب وسنة رسوله من غير توسيط أحد ، فليس لأحد كائناً من كان سلطة على الناس فى عقائدهم ، وبذلك خالف دين محمد اليهود والنصارى « الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

وقد آمن النبى ﷺ وتابعوه ، كما أمرهم ذلك الدين الحنيف بالأنبياء السابقين ، فخالف بذلك اليهود والنصارى أيضاً الذين يريدون ألا يعترفوا بغير اليهودية أو النصرانية ديناً ، « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ؛ وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ، فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم » .

دعا ذلك الدين الجديد إلى الإيمان بحياة أخرى ، فيها يجزى الإنسان بالخير خيراً ، والشر شراً : « فمن يعمل مثال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل

مثقال ذرة شراً يره » . وبذلك خالف ما كان عليه بعض المشركين من إنكار البعث والنشور فقد قالوا « ذلك رجع بعيد » .

خالف ذلك الدين فى آدابه وشرائعه كثيراً مما كان عليه المشركون فى الجاهلية ، وحرم الدعوة إلى العصبية الجاهلية ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية » . وإن شئت أن تعرف خلاصة ما جاء به ذلك الدين مخالفاً ما كان عليه العرب فى جاهليتهم ، فاستمع إلى ما روى عن جعفر بن أبى طالب ، إذ قال مخاطباً النجاشى ملك الحبشة :

كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا .

جاء محمد ﷺ بكل ذلك ، فخالف العرب قاطبة فى كل ما كانت عليه من عبادة ، فكان طبيعياً أن تحدث دعوته هذه حركة فكرية جدلية واسعة النطاق ، وأن تكون شاغلا للذهن العربى حقبة طويلة من الزمان ، بل إن الإنسان لا يعدو الحقيقة إذا قال : إن النبى ﷺ بمجرد أن دوى صوته

الرهيب فى الجزيرة العربية منادياً العرب عامة وقريشاً خاصة ، قائلا : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ماكذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالشر شراً وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد .

بمجرد أن نادى النبي ﷺ ذلك النداء ، صارت الجزيرة كلها تتحدث فى شأنه ، وتتجادل فى أمره ، بين حائر مضطرب بين قديم قد ألفه ، وجديد قد عرفه ، ومنكر مُلَاحٍ ، لأنه رأى فى الجديد ما يناقض غاياته ومآربه، وميال إلى ما قال الرسول ﷺ ، لأنه رأى فيه وضح الحق المبين ، بل إن الجدل فى شأن النبي ﷺ تجاوز فى عصره ربوع البلاد العربية إلى الروم والفرس والحبشة ، كما رأيت من كلام جعفر بن أبى طالب السابق للنجاشى ، وكما سنبين فى مناقشة هرقل لأبى سفيان :

ولأجل أن نحصر الجدل فى عصر النبي ﷺ نقول : إن الجدل فى عصره عليه الصلاة والسلام ، كان من نواح ثلاث :

(أ) جدل النبي ﷺ مع المشركين .

(ب) وجدله عليه الصلاة والسلام مع اليهود والنصارى .

(جـ) وجدل العرب والروم والحبشة مع بعض القرشيين .

جدل النبي عليه الصلاة والسلام مع المشركين :

دعا النبي عليه الصلاة والسلام إلى ربه بالحسنى ، وبين لهم عقيدة الإسلام بالتى هى أحسن . يقول ابن جرير الطبرى فى تاريخه : صدع رسول الله ﷺ بأمر الله ، ونادى قومه بالإسلام ، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه بعض الرد فيما بلغنى حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل

ذلك ناكروه ، وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون . ويفهم من هذا أن المشركين عندما ناداهم رسول الله ﷺ بالدعوة أعرضوا ونفروا ، ولكن لم يظهروا له عداوة ، ويظهر أن النبي ﷺ لاحظ ذلك الإعراض ، فأراد أن يجذبهم إلى مناقشته ، والمناقشة بين الأكفاء محك الصواب ، ومخبار الحقيقة ، فذكر آلهتهم ، وبين بطلان عبادتها ، فأقبلوا مجادلين ، ولكن الجدل باللسان أعجزهم ، وهم القوم الخصمون ؛ فعمدوا إلى الاستهزاء والسخرية ، وأغروا السفهاء به ﷺ ، ثم انتقل الأمر من جدل ومقارعة بالحجة إلى اضطهاد ومقاطعة للنبي عليه الصلاة والسلام ، مما تعلم أمره فى السيرة النبوية .

وهنا نذكر لك شيئاً من جدلهم له عليه الصلاة والسلام يصور لك حالهم ويبين مآلهم .

جاء فى سيرة ابن هشام أن المشركين عندما ضاقوا بالنبى عليه الصلاة والسلام وذهبت معه كل حيلة لهم ، وبعثوا إليه ليكلموه ويخاصموه ، فجاء إليهم عليه الصلاة و السلام فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بى ما تقولون ، ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى

إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابه وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم.

قالوا: يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا: فإذا لم تفعل ، فسل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً ، وكنوزاً من ذهب وفضة ، يعينك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم فى الأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك عند ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا

ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة.وإن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا:فأسقط علينا كسفاً من السماء كما زعمت أن ربك لو شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا يا محمد أفما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك منا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ؛ وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا ، حتى نهلكك ، أو تهلكنا .

هذا ما ذكره ابن هشام ، وقد رأينا فى القرآن الكريم ردًّا على كل ما قالوه ؛ وقد كان يتلوه بين ظهرانيهم صباح مساء . ويعلمهم أنه آية نبوته، ومعجزة رسالته ، وقد حكى الله تعالى مطالبهم والرد عليها فى سورة الإسراء إذ قال تعالت كلماته : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ، قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيرا » .

وقد بين سبحانه قبل ذلك الحجة القائمة عليهم ، والآية الواضحة ، وهى القرآن الكريم فقال تعالت كلماته : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ».ورد الله تبارك وتعالى عليهم إنكار كون البشر رسولا ، وزعمهم أنه لابد أن يكون ملكاً

بقوله تعالى فى سورة الأنعام : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا . وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

وترى من هذا أنهم ينساقون وراء مطالب لا يقصدون بها إلا تعجيز النبي ﷺ ، والنبى ﷺ يرد الحجج بالقرآن الكريم ، ويبين لهم أنه الحجة القائمة عليهم ، فإن أتوا بمثله بطل كل دعوى يدعيها ، وإذا لم يأتوا وعجزوا وجب أن يسلموا بكل ما يدعى .

كان النبي ﷺ يرد عليهم بالقرآن الكريم ، ويتلوه على مسامعهم ، فيرون فيه رداً قاطعاً ، ومعلماً قائماً ، يثبت عجزهم ، فقالوا كما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون » . ولكن القرآن الكريم كان يجذبهم إليه ، ويجدون فى أنفسهم شوقاً مُلِحّاً إلى سماعه .

ولما أمحلت بهم كل الحجج ، ذهبوا إلى اليهود يستشيرونهم فى شأن النبي ﷺ ، ويسألونهم علماً بالكتاب ، لكى يستطيعوا الرد على النبى عليه الصلاة والسلام ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرَوْا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : ماكان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فسأل المشركون النبي ﷺ عن هذه المسائل فانتظر عليه الصلاة والسلام حتى نزلت سورة الكهف مشتملة على الأجوبة فكان الثلاثة هم أصحاب الكهف ، والطواف هو ذو القرنين ، والروح كان الجواب عنها فى سورة الإسراء : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » :

من هذا كله ترى صورة لجدل المشركين مع النبي ﷺ ، هم معاندون

مكابرون ، ولذلك وقفوا موقف المعاند الذى يجادل ليعجز لا ليطلب الحق والصواب ، كان همهم فى جدلهم أن يقدموا مطالب، لا حدود لها وكل ما تجود به مخيلتهم يقدمونه مطلباً ، ويتخذون من عدم إجابته حجة يبرهنون بها ، ودليلا مموها يقدمونه ، والنبى ﷺ يرد عليهم ، ويتلو القرآن الكريم وفيه إبطال لتمويههم ، وهو الحجة القائمة عليهم التى لا يستطيعون لها رداً ، وكلما شعروا بقوتها ، وشدة وطأتها على باطلهم ، وغزوها لنفوسهم ، وهم المعاندون المكابرون اندفعوا فى أقوال واهية ، الغرض يدفع إليها ، والحقد يوسوس فى نفوسهم بها ، واستمع لما يقوله أبو جهل كبير سفهائهم ، وزعيم الشر فيهم : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرس رهان ، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذا ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

وقد اعتصم النبى ﷺ ، فى جدله معهم بصفات جعلته المثل الكامل للبشر .

فقد اعتصم بالحلم والصبر على الأذى ، وخفض الجناح والرفق وحسن المعاملة وكان إذا اشتد أذاهم ، وانغمروا فى الشر إلى حاهم ، قال مقالة الصابر المطمئن : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » وكان إخلاصه ﷺ ، لما يدعو إليه داعياً لأن يجعل الكثيرين من ذوى القلوب النيرة ينساقون لسماع قوله ، وإذا سمعوا القرآن خفقت قلوبهم بالإيمان ، فمن كتبه الله من السابقين سارع ، ومن لم يقدر له الله ذلك ، سلط عليه من شياطينهم من يوسوس إليه ، فيفسد عليه ما اطمأن به قلبه ، وعمرت به نفسه ؛ كما كان شأن عتبة بن ربيعة وغيرهم .

وقد كان ﷺ مع الصفات السابقة التى كانت تجعل كلامه ينساغ فى النفوس قوى الشخصية ، ذا مهابة روحية . جاء فى تاريخ الطبرى عن عمرو

ابن العاص : اجتمع أشرافهم يوماً فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم كذلك،إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها ، فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مضى ثم مر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها ، فوقف فقال : أتسمعونَ يا معشر قريش، أما والذى نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح.قال:فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، وحتى أن أشدهم فيه مقالة قبل ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى أنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فوالله ما كنت جهولا . فالنبى صلى الله عليه وسلم مع صبره على الأذى ، وحلمه وخفض جناحه ما كان فى نظرهم المهين ، الصغير الشأن ، الضئيل الأمر .

جدل النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود والنصارى :

لم يذكر كتّاب السير شيئاً من الاحتكاك الذى وقع بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين اليهود وهو بمكة المكرمة حتى هاجر إلى المدينة المنورة فالتقى بهم إذ كانوا مساكنين للمسلمين وجيرانا لهم وطبيعى أن يدعوهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى دينه ، لعموم رسالته ووجوب تبليغ دعوته ، وكان الظاهر أن يجيبوا دعوته عليه الصلاة والسلام لأنهم كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بنبى قد جاء زمانه.وقد حكى الله عنهم ذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾.

ولكنهم أعرضوا ولاحوا النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولأنهم رأوا فى أنصار النبي صلى الله عليه وسلم أقواما من خصومهم فى الجاهلية ، فأسروا العداوة ، ونابذوه الشر ، ولأن اليهود لا يعترفون بنبي من غير بنى إسرائيل ، بل كانوا يعدون ظهور رجل من غير بنى إسرائيل يدعو إلى توحيد الإله ؛ وتمجيد إبراهيم وموسى ، وسائر النبيين أمرا غريبا فى البشر ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم لأن يقولوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، وكان هو المحرك لغرورهم الذى دفعهم إلى الإنكار والمكابرة والمهاترة ، ولذلك اندفعوا لمجادلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسائر المسلمين وناقشوهم مناقشات دينية أخذت أولا دورا دينيا هادئا ، ثم أخذت من جانبهم سبّا واستهزاء وخيانة حتّى اضطر النبي صلى الله عليه وسلم إلى إجلاء بعضهم ، ومحاربة الآخرين ، وفى دور المجادلة كانت المجادلة واسعة والنطاق غير محدود ، لأن النبي ﷺ كان يخاطب أقواماً يقرون بكتاب ويؤمنون برسول ، فالنبي كان يلزمهم بما جاء فى كتبهم ، وينعى عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم ، وهم كانوا لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة فيها شيء من الدقة والمعرفة وإن كانوا ضالين . وقد أمر الله نبيه أن يجادلهم برفق وحسن موعظة ، فقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وقال تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وقد كان النبي ﷺ ينكر فى جدله معهم :

— تحريفهم التوراة واختلافهم فيها، ويكفى ذلك الاختلاف وطعن كل فريق فيما عند الآخرين، يكفى ذلك دليلا على الشك فى حقيقة ما بأيديهم . قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » .

ــ وأنكر منهم النبى ﷺ مخالفتهم للأحكام التى أتى بها الأنبياء ، وهجرهم لشرائعها ومحاولتهم الأخذ بغيرها إن وجدوا فيه ما يخالف مأربهم ، ورغباتهم الدنيوية ، ويتفق مع أكلهم الرشوة التى كانوا يقبلونها من الكبراء ليغيروا بها حكم الله . قال تعالى فى شأنهم عندما حكموه فى شأن الزانى رجاء أن يحكم عليه الصلاة والسلام بغير الرجم ليوافق هواهم : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء » .

ــ وأنكر منهم النبى ﷺ أنهم كانوا لا يتلقون تعاليم دينهم من كتبه ، بل من الأحبار . وأولئك يعبثون بأفكارهم ، ولا يعلمونهم حقيقة كتبهم ، وقد قال الله فيهم وفى النصارى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

ونعى عليه الصلاة و السلام ، أنهم متعصبون ، أشداء فى تعصبهم إلى درجة أنهم كانوا يتواصون بعدم الإيمان لأحد من غير جنسهم ولو دخل الإيمان قلوبهم ، وغزت الحقيقة نفوسهم ، وقد قال تعالى حاكياً قول بعضهم : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »

ــ ونعى عليهم النبى ﷺ أكلهم أموال الناس بالباطل وأكلهم الربا ، وقد نهوا عنه ، واستحلال بعضهم أموال العرب زاعمين أنهم أميون ، وليس لهم سبيل على أهل العلم والفكر والثقافة ، قال تعالى فى شأنهم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك

بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

— وأنكر منهم النبى ﷺ حرصهم الشديد على الدنيا وتمسكهم بملاذها وشهواتها ، وليس ذلك بشأن الأقوام المتدينين الذين يقدسون الدين ، ويعبدون الله راجين ما عنده .

وقد كانت المناقشة تدفعهم إلى كثير من المهاترات ، فكان النبى عليه الصلاة و السلام يأخذها عليهم ، من مثل ادعائهم أن جبريل عدوهم ، كما يأخذ غيرها من مثل ادعائهم أن الله فقير وهم أغنياء .

هذا بعض قليل مما كان ينكره منهم عليه الصلاة و السلام ، ويدلى به حجة عليهم ، ودليلا على بطلان ما هم عليه ، وما هم متمسكون به .

وقد كانوا هم فى مجادلاتهم يدعون أن إبراهيم عليه السلام كان على ديانتهم وقد رد الله عليهم تلك الدعوى فى قوله تعالت كلماته : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » .

وقد احتجوا على النبى ﷺ بوجود النسخ فى الشريعة الإسلامية ، وأنكروا نسخ المعجزات والآيات ، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى : « ما ننسخ من آية ، أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » .

وكانوا يطلبون آية أخرى تدل على رسالة النبى ﷺ ، غير القرآن ، ويدعون أن تلك الآية عهد من الله إليهم ألا يؤمنوا بغيرها ، وقد قال تعالى حاكيا عنهم : « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ، ألا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » . وطلبوا من النبى ﷺ أن ينزل

عليهم كتابا من السماء يقرءونه ، وقد قال تعالى حكاية عنهم : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

وترى من هذا أن جدلهم مع النبي ﷺ كان كجدل أسلافهم مع موسى عليه السلام ، جدل المتعنتين الذين لا يطلبون رشادا ، ولا يبغون سدادا ، ولا يريدون حقا ينصرونه ، بل باطلا يلوون ألسنتهم به ، والنبي يأخذهم برفق وعطف وأناة جينا ، وحزم حينا ، وقد أمره الله تعالى ، أن يطلب إليهم أن يتمنوا الموت إن كانوا حقا صادقين فى تكذيبهم فى دعواه ، فما تمنوا لأنهم يعرفون بينهم وبين أنفسهم صدق ما يدعى عليه الصلاة والسلام .

وكانوا يجادلون غير ذلك فى أمور كثيرة ، وقد آن لنا أن نحكى لك بعض مناظراتهم للنبي ﷺ ، لتعرف منها أن النبي ﷺ كان يعاملهم برفق فيستحلفهم بأنبيائهم ، ويلزمهم بهم ، جاء فى السيرة النبوية لابن هشام : أن نفراً من أحبار يهود ، جاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فإن فعلت ذلك اتبعناك ، وصدقناك ، وآمنا بك . فقال لهم رسول الله ﷺ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني . قالوا : نعم . قال : فاسألوا عما بدا لكم . قالوا : فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتها غلبت صاحبتها كان لها الشبه ، قالوا : اللهم نعم . قالوا فأخبرنا كيف نومك ؟ فقال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى لست به ، تنام عينه وقلبه يقظان ؟ فقالوا : اللهم نعم . قال : فكذلك نومى ؛ تنام عينى ، وقلبى يقظان . قالوا: فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : أنشدكم بالله ؛ وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون

أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ؛ وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكرا لله . قالوا : اللهم نعم . قالوا : فأخبرنا عن الروح . قال : أنشدكم بالله، وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمونه جبريل ، وهو الذى يأتينى . قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك إنما يأتى بالشدة ، ويسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك ، فأنزل الله عز وجل فيهم : « قل من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين » إلى قوله تعالى « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » .

وترى من هذه المناظرة كيف كان النبى ﷺ رفيقا بهم ، عطوفا عليهم يقسم عليهم بأحب أيامهم إليهم ، ليستدنيهم إليه ؛ وفى الوقت نفسه يلزمهم بما عندهم ، فيلزمهم بما يقرون ، وهكذا يكون المجادل الأريب ، فكيف إذا كان المجادل رسولا من رب العالمين ؟

هذا جدل النبى ﷺ مع اليهود ، وقد كان كثيرا ، لأن الاحتكاك كان كثيراً بسبب الجوار .

وأما جدله عليه الصلاة والسلام مع النصارى فقد كان قليلا ، لبعدهم عنه ﷺ ، وعدم اختلاطهم بالمسلمين إلا قليلا .

وكان النبى ﷺ فى جدله معهم يهاجمهم فى عقيدة التثليث ، ويبين كفرهم بها كما قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » . وينكر عليهم ادعاءهم أن عيسى وأمه إلهان من دون الله ، وينكر عليهم أن الله هو المسيح ؛ وينكر عليهم عبادة الصليب ، وأكلهم الخنزير ؛ وادعاءهم أن لله ولداً . ولم يكونوا يتقدمون باعتراضات كثيرة على المبادىء الاسلامية ، لشعورهم بأنها تثبت على المناقشة والاستدلال ، وممن جادلهم النبى ﷺ نصارى نجران بالمدينة المنورة .

وكتب السيرة تبين أنهم أوفدوا وفدا إلى النبي ﷺ ، وهو بمكة المكرمة ، إذ بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة ، فسارعوا بالقدوم عليه ، حتى يروا صفاته ، مع ما ذكر منها فى كتبهم ، فقرأ عليهم القرآن الكريم ، فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحمق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ، فصبأتم ، فقالوا:سلام عليكم ، لانجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترنا ، فأنزل فى ذلك قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم ؛ قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

وأوفدا له عليه الصلاة والسلام وهو بالمدينة المنورة وفداً ، يتألف من ستين رجلا ، وقد أهدوا إلى النبي ﷺ هدية ، بسطا ومسوحا ، فقبل المسوح ، ورد البسط ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم . فقال عليه الصلاة والسلام يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً . قالوا:فمن مثل عيسى خلق من غير أب ، فأنزل فى ذلك قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله ، كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون.الحق من ربك فلا تكن من الممترين » وليظهر الله أنهم فى شك من أمرهم أنزل قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . . . . إلخ . فدعاهم عليه الصلاة والسلام إلى المباهلة ، فرفضوا ، وقبلوا الجزية ، وقد جاء فى البخارى : عن زفر بن الحذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً ، فلاعننا ، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاأميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً ، فقال:لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين ، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة » .

تحدث الملوك فى شأن النبى ﷺ :

شغلت دعوة النبي ﷺ ، البلاد العربية كما بينا.بل إنها تجاوزت هذه البلاد ، وأخذ يتحدث بشأنها قيصر فى بلاده ، وكسرى مع طاغوته .

وإنا ذاكرون لك حديث قيصر الروم مع أبى سفيان ، فقد أخذ شكل محاورة ، ومناقشة ، وها هو ذا الحديث ، كما جاء فى البخارى فى كتاب بدء الوحى : عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب ، أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول ﷺ ، مادّ فيها أبا سفيان وقريشاً ، فأتوه ، وهو بأيلياء ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : قلت أنا أقربهم نسباً . قال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه ، قل لهم : إنى سائل هذا عن هـذا الرجل : فإن كذبنى فكذبوه . قال : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً ، لكذبت عليه ثم كان من أول ما سألنى عنه ، أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله . قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم يمكن كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال:فهل قاتلتموه قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول

آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل ، تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ؛ وسألتك أيزيدون أم ينقصون . فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ،وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ،وسألتك هل يغدر فذكرت أنه يأمركم بأن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف . فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ ؛ الذى بعث إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل ، فقرأه ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ؛ أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم البريسين . ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة إنه يخافه ملك بنى الأصفر. فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام .

وكان ابن الناطور صاحب إيلياء يحدث أن هرقل حين قدم أيلياء ، أصبح خبيث النفس . فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك ، قال ابن الناطور ، وكان هرقل حزاء ، ينظر فى النجوم . فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ، قالوا:ليس يختتن إلا اليهود ؛ فلا يهمك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك ؛ فيقتلوا من فيها من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل رجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ، فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب . فقال يختتنون ، فقال هرقل هذا ملك الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيرة فى العلم ، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ وأنه نبى ، فأذن هرقل لعظماء الروم ؛ فى دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ؛ وأن يثبت ملككم ؛ فتبايعوا لهذا النبى ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فرأوها غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم على ، وقال إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ، ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل . رواه صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهرى .

فى هذين الحديثين ترى صورة واضحة لاشتغال هرقل وأهل مملكته بأمر النبى ﷺ ودينه . وترى صورة للجدل الذى كان يجرى بينه وبين كل من له اتصال ومعرفة بالنبى ﷺ ، وفوق كل هذا ترى نور الإيمان ، وقد أفسدته المطامع والرغبات والشهوات ، فهذا هرقل شام نور الإيمان فلاحت بارقته ، وطلب الهدى ، فانبثق له فجره ، وملك عليه نفسه وحسه

ولكنه السلطان ، والرغبة فى بقائه ، والخوف من ذهابه ، إن خالف أهل مملكته ، كل هذا أفسد عليه قلبه . وطمس نور الإيمان فى نفسه ، فآثر الفانية على الباقية ، والعاجلة على الآجلة ، فكان ذلك خسراناً مبيناً . وكذلك تعبث شهوة السلطان بثورة الإيمان ، وتغلب الشهوة الدليل ، وتستولى سورة الملك على قوة الحق فى النفس ، فيكون الضلال مع العلم ، والكفر مع المعرفة ، والبهتان مع العرفان ، والله الهادى .

ومن الملوك الذين تحدثوا فى شأنه ﷺ النجاشى ملك الحبشة ، واسمه أصحمة، فقد بعث النبى ﷺ إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام وكان الرسول له عليه الصلاة و السلام عمرو بن أمية الضمرى ، فجادل النجاشى فى العقيدة الإسلامية ، وقال له : يا أصحمة إن علىّ القول ، وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا ، وكأنا فى الثقة بك — منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شىء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحز ، وإصابة المفصل ، وإلا فأنت فى النبى الأمى ، كاليهود فى عيسى ابن مريم ، وقد فرق النبى ﷺ رسله إلى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر . فقال النجاشى : أشهد بالله أنه النبى الأمى ، الذى ينتظره أهل الكتاب وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر .

ثم كتب النجاشى إلى النبى ﷺ بإسلامه .

* * *

جدل القرآن

علمت أن النبي ﷺ كان عماده فى مجادلة المشركين واليهود والنصارى وغيرهم ، القرآن الكريم ، يحتج به عليهم لإثبات دعواه ، وكلما أوردوا اعتراضاً نزل فى الرد عليهم قرآن كريم ؛ فيتلوه عليهم النبي ﷺ . ويعلن لهم به وضح الحق إن كانوا له طالبين ، ويرد كيدهم فى نحورهم إن كانوا معاندين مستكبرين . .

وفى الحق أن كتاب الله فوق أنه معجزة النبي ﷺ الكبرى ، وفوق أنه مشتمل على أكثر الأجوبة عن الأسئلة التى اعترض بها المشركون وغيرهم على الإسلام هو فوق هذا وذاك المثل الكامل الذى لا يتسامى إلى بيانه متكلم أو محتج،ولا يناصى أساليب احتجاجه واستدلاله مستدل أو مجادل ، لذلك وجب علينا أن نعرف شيئاً من طرائق جدله واستدلاله لا طمعاً فى محاكاته ، ولا طلباً لمساماته ، ولكن للاقتباس من نوره ، والاستضاءة بضوئه ، والاهتداء بهديه ، ولنجيب أمره ، قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وأى مسلك سلك القرآن الكريم للاستدلال على ما جاء به من بينات ، ولإثبات ما جاء به من حق ؟ أسلك مسلك المنطق والبرهان ؟ أم مسلك الخطابة والتأثير بالبيان ؟ أم مسلك الجدل والإلزام ؟

من أجل أن نعرف ذلك على التحقيق ، وكيف كان أثر القرآن الكريم فى النفوس ومكانته من الحق ، وجب أن نتكلم كلمة فى أصناف الناس وما يناسب كل صنف من خطاب ، وما يليق بهم من دليل ، فنقول :

إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم متباينة ، وأهواؤهم متضاربة ومسالكهم فى طلب الحق مختلفة .

فنهم من يصـــدق بالبرهان ، ولا يرضيه إلا قياس تام أو ما يجرى مجراه ، ويسير فى طريقه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية ، وكان لهم من أوقاتهم ما أزجوه فى دراسات واســعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم ، فسادهم التأمل الفلسفى والمنزع العلمى .

والمستقرئ لأحوال الأمم ، المتتبع لشئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف من الناس قلة فى الكون الإنسانى وعدد محدود بالنسبة لغيرهم من بنى الإنسان إذ أن أكثر من فى الأرض قد انصرف إلى المهن المادية ، فما كان له وقت يزجيه فى تلك التأملات ، ولعل هذا هو الصنف الذى أمر الله نبيه أن يدعوه بالحكمة فى قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » الآية .

ومنهم من غلب عليه مذهب دينى أو غير دينى قد استأثر بلبه ، وسيطر على هواه ، وسد مسامع الإدراك فى قلبه ، إذ استولت عليه نحلة مذهبية ، فتعصب لها ، والتعصب يعمى ويصم ، ويجعل النفس لا تكاد تسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة إذ أن ذلك لا يكون إلا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجاً وأعز دواء من علاج الأجسام ، وهؤلاء لا بد لهم من طرق جدلية تزيل ما لبس الحق عليهم ، ويتخذ الحق بها قوة مما يعتقدون ، إذ يلزمهم بما عندهم ، ويفحمهم بما بين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لقبول ما يرفضون ، وهذا الصنف من الناس وإن كان أكثر عدداً من الأول إلا أنه ليس الجمهور الأعظم ، ولا الكثرة الغالبة بين الناس ، ولعله الصنف الذى أمرنا الله سبحانه وتعالى بمجادلته بالتى هى أحسن فى الآية الكريمة الآنفة الذكر .

أما الجمهور الأعظم من الناس فليس هؤلاء ولا أولئك ، بل هو فى تفكيره أقرب إلى الفطرة ، فيه سلامتها وفيه سذاجتها ، فيه حسنها وجمالها ،

وفيه إخلاصها وبراءتها ، وهو لا يخاطب بتعقيد المنطق ، ولا بتفكير الفلاسفة ، ولا بما يرضى المتفكرين تفكراً علمياً . بل يليق به ما التقى فيه الحق بالتأثير الوجدانى ، وما اختلطت فيه الحقائق بطرق إثارة لأهواء وميول، وما التقت فيه سياسة الحق بسياسة البيان ، وليس ذلك إلا بالأسلوب الخطابى ، أو ما يقرب منه .

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التى جاءت للكافة ، وبعث بها النبى ﷺ للناس جميعاً بشيراً ونذيراً من غير أن تقصر دعوته على قبيل ، ولا أن تخص شريعته بجيل ، بل بعث للأحمر والأسود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لذلك وجب أن يكون القرآن الكريم وهو حجته الكبرى كما علمت ، فيه من الأدلة والمناهج العقلية ما يقنع الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم ، وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى بحيث لا يعلو على مدارك طائفة ، ولا ينزل عن مدارك أخرى ، ولا يرضى طائفة دون أخرى ، بل يصل إلى مدارك الجميع يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طلبته ، والعامة من سواد الشعب غايتهم .

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته والمتفكر فى مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضى نهمة العالم . اقرأ قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يبصرون » . اقرأ هذه الآية وارجع البصر فيها كرتين ، ألا تراه فيها قد وجه الأذهان إلى عظيم قدرته وقوة سلطانه على الوجود ، وبين كيف اخترع وأبدع ، وبرأ على غير مثال سبق ليثبت أنه وحده الأحق بالعبادة من غير أن يشاركه وثن أو صنم . وألا ترى أن الشخص من الدهماء يقرؤها ، فيرى فيها علماً بما لم يكن يعلم . وقد أدركه فى أيسر كلفة وأقرب طريق ، وأبلغ بيان . ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الأكوان دقة العلم وإحكامه وموافقته لأصدق ما وصل إليه العقل البشرى مع سمو البيان وعلو البرهان . فتبارك الذى أنزل الفرقان .

واقرأ قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه من نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » إلخ الآيات الكريمات . ثم تدبر فى آيات الله البينات ، تجد أن العامى يستفيد منها علماً غزيراً ، فوق أنه يستدل منها على قدرته جل وعلا على الإعادة ، كما قدر على الإبداع والإنشاء ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان ، والدارس لحياة الحيوان جرثومة ، فجنينا ، فوجوداً على ظهر الوجود حياً ، فيرى دقة العلم ، وصدق الحكاية عن أدق مسائله ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء فى أوربا ، فاعتقد أن محمداً ﷺ أمهر طبيب رأته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من عند الله بارىء النسم ، جلت قدرته .

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله سبحانه ، وما فيه من أدلة أنه واضح للعامى يدرك منه ما يناسب خياله ، ويسمو إليه إدراكه ، وما يدركه منه صدق لا شبهة فيه ، ويرى فيه العالم الباحث المحقق حقائق صادقة ، ما وصل إليها البحث الحديث ، إلا بعد تجارب ؛ ومجهودات عقلية عنيفة ؛ وكلما ازداد المتبصر فى الآيات التى تتعلق بالكون فى القرآن الكريم تأملا ، ازداد استبصاراً ، ورأى علماً أسمى مما يدركه الإنسان بتجاربه ، وأعلى مما يهتدى إليه بعقله المجرد (١) .

---

(١) تصدى ابن رشد لإثبات أن الحكيم الفيلسوف يستفيد من أدلة القرآن الكريم كما يستفيد العامى الجاهل ، ويرى فيه ما يرضى شهوته العقلية ، وبين ذلك فى كتاب فصل المقال قال :

لما كانت طرق التصديق منها ما هى عامة لأكثر الناس ، أعنى وقوع التصديق من قبلها ، وهى الخطابية والجدلية ، والخطابية أعم من الجدلية ، ومنها ما هى خاصة بأقل الناس ، وهى البرهانية ، وكان الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخواص ، كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الإسلامية على أربعة أصناف : =

بهذا الهدى الكريم ، وبذلك الحق المبين ، وبتلك الدلائل البينات وعظ القرآن الكريم وجادل ، فمن أى الأنواع دلائله ، ومن أى الأصناف حججه أهى من قبيل الأدلة البرهانية أم من قبيل الأدلة الجدلية ؟ أم من قبيل الأدلة الخطابية ؟ .

وقد آن لنا أن نجيب عن ذلك السؤال ، فنقول : قال ابن رشد إن أدلة القرآن من قبيل الأدلة الجدلية ، والخطابية ، وقال إن أكثرها خطابى وبعضها جدلى قصد فيه الإلزام والإفحام .

وفى الحق أنّ أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ؛ وأسمى من المنطق ، فبينما تراه قد اعتمد فى مسالكه على الأمر المحسوس ، أو الأمور البدهية التى لا يمارى فيها عاقل ، ولا يشك فيها إنسان ، تراه قد تحلل من بعض قيود المنطق التى تتعلق بالأقيسة وأنماطها ، والقضايا وأشكالها ، من غير أن يخل

= أحدها : أن تكون مع أنها مشتركة خاصة بالأمرين جميعا ، أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة أو مظنونة أن تكون يقينية ، وعرض لنتائجها أن أخذت نفسها دون مثالاتها ، وهذا الصنف من الأقاويل الشرعية ليس له تأويل ، والجاحد له أو المتأول كافر .

والصنف الثانى : أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية ، وتكون النتائج مثالات للأمور التى قصد إنتاجها ، وهذا يتطرق إليه التأويل ، أعنى لنتائجه .

والثالث : عكس هذا ، وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد لنتائجها نفسها ، وتكون المقدمات مشهورة ، أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية . وهذا أيضاً لا يتطرق إليه تأويل ، أعنى لنتائجه ، وقد يتطرق لمقدماته .

والرابع : أن تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية وتكون نتائجه مثالات لما قصد إنتاجه ، وهذه فرض الخواص فيها التأويل ، وفرض الجمهور إمرارها على ظاهرها ، وبالجملة ، فكل ما يتطرق إليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ، ففرض الخواص فيه هو ذلك التأويل ، وفرض الجمهور هو حملها على ظاهرها فى الوجهين جميعا ، أعنى فى التصور والتصديق إذ كان ليس فى طباعهم أكثر من ذلك وقد يعرض نظار فى الشريعة تأويلات من قبل تفاضل الطرق المشتركة بعضها على بعض فى التصديق .

ذلك بدقة التصوير وإحكام التحقيق ، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج فى أحكام العقل ، وثمرات المنطق . ولهذا نحن لا نعد أسلوب القرآن الكريم منطقاً ، وإن كان فيه صدقه وتحقيقه ، وهو إلى الأسلوب الخطابى أقرب ، وإن كان كله حقاً ، لا ريب فيه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، وإنك لترى كثيراً من أوصاف الأسلوب الخطابى قد أتى القرآن الكريم فيها بالمثل الكامل ، فتصريف فنون القول من استفهام إلى تقرير إلى إخبار قد نحا فيه القرآن الكريم مناحى تعلو على قدر البشر ، وكثير من أشكال الأقيسة الخطابية تراه قد استعمل فى القرآن الكريم على مثال أكمل من استعمل فى الخطابة .

ونستطيع أن نذكر بعض مناحى القرآن الكريم فى الاستدلال ولا نستطيع لها إحصاء ، ومن مناحيه فى الاستدلال :

الأقيسة الاضمارية :

وهى الأقيسة التى تحذف فيها إحدى المقدمات وهى شائعة الاستعمال فى الاستدلال الخطابى ، قال ابن سينا فى الشفاء : الخطابة معولة على الضمير[1] والتمثيل . وإن الناظر فى أدلة القرآن الكريم المستقرئ لها ، يرى أكثرها قد حذفت فيه إحدى المقدمات ، ولقد قال الغزالى بحق : إن القرآن مبناه الحذف والإيجاز[2] . واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون « الحق من ربك فلا تكن من الممترين » ألا ترى فى هذا دليلا قوياً مبطلا لما يدعون ، وفى الوقت نفسه لم تذكر فيه سوى مقدمة واحدة ، وهى إثبات مماثلة آدم

(١) الضمير هو القياس الاضمارى والتمثيل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما ويسمى هذا فى عرف الفقهاء قياسا ، بينما يسمى فى عرف المناطقة تمثيلا .

(٢) يقصد الحذف والايجاز فى شكل الأقيسة .

لعيسى ، وطوى ما غداها ، وكأن سياق الدليل هكذا إن آدم خلق من غير أب كعيسى ، فلو كان عيسى ابنًا بسبب ذلك لكان آدم أولى ؛ لكن آدم ليس ابناً باعترافكم ، فعيسى ليس ابناً أيضاً . وأنت ترى أن حذف هذه المقدمات قد أعطى الكلام طلاوة ، وأكسبه رونقاً ، وجعل الجملة مثلا مأثوراً يفيد فى الرد على النصارى وفى الوعظ العام ، إذ هو يذكر الجميع بأن آدم (والناس جميعاً ينتهون إليه) من تراب ، وهكذا يرى المتتبع لكثير مما فى القرآن الكريم من استدلال ، وما يشمل عليه من احتجاج .

القصص :

ومن الأساليب التى اتخذها القرآن الكريم طريقاً للإقناع والتأثير القصص ، وتضمين القصة الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم ، وقد يكون موضوع القصص رجلا محترماً ممن يجادلهم القرآن الكريم إذ يدعون محاكاته فى دينه ، واتباعه فى ملته ، فيجيء برهان الله على لسانه . فيكون ذلك أكثر اجتذاباً لأفهامهم ، وأقوى تأثيراً فى قلوبهم . انظر إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وقصته مع قومه ترى فى القصتين أدلة واضحة قوية ، تثبت بطلان عبادة الأوثان . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام كان شرف العرب ، ومحتدهم الذى إليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته ، فإذا جاءهم الخبر عنه بأنه كان موحداً ؛ وسيق لهم ما كان يحتج به على قومه وأبيه كان ذلك مؤثراً أى تأثير فى قلوبهم ! ومن ذلك قوله تعالى حاكياً قول إبراهيم لأبيه ليبين له بطلان عبادة الأوثان : « واذكر فى الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً » ألا ترى أن الكلام متضمن إبطال عبادة الأوثان على أبلغ وجه ، إذ بين أنها لا تسمع ولا تبصر فهى دون الإنسان ، وكيف يعبد الإنسان ما دونه ؟ وفوق ذلك فالعبادة دعاء ، وكيف يدعو الإنسان ما لا يسمع ولا يبصر .

وإن مجيء الدليل فى ضمن خبر لرجل يعترف بفضله المجادلون ، يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين ، من جهة الدليل فى ذاته ، ومن جهة أن الذى قاله رجل محترم فى نظرهم ، يدعون هم أنهم أتباعه ، فهم ملزمون بقوله ، مأخوذون برأيه .

وقد يجيء الدليل أحيانا على لسان حيوان فى قصة فيكون فى ذلك غرابة تسترعى الذهن ، وتثير الانتباه ؛ وتملأ النفس بالحقيقة إيمانا ؛ كما جاء دليل التوحيد على لسان الهدهد فى سورة النمل ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكيا عن سيدنا سليمان عليه السلام : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين * فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » .

قياس الخلف :

وهو الذى يتجه فيه إلى إثبات المطلوب بإبطال نقيضه وقد يتجه إليه القرآن الكريم فى استدلاله كإثباته سبحانه وتعالى الوحدانية بقوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون» وقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » . وقوله تعالى : « لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » . وكإثبات الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم من عند الله بقوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » . ففى كل هذه الآيات الكريمة قد أثبت المطلوب بإبطال نقيضه ، وأنت ترى أن حذف بعض المقدمات فى كلها ، يدل على كثرة الإضمار فى دلائل القرآن الكريم .

السبر والتقسيم :

وهو باب من أبواب الجدل ، يتخذه المجادل حجة لإبطال كلام خصمه بأن يذكر أقسام الموضوع المجادل فيه ، ويبين أنه ليس من خواص واحد منها ما يوجب الدعوى التي يدعيها الخصم ، وقد ذكر السيوطي أن من أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل آ لذكرين حرم أم الأنثيين ، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، قل آ لذكرين حرم أم الأنثيين ، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وبين السيوطي وجه الاستدلال فقال : إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد الله تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم ، فقال : إن الخلق لله تعالى ، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى ، فم جاء به تحريم ما ذكرتم ، أي ما علته لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة ، أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ؛ أو لا يدرى له علة ، وهو التعبدي بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى ، إما بوحي وإرسال رسول ، أو سماع كلامه ، ومشاهدة تلقي ذلك عنه ؛ وهو معنى قوله « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » ، فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحد منها ، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً ، والثاني يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة ، وبعض في حالة ، لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ ، وإذا بطل جميع ذلك ، ثبت المدعى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال (١) .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن .

التمثيل :

وهو أن يقيس المستدل الأمر الذى يدعيه على امر معروف ويبين الجهة الجامعة بينهما ، والآيات الكريمة التى تنهج ذلك المنهج كثيرة ؛ انظر إلى قوله تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

ألا تراه سبحانه وتعالى قاس أمر الإعادة للإنسان خلقاً سوياً فى الحياة الآخرة الذى كان يثير استغراب العرب على الأمر الذى ليس موضع ريب ، ولا مجال للشك فيه ، وهو الإنشاء الأول ، وكان القياس على أبلغ وجه وأجمل أسلوب ، قد التقى فيه الجلال والكمال والجمال ؛ ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة يس حاكياً اعتراض المشركين والرد عليهم : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ؛ وهو الخلاق العليم » .

وهكذا فى القرآن الكريم شيء كثير فى هذا الباب بلغ من سمو البيان أقصاه ، وبلغ من قمته أعلاها ، وأخص ما يتجه إليه سنة التدرج من المحسوس إلى المعقول ، ومن المشاهد إلى الغائب فى بيان يأخذ بالألباب ، ويقطع كل مجادل مرتاب .

هذا ويلاحظ القارىء للقرآن الكريم ، المتتبع لأحكامه ، المتبصر فى أدلته ، أن جدل القرآن الكريم يتجه أحياناً كثيرة إلى إرشاد المجادل ، والأخذ بيده إلى الحق ، وتوجيه نظره إلى حقائق الأشياء ، وما فى الكون من عبر ، كما ترى فى قوله تعالت كلماته : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، ومالها من فروج . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » . وكما ترى فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : « الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأى آلاء ربكما تكذبان » إلخ . . . . . وفى هذا ترى الجدل متجهاً كل الاتجاه إلى الإرشاد والأخذ بيد السامعين إلى الحقيقة السامية ، وهى توحيد الله جل وعلا .

وأحياناً يبتدىء بإلزام المجادل وإفحامه . ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة إذ يبينها له واضحة كاملة ، كما ترى فى قوله تعالى رداً على ما زعمه المشركون من أن الرسول يجب أن يكون ملكاً : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

وكما ترى فى رده سبحانه وتعالى على اليهود عندما ادعوا أنه قد عهد إليهم ألا يؤمنوا برسول ، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار ، فقد قال سبحانه وتعالى حاكياً وراداً : « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول

حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » ، وكما يرى فى قوله تعالى يرد على من أنكر أن ينزل الله على بشر شيئاً فقد قال جلت قدرته : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » .

وفى هذه الآيات كلها ترى الإلزام المفحم والحجة القاطعة ، والفيصل الفارق ، قد ألزم به الخصم ، وأدحضت حجته ، وأرشد إلى المحجة ، ووضعت له الصور والأعلام ، ليسير على الجادة ، بعد أن بددت وأذهب ضوء الحق ظلام فكره ، فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الأخسرين أعمالا . .

وعند توجيه الله سبحانه وتعالى نظر المجادل أو القارىء إلى الحقائق من غير اتجاه إلى إلزام من أول الأمر أو بعد إلزامه وإفحامه ، يكون تصاريف البيان ومناحى التأثير ، والعبارات التى تخاطب الوجدان ، وتمس مواطن الإحساس ، تتنوع المناهج ، وتتكرر المعانى بدون أن تفقد جدتها وطلاوتها ، بل مع التكرار تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات ،وتنوع الأساليب من استفهام إلى تعجب إلى تهديد إلى إخبار ، ويختلف الاتجاه إلى مواضع الاستدلال ومصادره .

فمرة يكون الاستدلال برد المسائل إلى أمور بدهية معروفة ، أو حقائق مشهورة مألوفة يخر بين يديها المجادل صاغراً ، كما ترى فى رد الله سبحانه وتعالى على من زعم أن لله ولداً إذ يقول : « بديع السموات والأرض ، أنىّ يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

ألا تراه سبحانه قد استدل على بطلان أن يكون له ولد سبحانه بأمر معروف مألوف ، لا يمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ، ولم يدّع أحد أن له سبحانه صاحبة فيجب ألا يكون له ولد .

وأحياناً يضرب سبحانه وتعالى الأمثال ، ليقرب الحقائق للأفهام ويدنيها من الأنام ، ومن ذلك قوله تعالى فى الرد على من يعبدون الأصنام : « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، ولا يستطيعون * فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم ، وأنتم لا تعلمون * ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ؛ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون * الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم . لا يقدر على شىء ، وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » ففى هذه الآيات الكريمة قد بين سبحانه وتعالى بطلان عبادة الأوثان ، لأنها لا تملك رزقاً ، ولا تنفع ولا تضر ، وضرب مثلين يبينان أنه لا يستوى فى عرف الناس ومألوفهم غير القادر مع القادر فكيف يسوى الوثنى بين القادر سبحانه وبين أحجار لا تنفع ولا تضر .

وأحياناً يوجه نظر الناس إلى المخلوقات ، وإلى ما فى الكون مما يدل على قدرة الصانع ، وعلم المبدع ، وإرادة الجبار . انظر إلى قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

وأحياناً يقص سبحانه وتعالى على الناس خبر قوم كانت حالهم كحال من يثبت بطلان اعتقادهم ، مضمنا القصص الأدلة على بطلان ما يعتقدون ، وصحة ما يدعو إليه النبى ﷺ ، وقد بينا ذلك فيما مضى ،

ولنكتف هنا بالتيمن بقراءة هذه الآيات الكريمة المشتملة على أروع القصص وأبلغ الاستدلال وهى قول الله تعالى فى سورة الشعراء : « واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ * قالوا نعبد أصناما ، فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم ، أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم » .

ويلاحظ أن القرآن الكريم فى الجدل الذى يلزم الخصم ويفحمه يجيئه فى الإفحام من أقرب الطرق ، وأشدها إلزاما . ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه وتعالى فى مجادلة إبراهيم لمدعى الألوهية . فقد قال تعالى : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » ، وقد مرت بك آيات أخرى ، منها يتبين كيف كان الإلزام من أقرب طريق .

وطرق القرآن الكريم فى هذا كثيرة :

١ — منها التحدى كما تحدى الله سبحانه وتعالى بالقرآن ، وكما تحدى إبراهيم مدعى الألوهية بأن يأتى بالشمس من المغرب .

٢ — والأخذ بموجب كلام الخصم واستنباط ما يريده من ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين والرد عليهم : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

٣ — ومنها مجاراة الخصم فيما يقول ثم التعقيب عليه بما يبطل مدعاه ومن ذلك قوله تعالى حاكياً عن الرسل مع أقوامهم « قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين* قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

فترى من ذلك أن الرسل سلموا بالمقدمة التي بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمن على من يشاء » فكأنهم قالوا ماقلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن تبنوه عليه من إثبات أننا لسنا برسل باطل ، لأن الله يمن على من يشاء من عباده ؛ فلا مانع من أن يمن علينا بالرسالة .

هذه قبسة من ذلك النور العظيم الذى أضاء الله به الخليقة ؛ لتهتدى الأجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشو إليه إذا أظلمت عليها الجهالات وتاهت فى مسالك الباطل ، ومثارات الشيطان ، وما أردنا بذلك البيان إحصاء لطرق القرآن الكريم فى استدلاله ، ولا استقراء لمسالكه فى جدله ؛ فدون ذلك تنفق القوى ، وينبت الظهر ، ويقصر الشأو ، ولكن أردنا أن يرى القارىء الكريم مثلا من طرق جدل القرآن الكريم ، وكيف كانت أعلى من المنطق تدقيقاً ، وإن لم تتقيد بأساليب المناطقة ، ولا بأشكال الأقيسة ، ففيها التقديم والتأخير والحذف والإطناب تبعاً لحسن البيان لا تبعاً لأشكال البرهان . وكانت مع ذلك أعلى من الخطابة ، وإن كان بيانه المثل الأعلى للخطباء .

ولو أن المتكلمين الذين عنوا بإثبات العقائد ، والجدل فيها ، سلكوا مسلك القرآن الكريم ، وساروا فى سمته ، لكان علمهم أكثر فائدة ، وأدنى جنى وأينع ثماراً ، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده ، والبرهان وأشكاله ، فكان علمهم للخاصة ، من غير أن يفيد العامة ، وقد وازن الغزالى بين طريق

القرآن الكريم وطريق المتكلمين فى رسالة (إلجام العوام عن علم الكلام) وقال فى ذلك : أدلة القرآن الكريم مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون . بل إن أدلة القرآن الكريم كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا .

وفى الحق أن الناس لو شغلوا بدراسة القرآن الكريم وما فيه من استدلال لينهجوا على نهجه[1] . ويسيروا فى طريقه لكان لهم من ذلك علم كثير ، فإن

---

(١) قد استنبط الغزالى من القرآن الكريم خمسة من أشكال الاستدلال سماها ميزان التعادل الأكبر ، وميزان التعادل الأوسط ، وميزان التعادل الأصغر ، وميزان التلازم ، وميزان التعاند .

ومثل للأول بما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام فى مجادلته مدعى الألوهية إذ قال : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » . وقال أبو حامد فى ذلك : رأيت فى هذه الحجة أصلين قد ازدوجا ، فتولد منهما نتيجة هى المعرفة ، إذ القرآن الكريم مبناه على الحذف والإيجاز ، وكمال صورة هذا الميزان : كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله فهذا أصل ، وإلهى هو القادر على الإطلاع وهذا أصل آخر ، فلزم من مجموعهما أن إلهى هو الإله دونك يا نمروذ .

ومثل للثانى بقوله تعالى حاكيا عن إبراهيم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين » ويقول فى بيانه: وكمال صورة هذا الميزان أن النجم آفل ، والإله ليس بآفل ، فالقمر ليس بإله ، ويفرق بينه وبين الأول ، أما هذا فإحداهما موجبة والأخرى سالبة .

ومثل للثالث بقوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس » ويفرق بينه وبين السابقين بأن نتيجته جزئية ، وهى إثبات إنزال الله سبحانه وتعالى الكتب على بعض البشر .

ومثل للرابع بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

ومثل للخامس بقوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله ، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . ويقول رحمه الله بعد بيان هذه الأقسام : سميت =

القرآن الكريم قد اشتمل على مناهج فى الاستدلال ، والجدل ، والتأثير ، تكشف عن أدق نواميس النفس الإنسانية ، وتبين شيئاً كثيراً من أحوال الجماعات النفسية والفكرية ، وفيه الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها ، وفى مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام المؤثر والحجج الدامغة ، واعتبر ذلك بأثره فى مخالفيه من المشركين ، وأثره فى المسلمين الأولين .

ولقد بلغ من أثره فى المشركين أن كل من كان يسمعه يناله من نوره قبس . سمع الوليد بن المغيرة النبى ﷺ يقرأ القرآن الكريم ، فقال مخاطباً قريشاً :

فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده منى ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

وكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال وجدانه أثره ؛ حتى لقد تناهى زعماؤهم عن سماعه ، وتعاهدوا على ذلك ؛ لما رأوه من ميل كل من سمعه للإيمان .

وقد كان من أثر القرآن الكريم فى المؤمنين الأولين أن عكفوا عليه يرتلونه ويتفهمونه ، ويتعرفون أحكامه ومراميه ، وجعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم إذا اختلفوا ، ومنهل العقائد ينهلون منه ما يقوى إيمانهم ، ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة سواه ، ولا محجة غير طريقه وهديه ، به يجادلون وعن هديه يصدرون .

= الأول ميزان التعادل (الأكبر والأوسط والأصغر) لأن فيه أصلين متعادلين كأنهما كفتان متحاذيتان ، وسميت الثانى ميزان التلازم لأن أحد الأصلين يشتمل على جزأين أحدهما لازم والآخر ملزوم كقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فإن قوله تعالى لفسدتا لازم ، والملزوم قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة » ، ولزمت النتيجة من نفى اللازم ، وسميت الثالث ميزان التعاند ، لأنه رجع إلى حصر قسمين بين النفى والإثبات ، يلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ، ومن نفى أحدهما ثبوت الآخر ، فبين القسمين تعاند وتضاد .

الجدل بعد النبي صلى الله عليه وسلم

تمهيد فى افتراق الأمة وسببه :

جاء فى البخارى : عن زينب بنت جحش أنها قالت : استيقظ النبى ﷺ من النوم محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب » . ويروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » . وفى بعض الروايات إسقاط النصارى ، وفى بعضها زيادة كلها فى النار إلا واحدة . وقال المقبلى فى كتاب (العلم الشامخ) حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة ، يشد بعضها بعضاً ، حيث لا تبقى ريبة فى حاصل معناه .

ونرى من هذه الآثار أن النبى ﷺ تنبأ بهذا الافتراق قبل وقوعه ، وأخبر عن حدوث الفتن قبل أن تنبت فى الرؤوس ، وتلك خصائص النبوة ومزايا الرسالة ، وقد أخبر لتتنبه الأذهان ؛ وتعتصم بالحق ، وتتجنب الشطط والفتن فى كل حال أمر واقع ، ليس له من دافع ، ولماذا اختلف المسلمون ، وبين أيديهم كتاب الله لا يضلون ما إن تمسكوا به ، وأمامهم سنة رسول الله ﷺ ، من أخذ بها اعتصم من الشر بسور شديد ، لا يأتيه الباطل ولا يصل إليه زيغ الشيطان ؟

إن أسباب اختلاف المسلمين كثيرة لا يمكن تقصيها ؛ ولا يستطيع الباحث استقراءها ، إذ أن كل فكرة نبتت وكل فرقة نشأت ، أحيطت نشأتها بأسباب تضافرت على تكوينها ، وتآزرت فى إحداثها ، فلنكتف ببيان الأسباب إجمالا ، وقد يغنى الإجمال عن التفصيل ، والتعميم عن التخصيص وها هى ذى .

العصبية العربية :

كان العرب ، منقسمين إلى شعبين عظيمين ، قحطانيين وعدنانيين ، وبين الفريقين التنافس الشـــديد ، والعداوة المستحكمة ، والنفار الذى لا يكون معه اتفاق ، وكان العدنانيون أنفسهم على قسمين . ربعيين ومضريين وكلٌّ حرب على الآخر لا يسالمه ، ولا يهادنه ، ولا يساكنه . والقبائل العربية فيما بينها فى تناحر شديد ، وتقاتل ، وتنازع مستمر .

فلما جاء الإسلام حرم النداء بالعصبية فيما حرم ، فقد قال تعـالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شـــعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وقد قال ﷺ ، « كلكم لآدم ؛ وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » . وقال ﷺ « ليس منا من دعا إلى عصبية ، ليس منا من قاتل على عصبية ، ليس منا من مات على العصبية » .

فسترت العصبية حيناً من الزمان أخذاً بتلك التعاليم العالية ، وهـذه الآداب السامية ، ولكن سرعان ما استيقظت ناراً مشبوبة على الوحدة الإسلامية ، والجامعة الدينية ، فظهرت العصبيات فى الإسلام ، ظهرت أولا فى الردة .

يروى أن مسيلمة الكذاب حينما تنبأ فى بنى حنيفة ، اتبعه الناس على العصبية ، وكان منهم من يقول : إنا لنعلم أن محمداً صادق ، ومسيلمة كاذب ، ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . ولما انتهت الردة خمدت العصبية ، حتى استيقظت فى الفتن الإسلامية بعد ذلك . وكان بعض الخلفاء والأمراء من الأمويين يذكى نيرانها ويؤجج لهيبها ، حتى عادت جاهلية ، ونور الإسلام فى الآفاق ، وقد كانت تلك العصبية سبباً فى نشوء فرق إسلامية واختلافها ، حتى إنك لترى أكثر الخوارج ربعيين .

التنازع على الخلافة وطلب الملك :

لعن الله طلب الملك ، فقد كان شراً مستطيراً على الوحدات والجامعات فى الأمم ، وقد ابتلى الله الأمة الإسلامية بذلك النوع من الابتلاء ، وأحياناً كانت تتغلب قوة الإيمان على رغبات النفوس ، كما حدث فى الاختلاف بين المهاجرين والأنصار ، فقد تغلب الإيمان القوى ، ودوى صوت الحق فى وسط تلك الزوبعة ، نفرت الأمور ، وأقروا على الخلافة أمثلهم ، وأقواهم إيماناً . وأحياناً كانت تنتصر الرغبة كما حدث فى منازعة معاوية لعلى فى الخلافة ، وقد اشتدت المحن بعد ذلك ، وتشعبت الإحن ، وكانت الخوارج بفرقهم ، والشيعة بنحلهم ، وانقسم المسلمون بذلك فرقاً وأحزاباً « كل حزب بما لديهم فرحون » .

دخول طوائف كثيرة فى الإسلام : من أصحاب الديانات القديمة ، والملل والنحل السابقة ، فقد بقى أولئك على كثير مما ورثوه من عقائدهم ، إذ لم يستطيعوا أن يخلصوا منه ، وأن يهجروه دفعة واحدة ، فقد مكنته الأجيال فى قرارات نفوسهم ، ومنهم من كانوا يحاولون أن يخلعوا ذلك القديم ؛ وبعضهم نزعوا إلى تقريب الإسلام مما ألفوه ، وتفسيره بما عرفوه ، وقد يكون ذلك منهم وهم لا يشعرون .

مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة ، وسريان كثير من أفكار أولئك إلى المسلمين خصوصاً ، لم يكن ثابت العقيدة قوى الإيمان ؛ وقد دلنا على ذلك تقارب كثير من آراء بعض اليهود والنصارى ، فترى تقارباً شديداً بين آراء فرقة الفروشيم من اليهود ، من آراء المعتزلة ، وترى تقارباً شديداً بين أفكار الرافضة الذين يدعون أنهم مسلمون وآراء اليهود . قال ابن عبد ربه فى الجزء الأول من العقد الفريد ناقلا عن الشعبى :

أحذرك الأهواء المضللة ، وشرها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة ، يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا فى الإسلام ، رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً بأهل الإسلام ، وبغياً عليهم ، وقد حرقهم

على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنار ، ونفاهم إلى البلدان ؛ منهم عبد الله بن سبأ نفاه إلى ساباط وعبد الله بن سباب نفاه إلى الحازر ، وأبو الكردس . وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود . قالت اليهود: لا يكون الملك إلا فى آل داود . وقالت الرافضة لا يكون الملك إلا فى آل على بن أبى طالب . وقالت اليهود: لا يكون جهاد فى سبيل الله ، حتى يخرج المسيخ المنتظر . وينادى مناد من السماء . وقالت الرافضة: لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى ، وينزل من السماء . واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الرافضة ، واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً وكذا الرافضة ، واليهود لا ترى على النساء عدة وكذا الرافضة . . واليهود تبغض جبريل وتقول: هو عدونا من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول: غلط جبريل فى الوحى إلى محمد ، بترك على ابن أبى طالب . واليهود لا تأكل لحم الجزور ، وكذلك الرافضة . اهـ باختصار قليل .

وترى من هذا كيف كانت التعاليم اليهودية تسرى إلى بعض من يدعون الإسلام ، إما لإضمارهم غير الإسلام ، وإظهارهم الإسلام ، وإما لأنها سرت إلى بعض ضعفاء الإيمان من مجاوريهم ، ولعله كان من الرافضة الفريقان .

محاولة أعداء الإسلام إفساد الأمر بين المسلمين : فقد نشروا بينهم أهواء مردية ، وأفكاراً باطلة كما كان يفعل الزنادقة والقرامطة وغيرهم ؛ فقد كانوا يفعلون ما يفعلون مستظلين بلواء الإسلام منتمين إليه . قال ابن حزم فى كتاب الفصل : والأصل فى أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر فى أنفسهم ؛ حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ؛ وكانوا يعدون جميع الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمت الأمور ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام ، بالمحاربة فى أوقات كثيرة ، ففى كل ذلك يظهر الحق . . . فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع ،

بإظهار محبة أهل البيت ، واستشناع ظلم على رضى الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، أخرجوهم عن الإسلام ، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر ، يدعى المهدى ، عنده حقيقة الدين ، إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار ، إذ نسبوا أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر ، وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة ، وقوم سلكوا بهم المسلك الذى ذكرنا من القول بالحلول ، وسقوط الشرائع ، وآخرون تلاعبوا فأوجبوا خمسين صلاة فى كل يوم وليلة .

ترجمة الفلسفة فى آخر العصر الأموى والعصر العباسى :

كان للكتب الفلسفية المترجمة أثر واضح ، إذ غزا الفكر الإسلامى كثير من المنازع الفلسفية ، والمذاهب القديمة فى خالق الكون ، وظهر كثير من علماء المسلمين نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين ، وأخذوا بطريقتهم .

وظهر فى العصر العباسى أقوام شكيون ، ينزعون فى الشك منزع السوفسطائية الذين ظهروا فى اليونان والروم ، فكان كل ذلك ضغثا على إبالة : أضاف إلى أسباب الخلاف أسباباً أقوى وأشد خطراً .

التعرض لبحث كثير من المسائل التى ليس فى استطاعة العقل البشرى الوصول إليها منفرداً عن الشرع ، كمسألة إثبات الصفات ونفيها ، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب ، وغير ذلك . فإن البحث فى هذه المسائل يفتح باباً واسعاً من أبواب الاختلاف ، إذ تختلف الأنظار ، وتتباين المسالك ، ويتجه كل اتجاها يخالف الآخر ؛ وربما كانت أكثر المسائل التى وقع فيها الاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة من هذا القبيل .

ورود المتشابه فى القرآن الكريم :

إن بعض ذوى الأفهام حاول الوصول إلى تأويله وإدراك كنه المراد فاختلفوا فى ذلك ، وبعض آخر ، ممن يضربون بينهم وبين الزيغ حجاباً مستوراً توقفوا :

استنباط الأحكام الاسلامية :

اختلف المسلمون بسبب استنباط الأحكام الإسلامية من الكتاب والسنة إذ تشعبت أمامهم طرق تعرف الأحكام ، وكل أخذ بما انقدح فى نفسه من رأى ، أو بما اقتنع به من حديث أو أثر . وربما كان هذا الخلاف أخف أنواع الخلاف خطراً ، وأقواها أثراً ، وأبينها ثمراً ، إذ نتج من مجموع الآراء المختلفة المتقاربة قانون محكم ، يعادل أحكم القوانين وضعاً ، وأدقها نظاماً ، وأعدلها منهجاً ، وأقواها على مسايرة الزمن ، ومساوقة الفطرة الإنسانية .

القصص :

ظهر القصص فى عصر الشهيد عثمان رضى الله عنه ، وكرهه على رضى الله عنه حتى أخرج القصاص من المساجد [1] ، لما كانوا يضعونه فى أذهان الناس من خرافات وأساطير ، بعضها مأخوذ من الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف ، وعراها التغيير . وقد كثر القصص كثرة فاحشة فى عصر الأمويين وكان بعضه صالحاً ، وكثير منه غير صالح . وربما كان السبب فى دخول كثير من الإسرائيليات فى كتب التفسير وكتب التاريخ الإسلامى هذا القصص الذى لا يتحرى فيه الصدق والحق فى بعض الأحيان . وطبيعى أن أفكاراً غير ناضجة تلقى فى مجالس القصص المختلفة قد تكون سبباً من أسباب الخلاف وخصوصاً إذا شايع القاص صاحب مذهب ، أو زعيم فكرة ، وشايع الآخر غيره ، فإن ذلك الخلاف يسرى إلى العامة ، وتسوء العقبى ، وقد كان شىء من ذلك يحدث فى العصور السابقة .

* * *

(١) ولم يستثن إلا الحسن البصرى .

الجدل والمناظرة في عصر الخلفاء الراشدين

قويت الوحدة الإسلامية فى عصر الخليفتين الأولين ، حتى إنه ماكان يحدث خلاف إلا انتهى إلى اتحاد ، ولا افتراق إلا انتهى باتفاق ، حتى ظهرت الفتن فى عصر الخليفة الثالث ، فاتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، وانشقت الوحدة الإسلامية ، واشعبت من غير تلاق ، وانفرعت من غير اتفاق ، وركبت الأهواء الرءوس ، وقامت فتنة خير وصف لها ما جاء فى صحيح البخارى : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً ، فليعذ به » ولسنا الآن بصدد بيان هذه الفتن ولكنا ذاكرون آثارها فى الجدل الإسلامى مع الإشارة إلى أسبابها فى موضعه .

وقد تناول الجدل فى عصر الخلفاء الراشدين شعباً ثلاثة :

١ — جدلا فى الإمامة .

٢ — وجدلا فى أصول العقيدة .

٣ — وجدلا فى الفروع .

ولم يكن الجدل فى هذه الشعب بمقدار واحد ، بل يتفاوت فيها تفاوتاً عظيماً . .

الإمامة :

قبل أن نذكر الخلاف فى الإمامة والجدل فيها نتقدم بكلمة موجزة عن كنهها والداعى إليها ، والشروط الشرعية فيها .

قال ابن خلدون فى بيان حقيقة الخلافة والفرق بينها وبين الملك : إن الملك الطبعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو ، حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار. والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

وهـذه التفرقة بين الملك والخلافة كانت واضحة فى عصر الخلفاء الراشدين ، كانوا رضوان الله تعالى عنهم مقيمين للحدود ، منفذين لأحكام الشرع الشريف ، حراساً على الناس فى تنفيذه ؛ دعاة إليه ، مبينين لأحكامه ، موضحين لما عساه يبهم على الناس ، وقد كان ذلك شأن الخلافة حتى انقلبت ملكا عضوضاً ، كما ورد بذلك الأثر .

ولما فى الخلافة من المعنى الدينى ، والرقابة على تنفيذ الشرع الشريف كانت من قبيل فروض الكفاية ، فيجب على الكافة إقامة خليفة ، بحيث يأثمون جميعاً إن لم يقم . قال ابن حزم فى كتابه الفصل : اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة ، وجميع الشيعة ، وجميع الخوارج على وجوب الإمامة ، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل ، يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله ﷺ ، حاشا النجدات من الخوارج ، فإنهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الإمامة ، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم : وهذه فرقة ما نرى بقى منهم أحد ، وهم المنسوبون إلى نجدة بن عويمر الحنفى باليمامة ، وقول هذه الفرقة ساقط يكفى فى الرد إليه وإبطاله إجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد وردا بإيجاب الإمام ، من ذلك قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » مع أحاديث كثيرة صحاح فى طاعة الأئمة وإيجاب الإمامة ، ثم بين أن الفرض إقامة إمام واحد ولا يجوز إقامة

إمامين : فقال . . « ثم اتفق من ذكرنا ممن يرى فرض الإمامة على أنه يجوز كون إمامين فى وقت واحد فى العالم ، ولا يجوز إلا إمام واحد إلا محمد ابن كرام السجستانى ، وأبا الصباح السمرقندى ، وأصحابهما ، فإنهما أجازوا كون إمامين وأكثر فى وقت واحد ، واحتج هؤلاء بقول الأنصار أو من قال منهم يوم السقيفة للمهاجرين : منا أمير ، ومنكم أمير ، واحتجوا أيضاً بأمر على والحسن مع معاوية ، وكل هذا لا حجة لهم فيه ، لأن قول الأنصار رضى الله عنهم ما ذكرنا لم يكن صواباً ، بل كان خطأً : أداهم إليه الاجتهاد ، وخالفهم فيه المهاجرون ، ولابد إذا اختلف القائلان على قولين متناقضين من أن يكون أحدهما حقاً ، والآخر خطأً ، وإذا كان ذلك كذلك فواجب رد ما تنازعوا فيه إلى ما افترض الله عز وجل للرد إليه عند التنازع ، إذ يقول سبحانه : « فإذا تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فنظرنا فى ذلك ، فوجدنا رسول الله ﷺ ، قد قال : إذا بويع لإمامين فاقتلوا الآخر منهما ، وقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وإذا كان إمامان فقد حصل التفرق المحرم ووجد التنازع ، ووقعت المعصية .

فصح أن قول الأنصار رضى الله عنهم خطأ رجعوا عنه إلى الحق وعصمهم الله من التمادى عليه ، وأماأ مر على والحسن ومعاوية فقدصح عن النبى ﷺ أنه أنذر بخارجة تخرج من طائفتين ، وأنه تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فكان قاتل تلك الطائفة على رضى الله عنه ، فهو صاحب الحق بلا شك ، وكذلك أنذر عليه الصلاة والسلام بأن عماراً تقتله الفئة الباغية ، فصح أن علياً هو صاحب الحق ، وكان علىٌ السابق إلى الإمامة فصح بعد أنه صاحبها وأن من نازعه فيها فمخطىء ، فمعاوية رحمه الله مخطىء ، مأجور مرة ، لأنه مجتهد ، ولا حجة فى خطأ المخطىء ، فبطل قول هذه الطائفة أيضاً . أ هـ . باختصار قليل .

وقد ذكر ابن خلدون شروط الإمامة فقال :

وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس . واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى . وقد اشترط ابن حزم أن يكون رجلا ، لقول رسول الله ﷺ : « لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » .

أما الاختلاف الذي أشار إليه ابن خلدون فى النسب القرشى فواسع النطاق ، مترامى الأطراف مختلف النواحى ، قال ابن حزم : اختلف القائلون على وجوب الإمامة فى قريش، فذهب أهل السنة ، وجميع الشيعة ، وبعض المعتزلة ، وجمهور المرجئة إلى أن الإمامة لا تجوز إلا فى قريش خاصة من ولد فهر بن مالك ، وأنها لا تجوز فيمن كان أبوه من غير بنى فهر بن مالك ، وإن كانت أمه من قريش ، ولا فى حليف ، ولا فى مولى ، وذهبت الخوارج كلها ، وجمهور المعتزلة ، وبعض المرجئة إلى أنها جائزة فى كل من قام بالكتاب والسنة ، والواجب أن يقدم الحبشى ، لأنه أسهل لخلعه إذا حاد عن الطريقة .

ثم قال : واختلف القائلون بأن الإمامة لا تجوز إلا فى قريش . فقالت طائفة : هى جائزة فى جميع ولد فهر ، وهذا قول أهل السنة ، وجمهور المرجئة ، وبعض المعتزلة . . وقالت طائفة: لا تجوز الخلافة إلا فى ولد على ابن أبى طالب . . وبلغنا عن بعض بنى الحارث بن عبد المطلب أنه كان يقول لا تجوز الخلافة إلا فى بنى عبد المطلب خاصة ، ويراها فى جميع ولد عبد المطلب ، وهم أبو طالب ، وأبو لهب ، والحارث ، والعباس ، وبلغنا عن رجل كان بالأردن أنه يقول لا تجوز الخلافة إلا فى بنى أمية بن عبد شمس ، ورأينا كتاباً مؤلفاً لرجل من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحتج بأن الخلافة لا تجوز إلا لولد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . .

وترى من هذا أن جماهير العلماء من المسلمين يرون أن الخليفة من قريش ومن عداهم أقل عدداً وأضعف ناصراً ، وقد احتج أولئك الكثرة من العلماء بحديث الأئمة من قريش ، وفى رواية : الأمراء من قريش . وإذا رجعنا إلى أقوال الرواة والشراح فى ذلك الحديث نرى أمرين :

أحدهما : أنهم اختلفوا فى معناه ، فريق خرّج الحديث على أنه خبر بما سيقع ، وهو أن الإمامة الحقيقية الشرعية ستكون فى قريش ، لا فى غيرهم ، وفريق قال إن المقصود الأمر والتكليف ، واستمع إلى ما يقوله ابن حجر فى شرح حديث ابن عمر عن النبى ﷺ « لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى اثنان » . التقدير لا يزال هذا الأمر أى لا يسمى بالخليفة إلا من يكون من قريش ، إلا أن يسمى به أحدهم من غيرهم غلبة وقهراً . وإما أن يكون المراد به الأمر ، وإن كان لفظه لفظ الخبر . ثم قال : قال النووى : حكم حديث ابن عمر إلى يوم القيامة ما بقى من الناس اثنان ، وقد ظهر ما قاله ﷺ ، فمن زمنه إلى الآن لم تزل الخلافة فى قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك ، ومن تغلب على الملك بطريق الشركة ، لا ينكر أن الخلافة فى قريش، وإنما يدعى أن ذلك بالنيابة عنهم . ثم قال : قال القرطبى : هذا الحديث خبر عن المشروعية أى لا تنعقد الإمامة الكبرى إلا لقرشى ، مهما وجد منهم أحد ، وكأنه جنح إلى أنه خبر بمعنى الأمر .

ثانيهما : أن الروايات تضافرت على أن أولوية قرش مقيدة بعد لهم ؛ وإقامتهم الحق ، بل طاعة كل متول مقيدة بذلك ، ومن ذلك ، قوله ﷺ لقريش : « أنتم أولى الناس بهذا الأمر ، ما كنتم على الحق ، إلا أن تعدلوا فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة » . وقوله ﷺ : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا ، فضعوا سيوفكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » .

ويفهم من كل هذا أن القرشى أولى بالخلافة ما تساوى مع غيره كفاية وعدلا ، فإن لم يكن فى كفاية غيره ، وعدالته ، فغيره أولى . ويؤيد ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه ، أنه قال : إن أدركنى أجلى ، وأبو عبيدة حى استخلفته ، فإن أدركنى أجلى ، وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ ابن جبل ، ومعاذ بن جبل غير قرشى ؛ وقوله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشى ، كأن رأسه زبيبة » . فهذا وذاك يؤيد جواز أن تكون الولاية فى غير قرشى .

اختلاف المسلمين فى الخلافة :

ولنرجع إلى اختلاف المسلمين فى الخلافة فى عصر الخلفاء الراشدين ، فنقول:اختلف المسلمون بعد رسول الله ﷺ ، فى شأن من يخلفه فى ولاية أمر المسلمين ؛ فالأنصار رأوا أن الخليفة يكون منهم ، لما لهم من فضيلة الإيواء والنصرة ، ولأنهم هم حماة الإسلام ، ونصراء الرسول ﷺ ، والدعاة إليه ، ولم يروا أن النبى ﷺ ، خصها ببطن من بطون العرب ، ولا بقبيلة من قبائلهم . وفريق آخر على رأسهم أبو بكر ، رأوا أن الأمر للمهاجرين ، وفريق ثالث جعلوها فى بنى هاشم ، ونادوا بعلى لامتيازه على كل بنى هاشم بالسابقة فى الإسلام ، والدفاع عنه ، والمواقف فى الجلى ؛ والعلم والفقه فى الدين ، ولم يدم الخلاف طويلا ، فإن الفريق الوسط قد غلب الفريقين ، وتبعه جماهير المسلمين ، وسكن الرأى الأول حتى نادى به الخوارج ، وخمد الرأى الثالث حتى استيقظت رءوس الفتن فى عهد الخليفة الشهيد عثمان رضى الله عنه،وذلك لأن شخصية الخليفتين ، وما قد قدماه من فداء وبلاء بهرا الأنظار ، فلم يفكر الناس فى رجعة أو انتكاث .

وفوق ذلك فقد شغل المسلمون بالجهاد فى سبيل الله ، والتعاون فى تدبير الأمور لتلك الفتوح التى اتسعت بها رقعة الحكم الإسلامى ، ولذلك لم يحفظ التاريخ من المجادلات فى الخلافة من لدن وفاة النبى ﷺ ، إلى الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه إلا مجادلة الأنصار للمهاجرين ، وانتهاء الأمر بمبايعة أبى بكر رضى الله عنه ، وإلا امتناع على رضى الله عنه وبعض أهل بيته ومن ينتمون إليه عن البيعة زمناً قيل إنه ستة أشهر ، وما تخلل ذلك من مناقشات له رضى الله عنه فى إثبات حقه فى الخلافة ، وإدلائه إليها بقرابته وسابقته ، ولما بايع أحسن الطاعة ، ولم يحدث نفاراً ، ولم يشاقق خليفة فيما يعتقده حقاً له ، فأدى للخلافة حقوقها ، ولولى الأمر ما يجب له من نصيحة وموعظة حسنة ، ومشورة خالصة .

وقد سلك الصحابة فى طريق انتخاب الخلفاء ثلاثة مسالك ، لأنهم لم

يجدوا نصاً شرعياً يقيدهم بطريق ، ويأخذهم بمذهب ، إذ الشرع تولك الناس أحراراً فيه ، يسلكون أى مذهب يوحى به العقل ، وتوافق عليـه الكثرة لأن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة ، فلم يقيدهم الشرع بطريق قد يصلح فى زمن ، وربما لا يصلح فى غيره .

والمسالك التى سلكها الخلفاء :

١ — طريقة الانتخاب المباشر من المسلمين ، وقد حصل ذلك فى انتخاب أبى بكر رضى الله عنه الذى تم سريعاً فى سقيفة بنى ساعدة .

٢ — وطريقة العهد لمن بعده ،وكان ذلك لا يتم إلا بعد مبايعة المسلمين لمن يعهد إليه ، وقد حصل ذلك فى انتخاب الفاروق عمر رضى الله عنه إذ اختاره أبو بكر ، وعهد إليه ، ثم أخذ البيعة له من المسلمين . ولو أردنا أن نرد الحقائق إلى نصابها فى هذه الطريقة ، لقلنا إن عهد الخليفة ماكان اقتراحاً وقد نفذه المسلمون بمبايعتهم ذلك المستخلف . والأمر الذى جعل أبا بكر يعمد إلى ذلك هو خوفه أن يضيع أمر الأمة سدداً بدداً ، والجيوش قد ذهبت فاتحة ، ضاربة فى الأرض ، والأعـداء فى كل مكان يتربصون الدوائر بالمسلمين ويريدون الفرصة فينتهزونها .

٣ — وطريقة الاختيار الشورى من أشخاص يعينهم الخليفة ، ليختار منهم من يخلفه . وقد فعل ذلك عمر رضى الله عنه عندما ضربه أبو لؤلؤة المجوسى لعنه الله . والذى حصل أن ثلاثة من الستة الذين عينهم عمـر ؛ فوضوا لعبد الرحمن بن عوف اختيار على أو عثمان ، فاختار عثمان رضى الله عنه ، وبايع الناس ، وما اعتبر عثمان خليفة إلا بعد أن تمت له البيعة من المسلمين بالمدينة المنورة . وعلى ذلك يمكننا أن نقول إن الانتخاب العام كان روح هذه الطريقة ، والفرق بينها وبين سابقتها أن هـذه اقتراح بانتخاب شخص من بين ستة ، قال عنهم عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، مات وهو عنهم راض ، فلم يجد لأحدهم فضلا على الآخرين ، ولم يرد أن يتحمل التبعات حياً وميتاً .

الفتن فى عهد عثمان رضى الله عنه

استيقظت الفتن فى عهد الشهيد عثمان رضى الله ، وكان العامل فيها خمسة عناصر :

أولها : سماحة القرشيين وكبار المهاجرين والأنصار بالذهاب إلى الأقاليم ، فإن أولئك ذهبوا إلى البلاد ، فانسابوا فيها بعد أن كان عمر رضى الله عنه قد منعهم منها ، وقد كان فيهم جرأة على الحكام بسبب قدمهم السابقة فى الإسلام ، ثم من القرشيين من كونوا أرستقراطية عربية ، لها مجالس خاصة ؛ ومميزات تجعل لهم الصدر ، وقد اختلفوا فى هذه المجالس ؛ وتناولوا الخليفة وعماله بالنقد ، ومن المهاجرين الأولين من رأى أعمالا ينكرها ، وأموراً لم يقرها ، فشدد النكير بسببها على الخليفة ، وعماله ، كما فعل أبو ذر رضى الله عنه ، فإنه يروى أنه كان يقول فى الشام : والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هى فى كتاب الله ، ولا فى سنة نبيه ﷺ ، والله إنى لأرى حقاً يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقاً مكذباً ، وأثرة بغير تقى ، وصالحاً مستأثراً عليه : فقال حبيب بن مسلمة الفهرى لمعاوية : إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله ، إن كان لك فيه حاجة ، وقد كثرت أقواله على هذه الشاكلة حتى شكى معاوية إلى الخليفة المقتول عثمان رضى الله عنه منه ، فأمره عثمان بأن يحمله إليه .

وترى من هذا كيف كان سماح عثمان لهؤلاء العلية من الصحابة فاتحاً باباً لنقد أمره بين أقوام قريبى عهد بكفر ، أو دخلوا فى حكم المسلمين كارهين لا طائعين ؛ ولو أبقاهم بجواره لاستطاع أن يجد منهم المستشارين والمعينين إن أراد ذلك .

ثانيها : اشتهار سيدنا عثمان رضى الله عنه بحبه لأقاربه وليس فى ذلك من إثم ولا لوم ، ولكنه وثق بكثير من الأمويين وهم أسرته ، وبعضهم ليسوا بأهل لهذه الثقة ، فكان يستشيرهم فى كثير من أمور الدولة ، وبذلك نفر منه عظماء من علية الصحابة ذوى السبق فى الإسلام ، كطلحة ، وسعد

ابن أبي وقاص ، والسيدة عائشة أم المؤمنين ، لأنهم رأوه قد أخذ يشاور هؤلاء بدل أن يشاور أولئك السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان . وقد كان عمر رضي الله عنه قد اختص بشوراه الخاصة أولئك الممتازين ، وكان كلما جد أمر من الأمور ذوات الخطر جمع سكان المدينة أجمعين ، واستشارهم في شورى عامة .

وقد كان أولئك الأمويون يحاولون القبض على ناصية الأمور . يروى أن عثمان لما أحاط به المصريون والكوفيون والبصريون ، استعان بعلي رضى الله عنه في صرف المصريين ، فصرفهم ، وأشار عليه علي بأن يكلم الناس بكلام يسمعونه ، يشهد الله على ما في قلبه من النزوع والإنابة ، فتكلم بكلام ، فرق له الناس ، وبكى كثيرون منهم ، وارتدت القلوب الشاردة وكادت القضب ترجع إلى أجفانها ، وتموت نوازع الشر في خلاياها ، ولكن مروان جاء إليه ، وقال له بأبي أنت وأمي ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت ، وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضى بها ، وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة تستغفر منها أجمل من توبة تخوف عليها . وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس ، فقال عثمان : فاخرج إليهم ، فكلمهم ؛ فإني لأستحيي أن أكلمهم ، فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : ما شأنكم ، فقد اجتمعتم كأنكم قد اجتمعتم لنهب ، شاهت الوجوه ؛ وكل إنسان آخذ بأذن صاحبه ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا . أما والله لئن رميتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا (١) .

(١) الطبري الجزء الخامس صفحة ١١٢ ، قد نقل ذلك الطبري ، وهو من الثقات ، ونبتني كيف يكون وقع هذا الكلام في النفوس ، لابد أن يكون بأسا من إشكاه ، ومع اليأس العصيان ، وكذلك كان .

ثالثها : تولية بعض العمال فإنهم لم يكونوا من ذوى السبق ، وبعضهم قد أباح سيدنا محمد ﷺ دمه ، إذ ارتد بعد إيمان ، وهو عبد الله بن سعد ابن أبى السرح ولاه أمر مصر بعد عمرو بن العاص ، فاكتسب من عمرو عدوا شديد الخصومة ، ولم يكتسب من عبد الله نصيراً يرد الشبهة وينشر الحق . فقد أخذ عمرو يؤلب الناس على عثمان ، حتى إنه روى فى الطبرى أنه كان يقول : والله إن كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه . وأما عبد الله بن سعد فقد كانت ولايته مصر سبباً لنشر قالة السوء عن سيدنا عثمان رضى الله عنه إذ أخذ الناس يتحدثون فى شأن توليته ؛ وهو الرجل الذى آمن ثم كفر ، ثم كذب على رسول الله ﷺ ، وادعى أنه لبس على المسلمين دينهم ، إذ قال إنه كان يكتب القرآن الكريم بخلاف ما كان يأمره به ﷺ ، وغير ذلك من الدعاوى الخطرة التى نسبت إليه .

وفوق هذا لم يكن البر الرحيم الذى يأسو الجراح الناغرة بحسن سياسة ، ويرقأ النفوس الثائرة بحذق وكياسة ، بل كان فى سياسته العنف الذى لم يمازجه عدل .

جاء فى كتاب الإ
أهل مصر جاءوا يشكون ابن
يتهدده فيه ، فأبى ابن أبى السرح ا
بعض من آتاه من قبل عثمان من أهل مصر ، حتى قتله ، فانظر إلى الرجل كيف يستهين بأمر أمير المؤمنين ، وكيف تدفعه غوايته إلى الجرأة على إيذاء من أوصاه بالعدل بينهم ، والرأفة بهم . ثم إذا شعر الناس بأن أمر الخليفة يهون على من ولاه ، ألا ييئسون من إقامة العدل ، وفى اليأس فتح باب الشر والفتن والقتل والقتال ، إذ الشعور بالعدل هو الحاجز الحصين الذى يحول بين الشعوب ، والنزوع إلى الفتن والآثام والشرور .

رابعها : لين سيدنا عثمان رضى الله عنه :

لم يكن سيدنا عثمان رجلا عنيفاً ممن يأخذون الأمور بالشدة ، ويعالجونها بالحزم ، بل كان رجلا مسالماً يميل إلى أخذ الأمور ومعالجتها بالحسنى ،

وكثير من الفتن لا تعالج إلا بالسيف ولا تؤخذ إلا بالشدة ، ولو أن سيدنا عثمان رضى الله عنه أخذ أولئك العصاة بالشــدة عندما تحركت رءوس إلى الانتقاض ، وقضى على فتنهم حتى أيأسهم من أن تكون الثورة وسيلة للعلاج ، ثم بعد ذلك يأخذ فى رد الأمور إلى نصابها ومعالجتها ، وأبعد الولاة الذين كانوا سبباً فى شيوع القالة وانتشار السوء ، لو فعل ذلك لنجا ، ولـكنه آثر العافية للناس ، وكان أهل المدينة وعظماء الصحابة كلما هموا بحمل سيوفهم للوقوف فى وجه أولئك الذين ساوروا المدينة ثبطهم ومنعهم ، فإن الرواة يقولون إن ثمانمائة من الصحابة كانوا على استعداد لحمل السلاح ، وكلهم من بقايا السـيف ، وبقايا السيف أبقى عدداً ، وأحفظ للبيضة ، وأشد من يحامون عن الحوزة ، وقد منعهم سيدنا عثمان من التقدم لإخراج هؤلاء إيثاراً للعافية ، ومنعاً للقتل والقتال ، فـكان هو رضى الله عنه أول فداء ، وأول قربان ألقى فى تلك النيران التى تأججت .

خامسها : وهو أعظم الأسباب ، وجود طوائف من الناقين على الإسلام الـكائدين له بين ربوع المســلمين ، فعملوا على تفريق أهله ، وتمزيق وحدتهم ، وتضييعهم سدداً بدداً ، ولا جامعة تجمعهم . وكان أولئك يلبسون لباس الغيرة على الدين ، ويشيعون السوء عن عثمان ، ويذكرون علياً بالخير ، وينشرون روح النقمة والتمرد بين الشعوب الإسلامية ، ويتخذون من بعض ما يفعله ولاة لعثمان ما يبنون عليه دعوتهم ، لأنهم يحبون أن تشيع المظالم فى الذين آمنوا ، وكان الطاغوت الأكبر لهؤلاء جميعاً عبد الله بن سبأ . واستمع إلى ما يقوله الطبرى فيه : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالهم ، فبدأ ببلاد الحجاز ، ثم البصرة ، ثم الـكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحـد من أهل الشام ؛ فأخرجوه ، حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً لم يرجع ، وقد قال عز وجل : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى

معاد » . فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها . ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ؛ ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة ، ثم قال لهم بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته ، وكاتب من كان استخفى في الأمصار ، وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتباً يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك . ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون ؛ فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة . فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ، فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس .

انظر إلى أولئك المنافقين الذين يعيثون في الأرض كيف يملأون الجو صياحاً ، ويجأرون بالشكاوى الكاذبة ، ونبئني كيف يكون حالهم إذا وجدوا هناة لأمير ، أو ذنباً سابقاً أو لاحقاً لوال ، لا بد أن يذيعوه وينشروه ، ليملئوا نفوس الناس بأن أمر الأمة قد فسد وضاع ، وليوقظوا فيهم إحساساً بأن ظلماً واقع ، وعدلا ضائع ، ويشعروهم باليأس من النصفة إلا بتغيير ؛ وفي التغيير تأريث للعداوات وتذكية لنيران الأحقاد ، وفتح أبواب الشر على مصاريعها ، فتفشل الأمة ، وتذهب ريحها ، وذلك ما يبغون .

تضافرت الأسباب السابقة ، فأوجدت تلك الفتن التي ابتدأت بقتل ذلك

الخليفة الشهيد ، وانتهت بتقسيم الأمة الإسلامية إلى فرق وشيع وأحزاب تتجادل أحياناً باللسان ، وتتناحر أحياناً بالسيف .

فى ظل تلك الفتن نبتت الشيعة ، وإن كان لعلى أنصار فى الحقيقة ، قبل ذلك يرجع وجودهم إلى الخلاف الأول الذى نشأ ، بعد وفاة النبى ﷺ ، ولكن لم يأخذوا شكل طائفة تجمعها آراء ومبادىء تتعلق بالإمامة ، إلا بعد أن أخذ عبد الله بن سبأ يدعو دعوته هذه ، وينشر ذلك الرأى الذى ارتآه طريقاً لغايته ، ولما قتل سيدنا على رضى الله عنه أخذت آراء الشيعة تتسع وتنقسم فرقاً مختلفة على ما سنبين إن شاء الله تعالى عند الكلام على الشيعة

وفى صدى هذه الفتن ، وآثارها التى استمرت طول مدة الخليفة الرابع على كرم الله وجهه ، وجـد الخوارج الذين خرجوا على على رضى الله عنه بعد التحكيم ، وأخذوا ينادون بتلك الكلمة التى كانوا يرددونها وهى «لا حكم إلا لله » وقد أخذوا يجادلون علياً ، وعلى يجادلهم ، حتى قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت ، ولم يسلموا قاتله ، وقالوا : كلنا قتله ، فقاتلهم على رضى الله عنه حتى كاد يبيدهم .

الجدال فى الخلافة فى هذا العصر :

كثر الجـدال فى الخلافة الإسـلامية فى ثلاثة أدوار فى عصر الخلفاء الراشدين : ففى الدور الأول كان يدور الجدل أولا حول استحقاق الأنصار والمهاجرين للخلافة ، وكان الأنصار يحتجون بالنصرة والإيواء ، والمهاجرون ولون أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن الكريم عليكم ، ويحتجون بأنهم أقرباء ى ﷺ ، وقد انتهى ذلك الجدل بالإقرار للمهاجرين ، وقد كانت روح ين تسود المتجادلين ، والإخلاص كان يسيطر على الفريقين ، ولذلك انتهى لاف وشيكا . وقد عقب ذلك خلاف آخر قوامه شعور على بأنه أحق لافة لقرابته القريبة ، وهو يحتج بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم ببعض فى كتاب الله » . ويحتج بأن المهاجرين احتجوا بأن رسول الله ﷺ ففازوا ، وإن يكن الفلج لهم فالهاشميون أولى ، لأنهم الأقربون ، وإلا

فالأنصار على حجتهم . وقد انتهى ذلك الجـدل بمبايعة على رضى الله عنه لأبى بكر خليفة رسول الله ﷺ ، لأنه لم يرد لهذه الأمة شقاقاً ولا نفاراً ، فاخلاص الصحابة هو فى الحقيقة الذى حسم الداء .

أما الدور الثانى فقد كان فى تلك الفتن التى قامت فى آخر عصر الخليفة الثالث رضى الله عنه ، وقد كان بعضه يجرى سراً فى الأقاليم كالذى كان يجرى بين السبئية فيما بينهم ، وقوام هـذا النوع الغرض ، وقصده الكيد ، فهو من نوع التآمر المفسد ، وكان بعضه يجرى علناً فى صورة شكوى من الظلم والظالمين ، وبعضه كان يجرى فى صورة نقد كما كان ينتقد بعض الصحابة رضى الله تعـالى عنهم أعمال سـيدنا عثمان . وبعضهم كان يصارحه بهـا . وبعضهم كان يتحدث فى المجالس ناقداً مستنكراً كما كان يفعل عمرو بن العاص بعد عزله ، وعمار بن ياسر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، السيدة وعائشة رضى الله تعالى عنها وغيرهم .

وكان عثمان رضى الله عنه إزاء نبال النقد التى كانت تصوب إليه من كل ناحية يدافع عن نفسه وعن ولاته ، ويرد على ما يهاجمه به خصومه .

وإنا ناقلون لك مجادلتين من المجادلات لتعرف منهما شكلها ، وروحها والدوافع إليها :

إحداهما : أنه لمـا كثرت القالة فى شـأن عثمان رضى الله عنه وعماله ، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، فكلموا على بن أبى طالب فدخل على عثمان ، وقال له : الناس ورائى ، وقد كلمونى فيك والله ما أدرى ما أقول ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ، ونلت صهره . وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخـير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ، ولا سبقاك إلى شىء ،

فالله الله فى نفسك ، فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة ، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ، فوالله إن كلا لبين ، وإن السنن لقائمة ، لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل ، وضل به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر ، وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى فى جهنم ، فيدور فى جهنم كما تدور الرحى ، ثم يرتطم فى غمرة جهنم ؛ وإنى أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمانه ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول،فإنه يقال : يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعاً ، فلا يبصرون الحق ، لعلو الباطل ، يموجون فيها موجاً ، ويمرجون فيها مرجاً ، فقال عثمان : قد والله علمت ليقولن الذى قلت . أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ؛ ولا جئت منكراً إن وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وأويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ، أنشدك الله يا على ، هل تعلم أن المغيرة ابن شعبة ليس هناك : قال نعم ، قال فتعلم أن عمر ولاه ، قال نعم ، قال فلم تلومنى ، إن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته : قال على:سأخبرك إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى ، فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ، ورفقت على أقاربك ، قال عثمان : هم أقاربك أيضاً ، فقال على : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته ، فقال على : أنشدك هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه . قال نعم : قال: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ، وأنت لا تعلمها ، فيقول للناس: هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية ، ثم خرج على من عنده (١) .

---

(١) الطبرى جزء خامس صفحة ٩٧ .

ويستنبط القارىء لهذه المجادلة :

١ - ألم سيدنا عثمان لتشنيع الناس عليه واستنكار الصحابة له .

٢ - وأنه لا يرى تولية الأقارب إلا براً برحمه ، مادام لم يقرهم على ظلم :

٣ - وإنه يختار ولاة لا يقلون عن عمر ، فيرد عليه على بأن المأخوذ عليه ضعفه ورفقه بهم ، واستبدادهم بالأمر دونه ، وبأن الفارق بينه وبين عمر أن عمر كان شديداً على ولاته يهابونه ويخافونه فلا يقطعون الأمور دونه .

فالجدل يحوم حول العمال وشئونهم والحكم عليهم ، وهذه صورة لما كان يجرى بين الناس عامة ، والصحابة خاصة ، وتلمح فى ثنايا الألفاظ شيئاً من تجافى النفسين ، وإن كان كلاهما يريد هداية لاغواية فيها ، وحقاً قائماً لا ظلم بجانبه ، فالصورة التى تعطيها لنا هذه المجادلة :

١ - التجافى بين المتجادلين .

٢ - اختلاف وجهة النظر ؛ وإخلاص كل منهما فيما يرى .

ثانيتهما : أنه لما جاء وفد الكوفيين والبصريين معترضين على عثمان جمعهم فى المسجد ، وقد أحاط بهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : بعد كلام ، إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ، ليوجبوها على عند من لا يعلم ، وقالوا : أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم . ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى ، فأتممت ، أكذلك ؟ قالوا:اللهم نعم . وقالوا:حميت حمى ، وإنى والله ما حميت حمى قبلى ، والله ما حموا شيئاً لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها ، لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ؛ ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحد ؛ ومالى من بعير غير راحلتين ، ومالى ثاغية ولا راغية ، وإنى قد وليت ، وإنى أكثر العرب بعيراً وشاة ، فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذلك ؟ قالوا:اللهم نعم .

وقالوا كان القرآن الكريم كتباً فتركتها إلا واحدة . ألا وإن القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنما أنا فى ذلك تابع ، أكذلك ؟ قالوا نعم . وقالوا ، إنى رددت الحكم ، وقد سيره رسول الله ﷺ ، من مكة المكرمة إلى الطائف ثم رده رسول الله ﷺ ، فرسول الله ﷺ سيره ، ورسول الله ﷺ رده ، أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم . وقالوا استعملت الأحداث ، ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملا مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم ، فسلوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلدهم . ولقد ولى من قبلى أحدث منهم ، وقيل فى ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة ، أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم . قال : يعيبون للناس ما لا يفسرون. وقالوا أنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وإنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكذلك ؟ قالوا نعم . وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، فأما حبى فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم وأما إعطاؤهم فإنى أعطيهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ حريص شحيح . أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ما قالوا . وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا ، فيجوز ذلك لمن قاله ، وقد رددته عليهم وما قدم على الأخماس ، ولا يحل لى منهم شىء ، فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى . . وما آكل إلا من مالى .

وترى من ذلك الدفاع المحكم الذى دافع به سيدنا عثمان رضى الله عنه وساجل الصحابة فيه وذاكرهم إياه صورة لما كان يجرى من النقد المر العنيف له رضى الله عنه ، وما كان يشيعه السبئيون من قالة السوء . وما يعملون على ترويجه من باطل مزيف ، فقد أجمل رضى الله عنه ذكر الاعتراضات التى كانوا يعترضون بها عليه ، وبين وجه الحق فيما يفعل ، وأنه

كان على بينة من أمره ، وعلى حجة من دينه ، ولكنهم مغرضون لا يريدون رشاداً ، ولا يبغون سداداً . فجادلته لهم مجادلة رجل مخلص مع آخر يتربص به الدوائر ، ويتسقط هفواته لينفذ أغراضاً ويلقى فى نفوس عنه إعراضاً ، ومن كان شأنه كذلك لا تقدمه الحجة ، ولا يهديه الدليل . ومن يضلل الله فلا هادى له .

أما الدور الثالث فقد كان بعد أن بويع على رضى الله عنه بالخلافة ، فقد تقدمت طائفة من كبار الصحابة تناقش علياً الحساب ، وتدعوه إلى القصاص من قتلة عثمان رضى الله عنه ؛ وقد حاول على رضى الله عنه أن يعرف القاتل من بينهم ، فما استطاع إليه سبيلا ، وانتظر أن يجىء أولياء الدم يرفعون الأمر إليه ، ويطلبون القود ، وبمعاونتهم يستطيع العثور على القاتل ، ولكن بدل أن يأتى أولئك الأولياء بما هو الشرع ، أخذوا يتهمون علياً بالممالأة فى قتله ، وحماية القاتلين ، وصار الأمر هرجاً ، وتقدم جمع من المسلمين على رأسهم السيدة عائشة رضى الله عنها ، وطلحة والزبير ، وحاربوا علياً فى واقعة الجمل المشهورة ، وقد تخلل ذلك مجادلات كثيرة فى ذلك الموضوع . منها ما جاء فى العقد الفريد عن أبى حرب عن أبى الأسود عن أبيه ، قال خرجت مع عمران بن حصين وعثمان بن حنيف إلى السيدة عائشة ، فقلنا: أخبرينا عن مسيرك هذا ، عهد عهده إليك رسول الله ﷺ ، أم رأى رأيتيه . قالت: بل رأى رأيته حين قتل عثمان بن عفان ، إنا نقمنا عليه ضربه بالسوط ، وموقع المسحاة المحماة ، وإمرة سعيد والوليد . وعدوتم عليه فاستحللتم منه الثلاث : حرمة البلد ، وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ؛ أمرك إن مصصتموه كما يماص الإناء ، فغضبنا لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيفكم ! ! ! قلنا: ما أنت وسيفنا وسوط عثمان ، وأنت حبيس ﷺ ؛ أمرك أن تقرى فى بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض . قالت: وهل أحد يقاتلنى أو يقول غير هذا ؟ قلنا : نعم قالت ومن يفعل ذلك ، هل مبلغ عنى يا عمران ؟ قال : لست مبلغاً عنك

حرفاً واحداً . قلت لكنني مبلغ عنك ، فهات ما شئت . قالت : اللهم اقتل مذمماً قصصاً بعثمان وارم الأشتر بسهم من سهامك لا يشوى ، وأدرك عماراً بحيرته على عثمان .

وبعد واقعة الجمل ، ظهر طمع معاوية فى الخلافة وإن كان قد ستره أولا بطلب قتلة عثمان . وكان جدل كثير بين المسلمين أيهما أحق بالخلافة ، وكانت المراسلة دائمة بين معاوية وعلى فى صورة واضحة لهذا الجدل ، وإنا نثبت لك هنا كتاباً لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه يتبين لك منه كيف كان جدل الرجلين ، وكيف كان يحتج كل لحقه ، وها هو ذا :

أما بعد فقد أتانا كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً ﷺ وآله لدينه ، وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه ، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً ، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ، ونعمته علينا فى نبينا ، فكنت فى ذلك كناقل التمر إلى هجر ، أو داعي مسدده إلى النضال . وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان أمراً إن تم اعتزلك كله . وإن نقص لم يلحقك ثلمته . ما أنت والفاضل والمفضول ، والسائس والمسوس ، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء ، والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم . هيهات لقد حن قدح ليس منها ، وطفق يحكم فيها من عليه ، ألا تربع إلى الإنسان على ظلعك وترضى بقصور ذرعك ، وتتأخر حيث أخرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر . وإنك لذهاب فى التيه ، رواغ عن القصد ؛ ألا ترى غير مخبر ، ولكن بنعمة الله أحدث أن قوماً استشهدوا فى سبيل الله من المهاجرين ولكل فضل ، حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله ﷺ ، بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، أو لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم فى سبيل الله ؛ ولكل فضل ، حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل الطيار فى الجنة وذو الجناحين ، ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجها آذان السامعين، فدع منك من

مالت به الرمية ، فإنا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ، ولا عادى طولنا على قومك إن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا ، وأنكحنا فعل الأكفاء ، ولستم هناك ، وأنى يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ﷺ ، ومنكم المكذب ، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف ، ومنا سيد شباب أهل الجنة ، ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة الحطب ، فى كثير مما لنا . وعليكم . فإسلامنا قد سمع ، وجاهليتنا لا تدفع ، وكتاب الله يجمع ما شذ عنا ، وهو قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ، وقوله تعالى : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » . فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة . ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا عليهم ، فإن يكن الفلج به ، فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم .

وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون عذرها إليك ، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . وقلت إنى كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع ، ولعمر الله أردت أن تذم فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت ، وما على المسلم من غضاضة فى أن يكون مظلوماً ، ما لم يكن شاكا فى دينه ، ولا مرتاباً بيقينه ، وهذه حجتى إلى غيرك قصدها ، ولكنى أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها .

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه ، فأينا كان أعدى عليه ، وأهدى إلى مقاتله ، أمن بذل نصرته فاستقعده واستكفه ؟ أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون إليه ، حتى أتى قدره عليه ؟ كلا والله : « لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا » .

وما كنت لأعتذر من أنى أنقم عليه أحداثاً ، فإن كان الذنب إليه

إرشادى وهدايتى له فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف ، فلقد أضحكت بعد استعبار، متى ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ، وبالسيف مخوفين ، لبّث قليلا يلحق الهيجا حمل ، فسيطلبك من تطلب ، ويقرب منك ما تستبعد ، وأنا مرقل نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، شديد زحامهم ، ساطع قتامهم ، متسربلين سربال الموت ، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم ، قد صحبتهم ذرية بدرية ، وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك وجدك ، وأهلك (وما هى من الظالمين ببعيد) .

ونرى من ذلك الكتاب كيف الحدة مسيطرة على الفريقين المتناظرين وكل مجادلة بينهما بتبادل كتب كانت توسع الهوة : وتمزق الخرق ، ولا ترقق الفتق ، وإذا التقوا إلى فكرة جامعة فى مراسلة تنافروا بعدها ، واشتد النفار ، وأحد الفريقين يحتج بالسابقة فى الإسلام ، والقرابة القريبة كما ترى ، والآخر وهو معاوية لا يفضل نفسه على على ، ولكن يلطخه بدم عثمان رضى الله عنه ، ويثير شبهات حوله وحول أعماله مع الخلفاء السابقين ، ولكل أقوام يصدقون دعوته ، ويصدرون عن رأيه ، وينهضون بحجته ، وقد لبس الحق ، وغشى بستائر من بطلان ، ولو كانت الحجة وحدها تشق حجب الظلمات لكان ما أدلى به على رضى الله عنه كافياً لإزالة الشبهات ، ورد الحق إلى نصابه ، ولكن الحجة لا تكفى إلا إذا كانت النفوس على فطرتها ، ولم تعبث بها مطامع وأغراض ، وسبحان من تنزه عن الخطأ والغرض واختص بالعلم وهو الواحد القهار .

وقد استمر الجدل بينهما فى شأن الخلافة حتى كان التحكيم ، فلما كان انشقت الوحدة فى جنود على رضى الله عنه ، وأصبح بأسهم بينهم شديداً ، وانتقلت المناظرة إلى جواز التحكيم ، ثم أخذت المجادلة دوراً آخر فى شأن

مرتكب الكبيرة ، وصار الخوارج الذين لم يجوزوا التحكيم بعد أن نادوا به ينتقلون من فكرة مبتدعة إلى أخرى ، لا يقيدون أنفسهم بفكرة أو نظر على ما سنبين أمرهم عند الكلام عليهم إن شاء الله تعالى .

الجدل في أصول الدين في عصر الخلفاء الراشدين :

كان المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان يشتقون عقيدتهم من القرآن الكريم ، ويعرفون ما يليق بذاته تعالى ، وما ينزه عنه جل وعلا من آياته تعالت كلماته ، ولذا لم يكن بينهم جدل في شأن من شئون العقائد ، بهذا جاءت الأخبار ، وتواردت الآثار . قال المقريزي في خططه : اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً ﷺ ، رسولا إلى الناس جميعاً ، وصفه لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه ﷺ ، الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى ، فلم يسأله ﷺ ، أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك ، كما كانوا يسألونه ﷺ ، عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه وتعالى أمر ونهي ، وكما سألوه ﷺ ، عن أحوال القيامة والجنة والنار ؛ إذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ ؛ في أحكام الحلال والحرام ، وفي الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث معاجمها ، ومسانيدها وجوامعها . ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي الشريف ، ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد الصحابة رضي الله عنهم مع اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله ﷺ ، عن معنى شيء مما وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام في الصفات ، نعم ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة ، والحياة والإرادة

والسمع والبصر ، والكلام والجلال والإكرام ، والجود والإنعام ، والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقاً واحداً .

والحقيقة أن تلك الأحوال التى ذكرها كانت خاصة بالمؤمنين الصادقى الإيمان الذين أسلموا وجوههم لله تعالى ، أما غيرهم فقد كان منهم أسئلة كثيرة الغرض منها تعجيز النبى ﷺ ، وقد حكى الله حالهم بقوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ؛ وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

ويظهر أن المسألة التى كانت أحياناً تثير بعض مناقشات فى عصر النبى ﷺ ، مسألة القدر ، وهى المسألة التى شغلت أذهان أصحاب الديانات القديمة وسرت إلى المشركين ، حتى كانوا أحياناً يحتجون بها ، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم بعض ذلك ، فقال تعالى حاكياً عنهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء » . وحكى قول طائفة أخرى ، فقال سبحانه : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » : وقال تعالى مبيناً حال المشركين : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم ، فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون » .

ويقول الألوسى فى تفسير هذه الآية : لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح إذ لم يعتقدوا قبح الله أفعالهم ، وهى أفعى لهم ، بل هم كما نطقت به الآيات يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأنهم يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى ، وأن التحريم إنما كان من الله عز وجل فما مرادهم بذلك إلا الاحتجاج على أن ماارتكبوه حق ومشروع ومرضى عند الله ، بناء على أن المشيئة والإرادة تساوق الأمر وتستلزم الرضا كما زعمت المعتزلة فيكون حاصل كلامهم إن ما نرتكبه من الشرك والتحريم وغيرهما ، تعلقت به مشيئة الله تعالى وإرادته ، وكل ما تعلقت به مشيئته وإرادته ، فهو مشروع ومرضى عنده .

وترى من ذلك أن أولئك المشركين ، إنما يثيرون مسألة القــدر ، ويحتجون بها على النبي ﷺ .

وقد كان يظهر فى عصر النبي ﷺ مثارات أخرى غير القدر ، يثيرها أرباب الشكوك من المنافقين ، ومن تأثروا بتعاليم قديمة . قال الشهرستانى : واعتبر حال طائفة جادلوا فى ذات الله ، تفكراً فى جلاله ، وتصرفاً فى أفعاله ، حتى منعهم وخوفهم بقوله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال » . فهذا ما كان فى زمانه عليه الصلاة والسلام ، وهو على شوكته ، وقوته وصحة بدنه ، والمنافقون يخادعون فيظهرون الإسلام ، ويبطنون النفاق ، وإنما يظهر نفاقهم فى كل وقت بالاعتراض على حركاته وسكناته : فصارت الاعتراضات كالبذور ، وظهرت منها الشبهات كالزرع .

غير أن أقوى المسائل ظهوراً فى زمن النبي ﷺ القدر ، وقد نهى النبي ﷺ عن الخوض فيه ، والإمساك عن ذكره مع وجوب الإيمان به ، فقد ورد فى حديث سؤال جبريل للنبي ﷺ أن جبريل عليه السلام قال فأخبرنى عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » :

وجاء فى المنية والأمل عن عبد الله بن عمر قال : « حدثنى أبي عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ ، يقول : مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم ، فكما لاتستطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لاتستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب ؛ كذلك لا يحملكم علم الله عليها »

والإيمان بالقدر نوع من الإذعان لله ، والإقرار بإحاطة علمه بكل شيء وتقديره فى الأزل كل ما هو كائن على مقتضى الحكمة ، ولذا حث النبي ﷺ ، على الإيمان به . وأما النهى عن الخوض ، فلأن الخوض مضلة الأفهام ، ومزلة الأقدام ، وحيرة العقول فى مضطرب فسيح من المذاهب

والآراء ، وذلك يدفع إلى الفرقة والانقسام ، فى غير نفع وجداء ، ولأن إثارة الجدل إثارته فى أمر ، ليس فى سلطان المجادل الإقناع فيه ، وليس بيد أحد من الدلائل العقلية ما يحسم الخلاف ويحمى الألفة من أن تتوزعها عوامل الانقسام ؛ لهذا وذاك نهى النبى ﷺ ، عن الخوض فى القدر ، وأمر المسلمين بالإمساك ؛ ويكفى النقل دليلا ما دام قد ثبت صدقه من غير ريب ونسبته إلى الله سبحانه من غير امتراء .

ولما انتقل النبى ﷺ ، واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم وأصحاب الديانات القديمة كالنصارى واليهود ، وفيهم من يثبت القدر ومن ينفيه ، ابتدأت المناقشة فى القدر تأخذ شكلا لا يلتئم مع ما أرشد إليه النبى ﷺ .

يروى أن عمر أتى بسارق فقال : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله على ، فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطاً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله ؟

فترى من هذا أن ذلك الرجل زعم أن القدر قد يبرر الجريمة ، لأنها مكتوبة ، ولذلك ساقه عذراً . وقد زعم بعض الناس أن الاعتقاد بالقدر يوجب عدم الحذر ، فقيل لعمر رضى الله عنه عندما امتنع عن دخول مدينة بها طاعون : أفراراً من قدر الله ؟ قال عمر : نفر من قدر الله إلى قدر الله . فكأن عمر رضى الله عنه يبين له أن قدر الله محيط بالإنسان فى كل الأحوال ، وأنه لا يمنع الأخذ بالأسباب ، وأن ذات الأسباب مقدورة فيجب علينا الأخذ بها ، والسير فى طريقها إقامة للتكاليف وتحملا لتبعات الأشياء .

وقد زعم بعض الذين اشتركوا فى قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه أنهم ما قتلوه إنما قتله الله ، بل حين حصبوه قال بعضهم له: الله هو الذى يرميك. فقال عثمان رضى الله عنه : كذبتم ، لو رمانى الله ما أخطأنى . وما كانت كل هذه الظنون ، وتلك الشبهات إلا بعض ما زرعه اليهود والنصارى والمجوس فى نفوس المسلمين . ومسألة القدر كانت من المسائل التى ثارت حولها عجاجة

البحث ، واضطربت فيها العقول ، وفى النفس شهوة الاطلاع على كل مجهول ، وتعرف كل مبهم ، فكان بعض الناس يجد فى المناقشة فى القدر إرضاء لنهمة العقل ، وإشباعاً لحاجته ، فخاضوا فى حديثه ، وبعض الذين ليس للدين فى نفوسهم حريجة ، قد وجدوا فى حديث القـــدر اعتذاراً عن مقابحهم ، وتبريراً لمفاسدهم ، فهم ساروا فيما يشبه الإباحية وإسقاط التكليف كما فعل بعض المجوس ، وهؤلاء كانوا ممن دخلوا فى الإسلام حديثاً ، وليسوا ممن استقرت فى نفوسهم عقيدته .

وقد كان حديث القدر يشتد ، والمناقشة تحتد ، كلما اتسع نطاق الفتن ، وكلما عبثت الأهواء بالقلوب ، ولذا كان الخوض فيه فى عهد على أشـــد وأحد ، جاء فى نهج البلاغة وشرحه لابن أبى الحديد : قام شيخ إلى على عليه السلام فقال : أخبرنا عن مسـيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره . فقال : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما وطئنا موطئاً ، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره . فقال الشيـخ : فعند الله أحتسب عناى ، ما أرى لى من الأجر شيئاً ، فقال : مه أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم فى مسيركم ، وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ، ولا مضطرين . فقال الشيـخ : وكيف والقضاء والقدر ساقانا . فقال : ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حتما ، لوكان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عباد الأوثان ، وجنـود الشيطان ، وشهود الزور ، أهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هـــذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع كارهاً ؛ ولم يرسـل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السموات وما بينهما باطلا : « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » فقال الشيـخ : فما القضاء والقـدر اللذان ما سرنا إلا بهما ؟ فقال : هو الأمر من الله والحكم ، ثم تلا قوله

سبحانه وتعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » فنهض الشيخ مسروراً ، وهو يقول :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا جزاك ربك عنا فيه إحساناً

وقد استمر الكلام فى القدر يكثر وينمى ، ويزيد وينتشر ، حتى نشأت الفرق الإسلامية كما سنبين فى العصر الأموى .

هذا هو القدر والجدل فيه فى عصر النبى ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين .

وقد جد فى عصر على رضى الله عنه الجدل فى مسألة أخرى تتعلق بأصول الدين ، وهى مسألة مرتكب الكبيرة ، فإن البحث فى هذه المسألة أثاره الخوارج بعد التحكيم ، إذ حكموا بكفر من قال بالتحكيم ، وكفروا علياً ومن معه لتحكيمهم . وقد جر هذا إلى المناقشة فى شأن مرتكب الكبيرة ، وأخذ الجدل فيها ينمو ويزيد ، حتى اختلفت العلماء فيها اختلافا طويلا ، وكانت من عوامل افتراق المسلمين ، بل يعدها بعض العلماء رأس مسائل المعتزلة التى عنوا بها ، حتى نحلتهم اسمهم ، كما سنبين فى نشأة المعتزلة فى العصر الأموى إن شاء الله تعالى .

وهناك مسائل أخرى تتعلق بأصول الاعتقاد أثارها السبئية . وأخذوا يبثونها فى عهد على كرم الله وجهه ، بل فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه . وهى مسألة الرجعة . وخلاصتها : اعتقاد أن النبى ﷺ سيرجع ، ونشروا بين بعض المسلمين عقيدة تناسخ الأرواح ، وغالوا حتى ادعوا حلول الإله ، وقد كان من زعمهم السياسى الذى خلطوه بعقيدة دينية أن علياً كان نبياً ، ولكن جبريل أخطأ وجاء إلى محمد ﷺ ، ثم غالوا أكثر من ذلك ، فادعوا أن علياً إله ، وقد قتل على ممن قال هذا القول عدداً كبيراً ، ولما قتل على زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً وإنما كان شيطاناً تصور للناس فى صورة على ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم ؛ وزعم بعض السبئية أن علياً فى السحاب وأن الرعد صوته ، وكان عبد الله بن

سبأ يقول : لو جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته ، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الدنيا بحذافيرها ؛ وغير ذلك من الترهات والأباطيل ..

سقنا هذا كله لتعرف كيف عششت الأوهام والخرافات فى الرءوس ، وكيف وجدت مع وضوح بطلانها وظهور فسادها ، وبعدها عن كل معقول أقواماً يبشرون بها ويتقبلونها بقبول حسن ، وهذه أمور تدل على أن هؤلاء قوم قريبو عهد بعقائد فاسدة بينها وبين ذلك النوع من الأوهام ملاءمة ومجانسة ، أو قوم ينشرون بين الدهماء أمثال تلك المفاسد ليفسدوا عليهم دينهم ويمزقوا جمعهم ، ويجعلوا أمورهم إلى خبال ، وقوتهم إلى اضمحلال ، وملكهم إلى زوال ، وسترى أن الغرس قد آتى أكله بعد حين، إذ تناجرت الآراء ، وتنازعت المذاهب فى العصر الأموى على نحو من التنازع لم يعد فى أمم فتية تحمل معها ذخيرة من إيمان وتقى ، ورسالة خالدة إلى الكون الإنسانى ، ولولا رحمة من ربك ، لقضى على الأمة من يوم أن ظهرت قوتها ، ولكن الله أراد لها الوجود ، حتى تتم رسالتها ، فكان ما أراد وهو العزيز الحكيم .

الجدل فى الفروع :

كان الناس فى زمن النبى ﷺ ، إذا التبس عليهم حكم أمر من الأمور سألوا النبى ﷺ ، فيجيبهم عليه الصلاة والسلام بما أوحى الله به . وكثيراً ما كان ينزل فى موضوع السؤال قرآن كريم ، فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى وحدثت أحداث ، وجدت فى شئون الاجتماع شئون ، وعرضت أمور ، وتعقدت الأحوال الاجتماعية كانوا يرجعون فى تعرف أحكامها إلى كتاب الله سبحانه ، فإن لم يجدوا فيه نصاً يستنبطون منه ما يريدون اتجهوا إلى المأثور عن رسول الله ﷺ ، من قول أو فعل أو تقرير ، فإن لم يجدوا فى ذلك أثراً ، اجتهدوا آراءهم .

وقد عرف الرأى ابن القيم فقال : خصوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل ، وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات (١) . فإذا

---

(١) أعلام الموقعين ، الجزء الأول ، صفحة ٥٥ .

استقر رأيهم على أمر من الأمور نفذوه . وكان طبيعياً أن يختلفوا عند بحث الأمور على النحو السابق ، فإن الأنظار تختلف ، ووجوه الصواب والباطل تتشابه :

مما يروى فى ذلك أن جدة جاءت إلى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه تسأله ميراثها فى تركة وزعها . فقال ما لك فى كتاب الله من شىء وما علمنا لك فى سنة رسول الله ﷺ شيئاً ، فارجعى ، حتى أسأل الناس . فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس ، فقال: هل معك غيرك ، فقام محمد بن مسلمة ، فقال مثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر ، ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه تسأله ميراثها ، فقال ما لك فى كتاب الله من شىء ، ولكن هو ذلك السدس ، فإن اجتمعتما فيه فهو بينكما ، وأيكما خلت به فهو لها .

وكانت اختلافات الصحابة رضى الله عنهم منشؤها واحد مما يأتى :

١ — اختلافهم فى فهم القرآن الكريم :

(أ) لاحتمال اللفظ أكثر من معنيين كاختلافهم فى المراد من القرء فى قوله تعالى : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» . فقد فهم ابن مسعود وعمر رضى الله عنهما ، أن القرء الحيضة ، وفهم زيد بن ثابت أنه الطهر .

(ب) أو لتعارض ظواهر النصوص كاختلافهم فى عدة الوفاة للحامل ، فقد قال على رضى الله عنه تعتد بأبعد الأجلين عملا بآية البقرة وآية الطلاق : وقال عمرو بن مسعود تعتد بوضع الحمل عملا بآية الطلاق (١) .

٢ — اختلافهم بسبب معرفة بعضهم لحديث لم يروه الآخرون .

٣ — اختلافهم بسبب الرأى ، فإنه باب واسع ، ولكل إنسان نظره ، واتجاه فكره ، وقد يرى ما لا يرى الآخرون ، ويظهر أن أكثر الخلاف

---

(١) قال تعالى فى سورة البقرة : «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا» . وقال تعالى فى سورة الطلاق : «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» . فالنص الأول يشمل الحوامل ، والثانى يشمل عده الوفاة .

كان ذلك منشأه ؛ وقد أثر كثير من المسائل كانت تختلف فيها أنظارهم . ومن ذلك اختلافهم فى توزيع التركة عند اجتماع الجد مع الإخوة ، فقد كان من رأى أبى بكر أن الجد أولى بالتعصيب من الأخ ، وأما عمر فقد توقف حتى سأل الصحابة ، فقال زيد بن ثابت : يا أمير المؤمنين شجرة نبتت فانشعب منها غصن ، فانشعب من الغصن غصنان ، فما جعل الغصن الأول أولى من الغصن الثانى . فكان يجعله أخاً حتى يصير ثالث ثلاثة ، وكان على يجعله أخاً حتى يصير سادس ستة (١) .

وقد كان جدال الصحابة فى الفروع رائده الاخلاص وطلب الحقيقة ، ولذا لم يكن بينهم تناحر فيها ولا تنازع ولا تعصب ، بل طلب للحق أياً كان و ، بحث عن الصواب من أية ناحية أخذ ، ومن أية جهة استبان ، قطبهم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ومدارهم إصلاح الأمة ، فكانوا حقاً آخذين بقوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » . بل إن ذلك الاختلاف كان فيه شحذ للأذهان ، واستخراج للأحكام من القرآن الكريم ، واستنباط قانون شرعى من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وقد روى الشاطبى فى كتاب الاعتصام أن ذلك النوع من الاختلاف رحمة ، فقال : روى عن القاسم بن محمد قال : لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى العمل ، لا يعمل العامل بعلم رجل منهم ، إلا لأنه رأى أنه فى سعة . وعن ضمرة بن رجاء قال اجتمع عمر بن عبد العزيز والقاسم ابن محمد فجعلا يتذاكران الحديث . قال فجعل عمر يجىء بالشىء يخالف فيه القاسم . وجعل القاسم يشق ذلك عليه حتى تبين فيه . فقال له عمر : لا تفعل ، فما يسرنى باختلافهم حمر النعم . وروى ابن وهب عن القاسم أيضاً قال : لقد أعجبنى قول عمر بن عبد العزيز . ما أحب أن أصحاب محمد ﷺ لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحداً لكان الناس فى ضيق ،

(١) ملخص من أعلام الموقعين لابن القيم ، الجزء الأول ، صفحة ١٨٤ .

وإنهم أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان سنة ، ومعنى هـذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه ، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون فى ضيق ، لأن مجال الاجتهاد ، ومجالات الظنون لا تتفق عادة ، فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم مكلفين باتباع خلافهم ؛ وهو نوع من تكليف ما لا يطاق ، وذلك من أعظم الضيق .

فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعى فيهم ، فكان فتح باب للأمة للدخول فى هذه الرحمة أ هـ(١) :

من هذا نرى أن الباحثين لا يرون فى الخلاف فى الفروع إلا ثمرات ناضجة لما ابتعثه القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة فى نفوس الناس من البحث العقلى وتدبير شئونهم بالشورى ومبادلة الرأى ، مستضيئين بسنة النبى ﷺ ، ومستظلين بأحكام القرآن الكريم ، التفصيلية والإجمالية لا يعدونها ولا يتجاوزون هدايتها . وقد دفعهم إلى البحث الدينى الحر كثرة الحوادث . وتشعب الشئون الاجتماعية ومحاولتهم تعرف أحكامها من الدين الإسلامى ، وكان فى ذلك كل الخير والهداية ، وسنوا لمن بعدهم بعملهم سنناً قويمة وطريقاً مستقيماً .

* * *

(١) الاعتصام ، جـ٣ ، ص ١١ .

الجدل في العصر الأموي

تمهيــد :

لم تنته الفتن بمقتل الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بل كان قتله ابتداء فتنة أشد خطراً ، وأقوى في حياة المسلمين أثراً ، إذ ابتدأت الخلافة تصير ملكاً عضوضاً ، وقد كانت من قبل تقوم على الشورى ، واختيار أمثل المسلمين ، وأقواهم في دين الله ، وأشدهم في ذات الله . وكما أن التاريخ لم يرو لنا أن ملكاً أعطى شعبه حقه اختياراً ، كذلك لم يرو التاريخ أن شعباً ذاق حلاوة الشورى ، يسلمها من غير اضطرار ، بل من غير أن تقوم زعازع من الفتن ، وثورات تأكل الأخضر واليابس ، وإذا كان ذلك الشعب لم يتعود الخضوع للسلطان من غير وازع من دين ، فالحال أشد ، والفتنة أشد ، والخطر داهم ، والبلية عامة ، وذلك ما كان في البلاد الإسلامية ، فإن العرب لم يتعودوا الخضوع للسلطان ، إلا بعد أن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، ولم يخضعوا إلا لقوم فنوا في الله ، واحتسبوا أنفسهم لحماية دينه ، وحفظ الحق ، والدفاع عن حياضه ، فلما تقدم الأمويون لتسنم عرش هذه الأمة من غير اختيارها ولم تكن لهم سابقة في الإسلام لتسنم حكمهم ، ولا قرابة قريبة من النبي ﷺ تشفع لهم ، ولما كان ذلك كذلك لم يسلم الناس لهم الأمر طوعاً ، ولم يعطوهم الرياسة اختياراً بل قاوموهم وناضلوهم ، وتألبوا عليهم من كل ناحية .

وزاد الأمور تعقيداً ، والبلية حدة ، أن الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه ، رأوا في قيام ملك الأمويين ، وهم خصومهم في الحروب الإسلامية ، إعادة لسلطان الجاهلية على الإسلام ، ثم إن الأمويين

لم يستدنوا قلوب الأنصار ، بل أعادوا العداوة جذعاً ، وفرضوا فيهم خصوماً يناوئونهم ، ويلاحونهم ، وتحت ظل تلك الحال التي كانت تغرى بالعداوة والبغضاء نشبت الحرب بين الأمويين وأبناء الأنصار ، وكانت موقعة الحرة التي أبيحت فيها مدينة رسول الله ﷺ للجند يعيثون فيها فساداً ، من غير رادع من دين ، ولا مراعاة لحرمة ، ولا حفاظ لمروءة ونخوة ، فكان ذلك ضغثا على إبالة ، وإيقاداً لنار الفتنة ، وإلهاباً للثورة .

وهناك أبناء على رضى الله عنه يسامون الخسف ، ويرادون على الذل وهم الأقرباء الأقربون للنبي الكريم ﷺ : والعترة الطاهرة ، وذرية النبي ﷺ ، في عروقهم يجرى دمه الشريف ، وفى نفوسهم تسرى روحه الطاهرة ، قتل الحسين بن على سيد شباب أهل الجنة كما ورد فى الأثر قتلة فاجرة ، وذهب دمه عبيطاً من غير أن تراعى حرمة قرابة أو دين ، وأخذت بنات على سبايا إلى يزيد ، وهن بنات ابنة النبي ﷺ ، وذريته ، ونسله ، وضنضنه وفروعه ، ولم يسلم على فى قبره من أذاهم ، بل جعل شيخهم معاوية لعن على على المنابر أمراً محتوماً ، وفرضاً واجب الأداء ، وقد نهاه بعض المسلمين الصادقى الإيمان فلم ينته ، وأرسلت إليه أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، إذ بلغها ذلك كتاباً ، تقول فيه : إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون على بن أبي طالب ومن أحبه ، وأشهد أن الله أحبه ورسوله . فلم يلتفت معاوية لكلامها ، وصار اللعن من بعده سنة متبعة ، حتى أبطلها عادل الأمويين عمر بن عبد العزيز .

وهناك بجوار هؤلاء وأولئك الموالى ، فإنا وإن مدحنا الأمويين لنزعتهم العربية وإحيائهم لتراث العرب ومجدهم ، فلن نحمد فيهم ظلمهم للموالى ، وهضمهم حقوقهم ، فإن الناس جميعاً سواء فى الإسلام ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وقد أوقع الأمويون بالموالى ظلماً شديداً حتى لقد حرموهم حقوقهم فى عطاء الجيش إن غزوا ، وخالفوا بذلك قسمة الله التى شرعها فى الغنائم . ولذلك أسهم الموالى فى الانتقاض على الأمويين ،

ولم يقروا لهم بحكم طائعين ، وإن أدل شيء على أن الظلم الواقع عليهم هو الذي دفعهم إلى الانتقاض أن المختار الثقفي لما قام بثورته على الملك الأموي كان أكثر أنصاره من الموالي ، لأنه جعل لهم حقاً في الغنائم كحق العرب ؛ ولم يحفل بنقمة بعض العرب ذلك عليه . قال الطبري في تاريخه : لم يكن فيما أحدث المختار شيء هو أعظم من أن يروه يمنح الموالي نصيبه من الفيء . وطالما كانوا يقولون: عمدت إلى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك ؛ حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا .

لما سبق كله كانت البلاد الإسلامية تموج بالفتن ، وتموج بالشر ، وإن سكنت في الظاهر فسكون النار المتأججة تحت الرماد .

وفي وسط ذلك المضطرب السياسي وجد مضطرب فكري ، لا يقل عنفاً عن هذا المضطرب ، بل كان كلاهما يتغذى بالآخر ، ويستمد منه قوة وحياة ، وكثير من المسائل التي كانت موضع تنازع واختلاف انبعثت من السياسة واضطراب الناس في أمرها ، فالفرق التي ابتدأت سياسية ثم خلطت بالسياسة غيرها من الأمور الدينية نمت وترعرت في ظل ذلك الاضطراب ، فالخوارج والشيعة والمرجئة وغيرها نما غرسهم ، واستغلظ سوق نبتهم في ظل التنافس السياسي ، والتقاتل على السلطان . وقد وجدت عوامل أخرى زادت الحركة الفكرية قوة ونماء وحدة أعظمها :

(ا) الاحتكاك بين حضارات مختلفة ، ففي الأصقاع الإسلامية التقت حضارة فارس بحضارة الرومان ، وحضارة السريان وفلسفة اليونان ، وأظل الجميع الإسلام ، فنتج من ذلك المزج بين العناصر المتنافرة اضطراب فكري وتناحر مذهبي ، وكان أشد البقاع الإسلامية تصويراً لذلك الاختلاط العراق ولذا ظهرت فيه النحل المختلفة ، والمذاهب الدينية المتضاربة ، وقد قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة في علة اعتناق الروافض لمذهب الحلول والمغالاة في علي رضي الله عنه : ومما ينقدح لي في الفرق بين هؤلاء القوم

الروافض) وبين العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ وآله ، أن هؤلاء من العراق ، وساكني الكوفة ؛ وطينة العراق ، ما زالت تنبت أرباب الأهواء ، وأصحاب النحل العجيبة ، والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل مانى ، وديصان ، ومزدك ، وغيرهم . وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان .

ونرى من هذا أن العراق كان مزدحم الآراء فى المعتقدات من قديم ، ذلك لأنه كان يسكنه عدة طوائف من نحل مختلفة من قديم ، والمذاهب التى نشأت يبدو فيها اختلاط العقائد المتضاربة ، فالديصانية والمانوية ليست إلا مزجاً لثنوية المجوس بالمبادىء النصرانية ، وهكذا ترى كثيراً مما ظهر من النحل المختلفة فيه استنباط عقيدة من مجموع عقيدتين أو عدة عقائد .

(ب) والموالى الذين حرموا السيادة والسلطان انصرفوا إلى دراسة العقائد وتعرف أسرارها ، وسبر أغوارها ، والوصول إلى أعماقها ، ولذلك كان الجيل الذى ولى عصر الصحابة فى فقه الدين ، والعكوف على دراسة الحديث وروايته من الموالى ، فسعيد بن جبير ، والشعبى ، وابن سيرين ، والحسن البصرى كل هؤلاء من الموالى ، وهم من عليه التابعين ، وأصحاب القدم الثابتة فى فهم الدين ، والوصول إلى أبعد أغواره .

غير أنا إن رأينا فى هؤلاء التابعين من الموالى إخلاصاً مبيناً لذلك الدين الكريم ، وإدراكاً للبابه ، وفهماً لمراميه ، فمن الموالى من لم يفهم الدين على حقيقته ولم يدركه كما انبعث من ينبوعه . وذلك لنحلتهم القديمة التى استمكنت فى نفوسهم ففهموا الدين على ضوئها ، وأدركوه على صورتها ، فالتبس عليهم أمره ، ولأن منهم من كان يدخل على المسلمين مبادىء إلحاد نكاية بالإسلام ومقتاً لأهله ، وإفساداً لأمره ، وقد نقلنا آنفاً كلام ابن حزم فى هذا المقام فارجع إليه .

(ج) الفلسفة :

ابتــدأت الآراء الفلسفية تنتشر بين المسلمين باختلاطهم بالفرس واليونان والرومان ، وكل هؤلاء كان للعلوم والفلسفة فى بلادهم القدح المعلى ، وكان بالعراق مدارس فلسفية كما كان بفارس قبل الإسلام مثلها ، وقد تعلم فيها من العرب الحارث بن كلدة ، وابنه النضر .

ولما جاء الإسلام فى تلك الأصقاع وجد من سكانها من يجيدونها ومن يعلم المسلمين مبادئها ، وكان للسريان فى ذلك العمل الظاهر ، والأثر الواضح ، وقد كان ذلك فى العصر الأموى ، وإن لم يكن بمقدار ما كان فى العصر العباسى ، فيروى ابن خلكان : أن خالد بن يزيد بن معاوية وكان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيراً بهذين العلمين ، متقنا لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته . وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الرومى وله فيها ثلاث رسائل ، تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانس المذكور ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التى أشار إليها .

وقد ترعرع وسط تناحر سياسى شديد ، كثير العنف قوى الصخب .

من هذا تعرف مقدار التناحر الفكرى الذى كان بين المسلمين فى ذلك العصر ، وبينما كان العرب يعيشون فى مشتجر السيوف ، وفى ميادين القتال ، كان الموالى منصرفين إلى دراسات دينية عميقة ، كانت شديدة الأثر فى نفوس المسلمين ، وكان من آثارها الفرق الإسلامية التى شغل كثير منها أفكار المسلمين فى ذلك العصر ، وبعضها قد غرست أصوله فيه ، ولم تثمر ثمراتها إلا فى العصر الذى وليه ، ولأن جدل ذلك العصر كان أكثره بين الفرق المختلفة وجب أن نذكر كلمة عن أظهر هذه الفرق ، وأظهر ماتعتنق من عقائد وآراء ، وجملة كل فرقة ، ثم نتكلم بعدئذ فى الجدل فى الفروع .

الفرق الإسلامية

شغلت الفرق الفكر الإسلامى فى ذلك العصر ، واستولت عليه استيلاء تاماً ، وقد ابتدأت سياسية تنزع منزعاً سياسياً ، وإن كانت طبيعة السياسة الإسلامية ذات صلة بالدين ، وهو قوامها ولبها ، لذلك نقول إن الفرق السياسية التى نشأت فى ذلك العصر كانت كل مبادئها تحوم حول الدين ، فتقرب منه حيناً ، وتبتعد عنه أحياناً ، ثم إن تلك الفرق خلقت بتلك البحوث الدينية فى سياسة الناس ، بحوثاً أخرى تتعلق بأصول الإيمان والاعتقاد . فكان لها رأى قائم بذاته ، مستقل فى الاعتقاد وأصول الإيمان ، بل فى الأحكام العملية أحياناً ، وإن كانت العوامل فى تكوينها السياسة ومايتعلق بها .

وقد قام على أثر تلك الفرق السياسية التى خلطت ببحثها فى السياسة بحوثاً فى العقائد فرق أخرى لا تبحث إلا فى الاعتقاد ، وكان قوام بحثها أحياناً مسائل دينية تتعلق بأصل الإيمان وأحياناً كان قوام البحث فى القدر ، وقدرة الإنسان بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى ، وغير ذلك .

ولنبدأ بالكلام فى الفرق السياسية وجدلها .

الفرق السياسية

الشيعة

الشيعة أقدم الفرق الإسلامية ، وقد علمت أنهم ظهروا بمذهبهم السياسى فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ، ونما وترعرع فى عهد على رضى الله عنه ، إذ كان كلما اختلط رضى الله عنه بالناس ، ازدادوا إعجابا بمواهبه وقوة دينه وعلمه ، فاستغل الدعاة ذلك الإعجاب ، وأخذوا ينشرون نحلتهم بين الناس . ولما جاء العصر الأموى ووقعت المظالم على العلويين ، واشتد نزول أذى الأمويين بهم ، ثارت دفائن المحبة لهم والشفقة عليهم ، ورأى الناس فى على وأولاده شهداء هذا الظلم ، فاتسع نطاق المذهب الشيعى ، وكثرة أنصاره .

وقوام هذا المذهب :

أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبي إغفالها ، وتفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً عن الكبائر والصغائر [1] .

وأن على بن أبى طالب كان هو الخليفة المختار من النبي صلى الله عليه وسلم وأنه أفضل الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم ، ويظهر أن الشيعة ليسوا وحدهم الذين كانوا يرون تفضيل على رضى الله عنه على سائر الصحابة ، بل إن من بعض السابقين من الصحابة من كان يرى ذلك ، ومنهم عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وأبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبد الله ، وأبى بن كعب ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبو أيوب ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب ، وبنوه وبنو هاشم كافة ، وكان الزبير من القائلين به فى بدء الأمر ، ثم رجع ، وكان من بنى أمية قوم يقولون بذلك ، منهم خالد بن سعيد بن العاص ، ومنهم عمر ابن عبد العزيز (١) .

ولم يكن الشيعة على درجة واحدة : بل كان منهم الغالون فى تقدير على وبنيه ، ومنهم المعتدلون المقتصدون . وقد اقتصر المعتدلون فى تفضيله على بقية الصحابة من غير تكفير لأحد . وقد حكى ابن أبى الحديد نحلة المعتدلين ، وهو منهم . فقال : كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز فى هذه المسألة ، لأنهم سلكوا طريقة مقتصدة ؛ قالوا : هو أفضل الخلق فى الآخرة وأعلاهم منزلة فى الجنة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه ، فإنه عدو الله سبحانه وتعالى ، وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين إلا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توليه وحبه . فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله ، فلو أنكر إمامتهم وغضب عليهم ، وسخط فعلهم ، فضلا عن أن يشهر عليهم السيف ، أو يدعو إلى نفسه ، لقلنا إنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله قال له : حربك حربى ، وسلمك سلمى ، وأنه قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وقال له:لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق . ولكنا رأيناه رضى إمامتهم ، وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وأنكحهم ، وأكل فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية ، برئنا منه ، ولما لعنه لعناه ، ولما حكم بضلال أهل الشام ، ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم . والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم وآله

---

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

إلا رتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم به عليه الصلاة والسلام (١) .

أما الغالون المتطرفون من الشيعة ، فقد رفعوا علياً إلى رتبة النبوة ، حتى لقد زعم بعضهم أن النبوة كانت له ، وأن جبريل أخطأ ، وذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم (٢) بل إن كثيراً منهم رفعوا علياً إلى مرتبة الإله وقالوا له هو أنت (الله) . ومنهم من زعم أن الإله حل فى الأئمة على وبنيه وهو قول يوافق مذهب النصارى فى حلول الإله فى عيسى ، ومنهم من ذهب إلى أن كل روح إمام حلت فيه الألوهية تنتقل إلى الإمام الذى يليه .

وقد كان أكثر الغلاة على أن آخر إمام يفرضونه لا يموت ، بل هو حى يرزق باق حتى يرجع فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما فطائفة قالت إن على بن أبى طالب حى لم يمت وهم السبئية ، وطائفة قالت إن محمداً بن الحنفية حى برضوى عنده عسل وماء ، وطائفة قالت إن يحيى ابن زيد لم يصلب ولم يقتل بل هو حى يرزق ، والإثنا عشرية : يزعمون إن الثانى عشر من أئمتهم هو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة ، وتغيب حين اعتقل مع أمه ، وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا ... وهم ينتظرونه لذلك ، ويقفون كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية .. وبعض هؤلاء الغلاة يقول إنه الإمام الذى مات وسيرجع إلى حياته الدنيا ، ويستشهدون لذلك بما وقع فى القرآن

---

(١) شرح نهج البلاغة .

(٢) وهم الغرابية وسموا بذلك لأنهم قالوا إنه يشبه النبى صلى الله عليه وسلم كما يشبه الغراب الغراب .

الكريم من قصة أهل الكهف ، والذى مر على قرية ، وقتيل بنى إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى أمروا بذبحها (١) .

وبعض هؤلاء خلطوا بهذه الآراء الفاسدة آراء اجتماعية خطرة مفسدة ، للنسل ، هادمة للأديان ، فاستحلوا الخمر والميتة ونكاح المحارم ، وأنكروا القيامة وتأولوا قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » . وزعموا أن ما فى القرآن الكريم من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كناية عن قوم يلزم بغضهم ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ، وكل ما فى القرآن الكريم من الفرائض التى أمر الله سبحانه بها كناية عمن تلزم موالاتهم مثل على والحسن والحسين وأولادهم (٢) .

ومن ذلك نرى أن الشيعة مزيج من الآراء ، ومرتع لكثير من الأفكار ، ونحلة قد ضلت بها أوهام كثيرة ، وسيطرت عليها خواطر باطلة ، ومبادىء من ملل قديمة ، وقد أرادوا أن يلبسوها بلباس الإسلام . فضاقت عن أن تسعهم عقيدة الإسلام السامية النقية وهى عقيدة التوحيد .

وقد تساءل بعض العلماء الأوربيين عن أصل الشيعة ، وهى مبادىء لاشك دخيلة فى الإسلام ، فقد ذهب الأستاذ ولهوسن إلى أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية (٣) أكثر مما نبعت من الفارسية ، مستدلا بأن مؤسسها عبد الله ابن سبأ وهو يهودى ، ويميل الأستاذ دوزى إلى أن أصلها فارسى ، فالعرب تدين بالحرية ، والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه على بن أبى طالب ، فمن أخذ الخلافة منه كأبى بكر وعمر وعثمان والأمويين فقد اغتصبها من مستحقها ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتصرف .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى . والخطط للمقريزى .

(٣) قد تقدم أن هذا رأى الشعبى كما جاء فى العقد الفريد وقد بينا ذلك فى سبب اختلافات المسلمين .

وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذا النظر نفسه إلى على وذريته وقالوا إن طاعة الإمام أول واجب ، وأن طاعته طاعة الله (١) .

ويقول فان فلوتن:قد أثبت بالفعل أن من مذاهب الشيعة ماكان مباءة للعقائد الأسيوية القديمة كالبوذية والمانوية وغيرهما (٢) .

والحق الذى لا مرية فيه أن الشيعة كانت مستراداً لكثير من الديانات القديمة الآسيوية ففيها من المذاهب الهندية مبدأ التناسخ الذى يقول إن روح الإنسان تنتقل إلى إنسان غيره ، فقد طبق بعضهم ذلك المذهب على أئمتهم ، وقالوا إن روح الإمام تنتقل إلى الذى يليه ، وأخذوا من البرهمية القديمة والمسيحية مبدأ حلول الإله فى الإنسان ، وأخذوا من اليهودية شيئا كثيراً ، وقد حكينا لك مقالة الشعبى التى نقلها ابن عبد ربه فى العقد الفريد فارجع إليها ، وقال فى ذلك ابن حزم فى بيان أن عقيدة رجوع الأئمة مأخوذة من اليهودية : سار هؤلاء فى سبيل اليهود القائلين إن إلياس عليه السلام وفنحاس ابن العازار بن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم ، وسلك هذا السبيل بعض تركى الصوفية ، فزعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيان إلى الآن ، وادعى بعضهم أنه يلقى إلياس فى الفلوات ، والخضر فى المروج والرياض وأنه متى ذكر حضر على ذكره (٣) .

وهكذا نرى الشيعة كانت طلالكثير من أهواء وملل ونحل قديمة دخلت على المسلمين لإفساد الإسلام ، أو تحت تأثير التربية والإلف ، فدخلوا فى الإسلام ، ولم يستطيعوا نزع القديم .

هذه إلمامة موجزة بينت أحوال الشيعة إجمالا ، ونريد بعد ذلك أن نذكر

---

(١) فجر الإسلام للاستاذ الجليل أحمد أمين .

(٢) السيادة العربية .

(٣) الفصل جـ ٤ ص ١٨٠ .

بعض فرقهم المشهورة وتاريخ نشأتها ، لنكون على بينة من أدوار هذه الفرقة فنقول :

السبئية :

هم أتباع عبد الله بن سبأ وكان يهوديا من أهل الحيرة ، أظهر الإسلام وأمه أمة سوداء . ولذلك يقال له ابن السوداء ، وقد علمت أنه كان من أشد الدعاة ضد عثمان ، وقد تدرج فى نشر أفكاره ومفاسده بين المسلمين وأكثرها موضوعة على على رضى الله عنه .

أخذ ينشر أولا بين الناس أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصيا وأن علياً وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء ، ثم حكم بأن محمداً سيرجع إلى الحياة الدنيا ، وكان يقول عجبت لمن يقول برجعة عيسى ولايقول برجعة محمد ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : «إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . ثم تدرج من هذا إلى الحكم بألوهية على رضى الله عنه ، ولقد هم هذا بقتله إذ بلغه عنه ذلك . ولكن نهاه عبد الله بن عباس ، وقال له : إن قتلته اختلف عليك أصحابك ، وأنت عازم على العود لقتال أهل الشام ، فنفاه على إلى ساباط المدائن ، ولما قتل رضى الله عنه ، استغل ابن سبأ محبة الناس له كرم الله وجهه ، وأخذ ينشر حوله الأكاذيب التى تجود بها مخيلته إضلالا للناس وإفساداً ، فصار يذكر للناس : أن المقتول لم يكن عليا وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورته ، وأن عليا صعد إلى السماء ، كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام . وقال : كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواهما قتل عيسى كذلك كذبت الخوارج فى دعواها قتل على ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى ، كذلك القائلون بقتل على رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه على ؛ وقد صعد إلى السماء ، وأن الرعد صوته والبرق تبسمه ، ومن سمع من سبئيين صوت الرعد يقول السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وقد روى عمر بن شرحبيل أن ابن سبأ قيل له إن عليا قد قتل

فقال إن جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته ، لا يموت حتى ينزل من السماء ، ويملك الأرض بحذافيرها (١) .

الكيسانية :

هم أتباع المختار بن عبيد الثقفى ، وقد كان خارجيا ، ثم صار من شيعة على رضى الله عنه . وقد قدم الكوفة حين قدم إليها مسلم بن عقيل من قبل الحسين رضى الله عنه ، ليعلم حالها ، ويخبر ابن عمه بأمرها . وقد أحضر عبد الله بن زياد المختار ، وضربه ثم حبسه إلى أن قتل الحسين ، فشفع له زوج أخته عبد الله بن عمر ، فأطلق سراحه على أن يخرج من الكوفة فخرج إلى الحجاز ، وقد أثر عنه أنه قال فى أثناء مسيره : سأطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين ، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن على . فوربك لأقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا . ثم لحق بابن الزبير ، وبايعه على أن يوليه أعماله إذا ظهر ، وقاتل معه أهل الشام ؛ ثم رجع إلى الكوفة بعد موت يزيد ، وقال للناس : إن المهدى ابن الوصى بعثنى إليكم أمينا ووزيرا ، وأمرنى بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء . وزعم أنه جاء من قبل محمد بن الحنفية لأنه ولى دم الحسين رضى الله عنه ، ولأن محمداً رضى الله عنه ، كان ذا منزلة بين الناس امتلأت القلوب بمحبته ، إذ كان كثير العلم غزير المعرفة ، رواد الفكر ، مصيب النظر فى العواقب ، قد أخبره أبوه أمير المؤمنين على رضى الله عنه أخبار الملاحم . ولكن أعلن محمد بن الحنفية البراءة من المختار على الملأ من الأمة ، وعلى مشهد من العامة ، إذ بلغته أوهامه ، وأكاذيبه ، وعرف خبىء نياته . ومع تلك البراءة ، فقد تبع المختار هذا بعض الشيعة ، وأخذ هو يتكهن بينهم ، ويسجع سجعا يشبه سجع الكهان ، حتى روى أنه كان يقول : أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ومهند بتار .. حتى إذا أقمت عمود الدين ،

---

(١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى .

وزايلت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، لم يكبر علىّ زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

وقد أخذ المختار فى محاربة أعداء العلويين ، وأكثر من القتل الذريع فيهم ولم يعلم أن أحداً اشترك فى قتل الحسين إلا أسكن نأمته ، فحببه ذلك فى نفوس الشيعة . فالتفوا حوله ، وأحاطوا به ، وقاتلوا معه ، ولكن هزم فى قتال مصعب بن الزبير إذ انتصر عليه وقتله .

وعقيدة الكيسانية لا تقوم على ألوهية الأئمة كالسبئية الذين يعتقدون حلول الجزء الإلهى فى الإنسان كما بينا ، بل تقوم على أساس أن الإمام شخص مقدس ، يبذلون له الطاعة ، ويثقون بعلمه ثقة مطلقة ، ويعتقدون فيه العصمة عن الخطأ ، لأنه رمز للعلم الإلهى .

ويدينون كالسبئية برجعة الإمام ، وهو فى نظرهم بعد على والحسن والحسين محمد بن الحنفية ، ويقول بعضهم إنه مات ، وسيرجع ، وبعضهم وهم الأكثرون يعتقدون أنه لم يمت ، بل هو بجبل رضوى عنده عسل وماء ، وقد كان من هؤلاء كثير عزة إذ يقول :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى ... يقود الخيل يتبعه اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

ويعتقدون البداء ، وهو أن الله سبحانه وتعالى يغير ما يريد تبعا لتغير علمه ، وأنه يأمر بالشىء ثم يأمر بخلافه . وقد قال الشهرستانى : وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء ، وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على دعواه وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم .

ويعتقدون أيضا تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها فى جسد آخر .

وقد علمت أن هذه الفكرة مأخوذة من الفلسفة الهندية القديمة .

وكانوا يقولون : إن لكل شىء ظاهراً وباطناً ، ولكل شخص روحاً ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة ، والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار ، مجتمع فى الشخص الإنسانى ، وهو العلم الذى استأثر على عليه السلام به ابنه محمد بن الحنفية . وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقا (١) .

وترى من هذا الذى ذكرناه وهو بعض مخاريقهم أنهم جانفوا مبادىء الإسلام ، وبعدوا عن روحه ، ورفعوا الأئمة إلى مراتب النبيين ، وكأنهم اعتقدوا أن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ما انتهت بموته ، بل بقيت فى بيته من بعده .

الزيدية :

هذه الفرقة هى أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وهى لم تغل فى معتقداتها ، ولم يكفر الأكثرون منها أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولين ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله ، ولا إلى مرتبة النبيين ، وإمامها زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم ، خرج (١) على هشام ابن عبد الملك بالكوفة فقتل و صلب بكناسة الكوفة وقوام مذهبه وهو مذهب هذه الفرقة إلى أن عراها التغيير .

---

(١) ويقول المسعودى فى سبب خروجه :

كان زيد قد دخل على هشام بالرصافة ، فلما مثل بين يديه لم ير موضعا يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه . وقال: يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله . فقال هشام : اسكت لا أم لك ، أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة ، وأنت ابن أمة . قال: يا أمير المؤمنين إن لك جوابا ، إن أحببت أجبتك به ، وإن أحببت أسكت عنه . فقال : بل أجب . قال إن الأمهات لا يقعدون بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم إسماعيل =

أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالإسم ، وأوصاف الإمام التى قالوا إنه لابد من وجودها حتى يكون إماما يبايعه الناس وهى كونه فاطميا ورعا ، عالما ، سخيا ، يخرج داعيا الناس لنفسه ، وقد خالفه فى شرط الخروج كثير من الشيعة وناقشه فى ذلك أخوه محمد الباقر ، وقال له : على قضية مذهبك . والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ، ولاتعرض للخروج :

إنه يجوز إمامة المفضول فكأنهذه الصفات عندهم للإمام الأمثل الكامل ، وهو بها أولى من غيره . فإن اختار أولو الحل والعقد فى الأمة إماما لم يستوف بعض هذه الصفات ، وبايعوه صحت إمامته ، ولزمت بيعته ، وبنى على ذلك الأصل صحة إمامة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما ، فكان زيد يرى أن على بن أبى طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام عن دماء المشركين لم يجف ، والضغائن فى صدور القوم ، من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن ، والسبق فى الإسلام ، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

= أمة لأم إسحاق صلى الله عليهما وسلم . فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فتقول لى هذا ، وأنا ابن فاطمة وابن على ، وقام وهو يقول :

شرده الخوف وأزرى به	كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى	تنكثه أطراف مرو حداد
قد كان فى الموت له راحة	والموت حتم فى رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة	يترك آثار العدا كالرماد

فمضى عليها إلى الكوفة ، وخرج عنها ، ومعه القراء والأشراف .

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

وقد خذل زيداً أكثر الشيعة لقوله بذلك الأصل . قال البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق : لما استحر القتال بينه (زيد) وبين يوسف بن عمرو الثقفى قالوا إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب . فقال زيد : إنى لا أقول فيهما إلا خيراً . وإنما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله الحرام بحجر المنجنيق والنار . ففارقوه عند ذلك .

ومن مذهب الزيدية جواز خروج إمامين فى قطرين مختلفين بحيث يكون كل واحد منهما إماما فى قطره الذى خرج مادام متحليا بالأوصاف التى بيناها ، ويفهم من هذا أنهم لا يجوزون قيام إمامين فى قطر واحد ، لأن ذلك يستدعى أن يبايع الناس الإمامين ، وذلك منهى عنه بصريح الأثر .

وقد كان الزيديون ، يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ما لم يتب توبة نصوحا ، وهم قد اقتبسوا ذلك من المعتزلة الذين يقولون هذه المقالة ، وذلك لأن زيداً رحمه الله كان ينتحل نحلة المعتزلة ، إذ تتلمذ لواصل بن عطاء شيخهم فى الأصول ، وأخذ عنه آراءه فيها . وروى أن ذلك كان من أسباب بغض سائر الشيعة له إذ أن واصلا كان يرى : أن على ابن أبى طالب فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل ، وأصحاب الشام ، ماكان على الصواب بيقين ، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه (١) . وذلك أمر لا يرضى الشيعة . ولما قتل زيد بايع الزيديون ابنه يحيى ، ثم قتل هو أيضا ثم بويع بعد يحيى محمد الإمام ، وإبراهيم الإمام فقتلهما أبو جعفر المنصور، ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك . ومالوا عن القول بإمامة المفضول ، ثم أخذوا يطعنون فى الصحابة كسائر الشيعة ، فذهبت عنهم بذلك أولى خصائصهم .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

الامامية :

وهم القائلون بأن إمامة على رضى الله عنه ثبتت بالنص عليه بالذات من النبى صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا ويقينا صادقا من غير تعريض بالوصف بل إشارة بالعين . قالوا: وماكان فى الدين أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فإنه إذا بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ، ويتركهم هملا يرى كل واحد منهم رأيا ، ويسلك كل واحد منهم طريقا ، لا يوافقه عليه غيره ، بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع إليه ، وينص على واحد هو الموثوق به ، والمعول عليه (١) .

ويستدلون على تعيين على رضى الله عنه بالذات ببعض آثار عن النبى صلى الله عليه وسلم يدعون صدقها ، وصحة سندها ، من مثل : من كنت مولاه فعلى مولاه ، واللهم وال من والاه وعاد من عاداه . ومثل: أقضاكم على ، وغير ذلك من الآثار التى يدعون صحتها . ويشك علماء الحديث فى صدقها ، ويستدلون أيضاً باستنباطات من أمور كلف النبى ﷺ علياً القيام بها ، وكلف غيره أخرى ، فيستنبطون مثلا ، من تكليف النبى ﷺ علياً قراءة سورة براءة دون أبى بكر أنه أولى بالخلافة . ويستنبطون من إرسال أبى بكر وعمر فى بعث أسامة مؤمراً عليهما جدارة على بالخلافة دونهما ، لأنه ما أمر عليه قط . وهكذا استدلالاتهم .

ولم يقتصروا على استحقاق على الخلافة دون سائر الصحابة ، بل تعدوا ذلك إلى الحكم بتكفير جل الصحابة ورميهم بالظلم والعدوان ، فشطوا بذلك شططا كثيراً ، وجاوزوا المحجة ، وحادوا عن الصواب .

وقد اتفق الإمامية على إمامة الحسن ثم الحسين بعد على ، واختلفوا بعد ذلك فى سوق الإمامة ، ولم يثبتوا على رأى واحد ، بل انقسموا فرقا عدها بعضهم نيفا وسبعين ، وأعظمها فرقتان : الاثنا عشرية ، والإسماعيلية .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

أما الأولون فيرون أن الخلافة بعد الحسنين لعلى زين العابدين ، ثم لمحمد الباقر بن زين العابدين ثم لجعفر الصادق بن الباقر ، ثم لابنه موسى الكاظم ثم لعلى الرضا ثم لمحمد الجواد ثم لعلى الهادى ثم للحسن العسكرى ، ثم لمحمد ابنه وهو الإمام الثانى عشر ، ويزعمون أنه دخل سرداباً فى دار أبيه بسر من رأى ، وأمه تنظر إليه ، ولم يعد بعد ، ثم اختلفوا فى سنه فقيل كانت سنه إذ ذاك أربع سنوات : وقيل ثمانى سنوات ، وكذلك اختلفوا فى حكمه ، فقال بعضهم إنه كان فى هذه السن عالما بما يجب أن يعلمه الإمام ، وأن طاعته كانت واجبة .

وقال آخرون كان الحكم لعلماء مذهبه : حتى بلغ فوجبت طاعته .

الاسماعيلية :

وهى طائفة من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر ، ويسمون أيضاً بالباطنية لقولهم بالإمام الباطن ، ويسمون الملحدة لما فى مقالتهم من الإلحاد ، إذ قد خلطت التشيع بمذاهب فاسدة مشتقة من الديانات القديمة ومن الفلسفة والأوهام ، وكلما امتد بهم الزمان زاد مذهبهم فسادا ، ولحق الناس من أعمالهم شر كبير .

تقول هذه الطائفة أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل بنص من أبيه ، وفائدة النص وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الإمامة فى عقبه ، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين ، وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق ، وبعده ابنه محمد الحبيب ، وهو آخر المستورين ، وبعده ابنه عبد الله المهدى الذى ملك المغرب ، وملك بعده بنوه مصر ، وهم الفاطميون (١) .

وقد اضطهدت تلك الطائفة فى أول أمرها فيمن اضطهد ، حتى فر معتنقو مذهبها إلى فارس ، وهناك خالط مذهبهم آراء الفرس القديمة

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

وغيرها ، وقام فيها رجال ذوو أهواء ، يقضون لباناتهم باسم الدين فتولوا زعامتها . وأول ناشرى دعوتها رجل له يقال ديصان ، أخذها عن عبد الله القداح ، ونشرها فى بلاد فارس، ثم بدا له أن ينشرها فى قلب الدولة ، فجاء إلى البصرة ، ودعا الناس سراً وجذب إليه رجلا من وجهاء اليمن ، كان يزور مقابر آل البيت ، فاتفقا على بث الدعوة لآل البيت فى اليمن ، ونفذا ما دبرا . ثم أرسل القداح رجلين إلى المغرب لسهولة انقيادهما للرعاة ، وقال لهما: احرثا الأرض حتى يأتى صاحب البذر . ثم سال سيل الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب ، حتى أخذ الفاطميون ملك الأغالبة فى أفريقية ، ثم اقتطعوا مصر من الخليفة العباسى على ما هو معلوم فى التاريخ .

* * *

جدل الشيعة

قد رأيت فيما أخبرناك عن هذه الفرقة ونحلها أن أول مظهر يسودها أنها لا تعرف الآراء إلا من وراء الرجال . فقوام مذهبها تقديس الرجال وتقدير آرائهم من وراء ذلك التقديس ، يزنون القول بقيمة قائله ، ولايعرفون القائل من وراء مذهبه،وقد استهوت كثرتهم محبة آل البيت محبة غالوا فيها ، فأوردتهم موارد الهلكة ، وأوبأت عاقبتهم ، وأفسدت مواهبهم ، وسدت مسامع الإدراك فى نفوسهم وأصبحوا حائرين بائرين ، لايدركون سدادا ، ولا يبغون رشادا ، وهم فى هذا يشبهون المريدين الذين استهوت نفوسهم عظمة رجل ، فأصبحوا لا يفهمون الدين إلا من وارد فكره ، والحق إلا إذا صدر عن ينبوعه ، وقد أغرم الشيعة بأئمتهم ، وجدوا فى الدعوة لهم سراً وإعلاناً .

وأول ماكانوا يتوجهون إليه فى دعوتهم وجدالهم أن يجيئوا إلى المسلم على براءته ، وصفاء نفسه من دون المذاهب ويذكروا له بالثناء آل البيت ويعطروا ألسنتهم بمدحهم،وأى مسلم لايهتز قلبه لآل الرسول ﷺ ، ولايتقبل بقبول حسن عبيق ذكرهم ، وأريج مدحهم ، وهم سلالة النبى صلى الله عليه وسلم وعترته وعصبته وأقرباؤه الأطهار الأبرار ، فإذا استدنوا سامعهم بعطر الثناء ذكروا المظالم الواقعة بهم والمآثم التى ارتكبت فى جانبهم ، وأى امرىء لا يألم لظلم نازل بالأبرار . فإذا أحسوا من نفس سامعهم دنو قلبه من قلوبهم ، وفكره من أفكارهم ،هجموا عليه بترهاتهم وأباطيلهم وأهوائهم الفاسدة ، فمن عصمه الله نجا واكتفى بمحبة الطاهرين ، ومن كتب الله عليه الشقوة سقط فكان مع الآثمين .

ويعمدون فى تأييد ترهاتهم إلى كثرة التحديث عن الرسول ﷺ فى فضائل آل البيت ، وقد حفظت لهم أحاديث كثيرة فى هذا الباب قد رد المحدثون أكثرها . ومن ذلك ما عزوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أهل بيتى كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن عدل عنها غرق . وما عزوه إليه عليه الصلاة السلام أنه قال:من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا ، ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة . وما يعزونه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه:أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى .

وإذا أعوزهم النص ، أو عدلوا عنه اتجهوا إلى التأويل الفاسد البعيد الذى لا يعقله عقل خلا من الهوى ، وبعد عن أدران الغرض ، من مثل تأويل بعضهم المحرمات بأنها أبو بكر وعمر . وقد ذكر الشعبى تأويلات بعض الشيعة ومثل بمثل جيد قال : ماشبهت تأويل الروافض فى القرآن الكريم إلا بتأويل رجل مضعوف من بنى مخزوم من أهل مكة المكرمة ، وجدته قاعداً بفناء الكعبة الشريفة فقال : ما عندك فى تأويل هذا البيت فإن بنى تميم يغلطون فيه . ويزعمون أنه قيل فى رجل منهم ، وهو قول الشاعر :

بيتا زرارة محتب بفنائــه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

فقلت له:وما عندك أنت فيه . قال البيت هو هذا البيت ، وأشار بيده إلى الكعبة المشرفة ، وزرارة الحجر زرر حـول البيت فقلت له فمجاشع . قال زمزم جشعت بالماء . قلت فأبو الفوارس . قال أبو قبيس جبل مكة . قلت:فنهشل.ففكر طويلا ، ثم قال:أصبته ، هو مصباح الكعبة (١) .

وهذا المثل ينطبق على الغلاة منهم ، وأما المعتدلون فقد علمت أنهم أقرب إلى الحق ، وأدنى إلى الرشاد .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه .

وقد كانوا إذا أمحلت بهم الحجة ، وضعف لديهم الدليل ، وخشوا جدالهم ، زعموا أنه لم يطق ما يعتقدون ، ولم يدرك فكره ما وصلوا إليه ، وما تعمقوا فيه ، جاء في العقد الفريد : ثم قال الأعشى دخلت على المغيرة ابن سعد ، وقد كان رافضيا ، فسألته عن فضائل على ، فقال إنك لاتحتملها ؛ قلت : بلى ، فذكر آدم صلوات الله عليه ، فقال على خير منه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء ، فقال على خير منهم ، حتى انتهى إلى محمد ﷺ فقال على مثله . فقلت كذبت عليك لعنك الله ، فقال قد أعلمتك أنك لاتحتمله .

ومنهم من كان يدعى أن للأشياء ظاهراً وباطناً ، وأن الباطن قد اختص به الأئمة ، ومن يفضون به إليه ، وهو في كل الأحوال سر مكتوم عن الدهماء وأكثر الناس .

وفي الحق أن ذلك النحو من الدعوة والجدل لم يكن منهم جميعا ، بل كان في الغلاة فقط ، أما المعتدلون فقد كانت دعاويهم معتدلة وجدلهم يدل على إنصافهم في الجملة ، يعتمدون في استدلالهم على أحاديث يقرها بعض محدثي الجماعة الإسلامية،وعلى تأويلات لاشطط فيها ، ولا تبعد عن العقل كثيراً ، وهم الذين ننقل عنهم بعض جدلهم وها هو ذا :

نماذج من جدل الشيعة

مناظرة للشيعة في مجلس عمر بن عبد العزيز

روى ابن الكلبي قال :

بينما عمر بن عبد العزيز جالس في مجلسه ، دخل حاجبه ، ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة ، ورجلان متعلقان بها ، ومعها كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر ، فدفعوا إليه الكتاب ففضه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ميمون بن مهران ،

سلام عليك ورحمة الله وبركاته . أما بعد : فانه ورد علينا أمر ضاقت به الصدور ، وعجزت عنه الأوساع ، وهربنا بأنفسنا عنه ووكلناه إلى عالمه لقول الله عز وجل : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . وهذه المرأة والرجلان أحدهما زوجها والآخر أبوها . وإن أباها زعم أن زوجها حلف بطلاقها أن على بن أبى طالب خير هذه الأمة ، وأولاها برسول الله ﷺ وأنه يزعم أن ابنته طلقت منه ، وأنه لا يجوز له فى دينه أن يتخذه صهرا ، وهو يعلم أنها حرام عليه كأمه ، وإن الزوج يقول كذبت ، لقد بر قسمى ، وصدقت مقالتى ، وإنها امرأتى على رغم أنفك ، وغيظ قلبك ، فاجتمعوا إلىّ يختصمون فى ذلك . فسألت الرجل عن يمينه . فقال : نعم قد كان ذلك . وقد حلف بطلاقها أن علياً خير هذه الأمة ، وأولاها برسول الله ﷺ ، عرفه من عرفه ، وأنكره من أنكره ، فليغضب من غضب ، وليرض من رضى ، وتسامع الناس بذلك ، فاجتمعوا له وإن كانت الألسنة مجتمعة ، فالقلوب شتى . وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس فى أهوائهم ، وتسرعهم إلى ما فيه الفتنة ، فأحجمنا عن الحكم لتحكم بما أراك الله ، وأنهما تعلقا بها ، وأقسم أبوها ألا يدعها معه ، وأقسم زوجها ألا يفارقها ، ولو ضربت عنقه ، إلا أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته ، والامتناع منه ، فرفعنا إليك يا أمير المؤمنين ، أحسن الله توفيقك وأرشدك .

قال : فجمع عمر بن عبد العزيز بنى هاشم ، وبنى أمية ، وأفخاذ قريش ، ثم قال لأبى المرأة : ما تقول أيها الشيخ ؟ قال يا أمير المؤمنين هذا الرجل زوجته ابنتى ، وجهزتها إليه بأحسن ما يجهز به مثلها ، حتى إذا أملت خيره ، ورجوت صلاحه حلف بطلاقها كاذبا ، ثم أراد الإقامة معها ، فقال له عمر: لعله لم يطلق امرأته ، فكيف حلف ؟ قال الشيخ : سبحان الله ، الذى حلف لأبين حنثاً ، وأوضح كذباً من أن يختلج فى صدرى منه شك

مع سن وعلم ، لأنه زعم أن عليا خير هذه الأمة ، وإلا فامرأته طالق ثلاثا . فقال للزوج ما تقول ، أهكذا حلفت . قال : نعم . فقيل أنه لما قال نعم كاد المجلس يرتج بأهله ، وبنو أمية ينظرون إليه شزرا ، إلا أنهم لم ينطقوا بشيء ، كل ينظر إلى وجه عمر ، فأكب عمر ملياً ينكت الأرض بيده ، والقوم صامتون ينظرون ما يقوله ، ثم رفع رأسه ، وقال :

إذا ولى الحكومة بين قوم ... أصاب الحق ، والتمس السدادا
وما خير الأنام إذا تصدى ... خلاف الحق ، واجتنب الرشادا

ثم قال للقوم : ما تقولون فى يمين هذا الرجل ، فسكتوا . فقال : سبحان الله ، قولوا . فقال رجل من بنى أمية : هذا حكم فى فرج ، ولسنا نجترىء على القول فيه ، وأنت عالم بالقول مؤتمن لهم وعليهم . قال: قل ماعندك فإن القول ما لم يكن يحق باطلا ويبطل حقا جائز على فى مجلسى . قال : لا أقول شيئا . فالتفت إلى رجل من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، فقال له ماتقول فيما حلف به الرجل يا عقيلى ، فاغتنمها ، فقال يا أمير المؤمنين ، إن جعلت قولى حكما ، وحكمى جائزاً . قلت ، وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لى ، وأبقى للمودة : قال. قل : وقولك حكم ، وحكمك ماض . فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا : ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين . إذ جعلت الحكم إلى غيرنا ، ونحن من لحمتك وأولى رحمك . فقال عمر : اسكتوا عجزا ولؤما ، عرضت ذلك عليكم آنفا ، فما انتدبتم له . قالوا : لأنك لم تعطنا ما أعطيت العقيلى ، ولا حكمتنا كما حكمته ، فقال عمر إن كان قد أصاب وأخطأتم ، وحزم وعجزتم ، وأبصر وعميتم فما ذنب عمر لا أبالكم . أتدرون مامثلكم قالوا لا ندرى . ثم قال : ما تقول يارجل . قال : نعم يا أمير المؤمنين مثلهم كما قال الأول :

دعيتم إلى أمر فلما عجزتم ... تناوله من لا يداخله عجز
فلما رأيتم ذاك أبدت نفوسكم ... نداما . وهل يغنى من الحذر الحرز

فقال عمر : أحسنت وأصبت قل ما سألتك عنه ، قال يا أمير المؤمنين بر قسمه ولم تطلق امرأته . قال وأنى علمت ذاك ؟ قال نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألم تعلم أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام وهو عندها فى بيتها عائد لها يابنية ما علتك ؟ قالت الوعك يا أبتاه ، وكان على غائبا فى بعض حوائج النبى ﷺ فقال لها أتشتهين شيئا ؟ قالت : نعم أشتهى عنبا وأنا أعلم أنه عزيز وليس وقت عنب . فقال ﷺ إن الله قادر على أن يجيئنا به ، ثم قال اللهم ائتنا به مع أفضل أمتى عندك منزلة : فطرق على الباب ودخل ومعه مكتل قد ألقى عليه طرف ردائه فقال له صلى الله عليه وسلم ما هذا يا على ؟ قال عنب التمسته لفاطمة . فقال: الله أكبر اللهم كما سررتنى بأن خصصت علياً بدعوتى فاجعل فيه شفاء بنيتى ثم قال كلى على اسم الله يا بنية ، فأكلت وما خرج رسول الله ﷺ حتى استقلت وبرأت ، فقال عمر : صدقت وبررت أشهد لقد سمعته ووعيته يارجل ، خذ بيد امرأتك ، فإن عرض لك أبوها فاهشم أنفه ، ثم قال: يا بنى عبد مناف ، والله ما نجهل ما يعلم غيرنا ولا بنا عمى فى ديننا .

وكتب إلى ميمون بن مهران: عليك السلام، فإنى ، أحمد إليك الله الذى لا إله لا هو . أما بعد فقد فهمت كتابك ورد الرجلان والمرأة وقد صدق الله يمين الزوج ، وأبر قسمه ، وأثبته على نكاحه ، فاستيقن ذلك واعمل به والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

مناظرة المأمون فى تفضيل علىّ (١)

روى أن المأمون أرسل إلى أربعين عالما من علماء الأمة ، ولما استقر بهم المجلس ، قال :

إنما بعثت إليكم معشر القوم فى المناظرة ، فمن كان به شىء من الحبثين لم ينتفع بنفسه ، ولم يفقه ما يقول ، فمن أراد منكم الخلاء فهناك ، وأشار بيده . فدعوا له . ثم ألقى مسألة من الفقه ، فقال يا أبا محمد : قل ، وليقل القوم من بعدك ، فأجابه يحيى(٢) ، ثم الذى يليه ، حتى أجاب آخرنا آخرنا فى العلة وعلة العلة ، وهو مطرق لا يتكلم ، حتى إذا انقطع الكلام ، التفت إلى يحيى ، فقال يا أبا محمد ، أصبت الجواب ، وتركت الصواب ، ثم لم يزل يرد على كل واحد منا مقالته ، ويخطىء بعضهم ويصوب بعضهم ، حتى أتى على آخرهم . ثم قال : إنى لم أبعث إليكم لهذا ، ولكنى أحببت أن أبسط لكم أن أمير المؤمنين أراد مناظرتكم فى مذهبه الذى هو عليه ، والذى يدين الله به . قلنا ، فليفعل أمير المؤمنين ، وفقه الله . فقال : إن أمير المؤمنين يدين الله ، على أن على بن أبى طالب خير خلفاء الله بعد رسوله ﷺ وأولى الناس بالخلافة له ، قال إسحق(٣) : فقلت يا أمير المؤمنين : إن فينا من لا يعرف ماذكر أمير المؤمنين فى على ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة . فقال يا إسحق اختر ، إن شئت سألتك أسألك ، وإن شئت أن تسأل فقل . قال إسحق فاغتنمتها منه فقلت : بل أسألك يا أمير المؤمنين . قال : سل ، قلت : من أين قال أمير المؤمنين أن على بن أبى طالب أفضل

---

(١) هذه المناظرة آثرنا نقلها فى هذا الموضوع ، وإن كانت قد قيلت فى العصر العباسى ، لأنها تصور تفكير معتدلى الشيعة فى شأن على رضى الله عنه .

(٢) هو يحيى بن أكثم قاضى قضاة المأمون ، وكنيته أبو محمد .

(٣) هو إسحق بن إبراهيم بن حماد بن زيد راوى هذه المناظرة .

الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحقهم بالخلافة بعده . قال : يا إسحق خبرنى عن الناس بم يتفاضلون ، حتى يقال فلان أفضل من فلان . قلت بالأعمال الصالحة . قال صدقت ، قال فأخبرنى عمن فضل صاحبه على عهد رسول الله ﷺ ، ثم إن المفضول عمل بعد وفاة رسول الله ﷺ بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيلحق به ؟ فقال يا أبا إسحق لا تقل نعم ، فانك إن قلت نعم أوجدت لك فى دهرنا هذا من هو أكثر منه جهادا وحجا وصياما وصلاة وصدقة ، فقلت أجل يا أمير المؤمنين ، لا يلحق المفضول على عهد رسول الله ﷺ الفاضل أبدا . قال يا إسحق ، فانظر ماروٰه لك أصحابك ، ومن أخذت عنهم دينك ، وجعلتهم قدوتك من فضائل على بن أبى طالب ، فقس عليها ما أتوك به من فضائل أبى بكر ، فإن رأيت فضائل أبى بكر تشاكل فضائل على ، فقل إنه أفضل منه ، لا والله ، ولكن قس إلى فضائله ماروى لك من فضائل أبى بكر وعمر فإن وجدت لهما من الفضائل ما لعلى وحده ، فقل إنهما أفضل منه ، لا والله ، ولكن قس إلى فضائله فضائل أبى بكر وعمر وعثمان ، فإن وجدتها مثل فضائل على ، فقل إنهم أفضل منه ، لا والله ، ولكن قس بفضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، فإن وجدتها تشاكل فضائله ، فقل إنهم أفضل منه ، قال يا إسحق أى الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله ﷺ ، قلت الإخلاص بالشهادة ، قال أليس السبق إلى الإسلام . فقلت نعم . قال اقرأ ذلك فى قوله تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » إنما عنى من سبق إلى الإسلام ، فهل علمت أحد سبق عليا إلى الإسلام . قلت يا أمير المؤمنين ، إن عليا أسلم وهو حديث السن ، لا يجوز عليه الحكم ، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم . قال أخبرنى أيهما أسلم قبلا ، ثم أناظرك من بعده فى الحداثة والكمال : قلت: على أسلم قبل أبى بكر على هذه الشريطة ، فقال نعم ، فأخبرنى عن إسلام على حين أسلم ، لا يخلو من أن يكون رسول الله ﷺ دعاه إلى

الإسلام ، أو يكون إلهاما من الله . قال فأطرقت . فقال لى يا إسحق لا تقل إلهاما فتقدمه على رسول الله ﷺ ، لأن رسول الله ﷺ لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى ، قلت أجل ، بل دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام . قال يا إسحق فهل يخلو رسول الله ﷺ من أن يكون دعاه بأمر الله ، أو تكلف ذلك عن نفسه ، قال : فأطرقت ، فقال يا إسحق لا تنسب رسول الله ﷺ إلى التكلف ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « قل : وما أنا من المتكلفين » قلت أجل ، يا أمير المؤمنين ، بل دعاه بأمر الله . قال : فهل من صفة الجبار جل ذكره أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم . قلت أعوذ بالله . فقال أفتراه فى قياس قولك يا إسحق أن عليا أسلم صبيا ، لا يجوز عليه الحكم ، وأنه قد كلف رسول الله ﷺ من دعاء الصبيان مالا يطيقون ، فهل يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة ، فلا يجب عليهم فى ارتدادهم شىء ، ولا يجوز عليهم حكم الرسول ﷺ ، أترى هذا جائزاً عندك أن ينسبه إلى رسول الله ﷺ . قلت أعوذ بالله ، قال : يا إسحق فأراك إنما قصدت لفضيلة أفضل بها رسول الله ﷺ عليا ، على هذا الخلق أبانه بها عليهم ، ليعرفوا فضله ، ولو كان الله أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا عليا . قلت بلى . قال فهل بلغك أن رسول الله ﷺ دعا أحداً من الصبيان من أهله وقرابته ، لئلا تقول أن عليا ابن عمه . قلت لا أعلم ولا أدرى أنه فعل ، أو لم يفعل . قال ثم أى الأعمال كانت أفضل بعد السبق إلى الإسلام ؟ قلت الجهاد فى سبيل الله . قال : صدقت ، فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ما تجد لعلى فى الجهاد ؟ قلت : فى أى وقت ؟ قال : فى أى الأوقات شئت ؟ قلت : لا أريد غيرها ، قال فهل تجد لأحد إلا دون ما تجد لعلى يوم بدر ، أخبرنى كم قتلى بدر ؟ قلت : نيف وستون رجلا من المشركين . قال فكم قتل على وحده ؟ قلت : لا أدرى . قال : ثلاثة وعشرين أو اثنين وعشرين ، والأربعون لسائر الناس ، قلت : يا أمير المؤمنين كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ فى عريشه . قال يصنع ماذا ؟ قلت يدبر . قال : ويحك يدبر دون رسول الله ﷺ ، أم معه شريكا ، أو افتقارا من

رسول الله ﷺ إلى رأيه ، أى الثلاث أحب إليك ؟ قلت : أعوذ بالله أن يدبر أبوبكر دون رسول الله ﷺ أو يكون معه شريكا ، وأن يكون برسول الله ﷺ افتقار إلى رأيه . قال : فما الفضيلة فى العريش ؟ أليس من ضرب بسيفه بين يدى رسول الله ﷺ أفضل ممن هو جالس ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كل الجيش كان مجاهدا . قال : صدقت ، كل مجاهد ، ولـكن الضارب بالسيف المحامى عن رسول الله ﷺ وعن الجالس أفضل من الجالس . أما قرأت كتاب الله تعالى : « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » قلت : وكان أبو بكر وعمر مجاهدين . قال : فهل كان لأبى بكر وعمر فضل على من لم يشهد ذلك المشهد . قلت : نعم . قال فكذلك سبق الباذل نفسه فضل أبى بكر وعمر . قلت أجل ، وإن لأبى بكر فضلا . قال أجل لولا أن له فضلا ، ما قيل أن عليا أفضل منه ، فما فضله الذى قصدت له الساعة . قلت قول الله عز وجل : « وثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا » . فنسبه إلى صحبته ، قال ياإسحق أما إنى لأحملك على الوعر من طريقك ، إنى وجدت الله تعالى ، نسب إلى صحبة من رضيه ، ورضى عنه ولو كافرا وهو قوله : « قال له صاحبه ، وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا ، لـكن هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحداً » . قلت إن ذلك صاحب كان كافرا وأبو بكر مؤمن . قال فإذا جاز أن ينسب إلى صحبة من رضيه ، ورضى عنه كافرا ، جاز أن ينسب إلى صحبة نبيه ﷺ مؤمنا ، وليس بأفضل المؤمنين ، ولا الثانى ، ولا الثالث ، قلت يا أمير المؤمنين إن قدر الآية عظيم ، إن الله تعالى يقول : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا » . قال ياإسحق ، تأبى إلا أن أ... ... ... ك إلى الاستقصاء عليك ، أخبرنى عن حزن أبى بكر ، أكان رضا أم سخطا . قلت إن أبا بكر

إنما حزن من أجل رسول الله ﷺ خوفا عليه وغما أن يصل إلى رسول الله ﷺ شيء من المكروه . قال ليس هذا جوابي ، إنما كان جوابي أن تقول رضي أم سخط . قلت بل كان رضا الله . قال : فكأنه جل ذكره بعث إلينا رسولا ينهى عن رضا الله عزوجل ، وعن طاعته . قلت أعوذ بالله . قال أو ليس قد زعمت أن حزن أبي بكر رضا الله . قلت بلى . قال : أو لم تجد أن القرآن الكريم شهد أن رسول الله ﷺ قال لا تحزن نهياً له عن الحزن . قلت أعوذ بالله . قال يا إسحق إن مذهبي الرفق بك ؛ لعل الله يردك إلى الحق ، ويعدل بك عن الباطل لكثرة ما تستعيذ به .. يا إسحق من أفضل أمن كان معه في الغار أم من نام على فراشه ، ووقاه بنفسه ، حتى تم لرسول الله ﷺ ماأراد من الهجرة . إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله أن يأمر عليا بالنوم على فراشه ، وأن يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى علي رضي الله عنه . فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك يا علي أجزعا من الموت ؟ قال لا والذي بعثك بالحق يارسول الله ، ولكن خوفا عليك . أفتسلم يارسول الله ؟ قال نعم . قال سمعا وطاعة ، وطيبة نفسي بالفداء لك يارسول الله ، ثم أتى مضجعه واضطجع . وتسجى بثوبه ، وجاء المشركون من قريش فحفوا به ، لا يشكون أنه رسول الله ﷺ ، وقد أجمعوا أن يضربه من كل بطن من بطون قريش رجل ضربة بالسيف . لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطنا بدمه ، وعلي يسمع ما القوم فيه من إتلاف نفسه ، ولم يدعه ذلك إلى الجزع كما جزع صاحبه في الغار ، ولم يزل علي صابراً محتسباً فبعث الله ملائكته ، فمنعته من مشركي قريش حتى أصبح ، فلما أصبح قام فنظر القوم إليه فقالوا : أين محمد ؟ قال ، ما علمي بمحمد أين هو . قالوا فلا نراك إلا مغروراً بنفسك منذ ليلتنا ، فلم يزل عليّ على مثل ما بدأ به يزيد ولا ينقص ، حتى قبضه الله إليه ، يا إسحق أترى حديث أنت مني بمنزلة هرون من موسى . قلت نعم يا أمير المؤمنين قد سمعته وسمعت من صححه . وجحده . قال ، فمن أوثق عندك من سمعت منه فصححه أم من

جحده . قلت : من صححه . قال . فهل يمكن أن يكون رسول الله ﷺ مزح بهذا القول ، قلت أعوذ بالله . قال : فقال قولا لا معنى له ، فلا يوقف عليه ؟ قلت أعوذ بالله . قال أفما تعلم أن هرون كان أخا موسى لأبيه وأمه ؟ قلت بلى . قال : فعلى أخو رسول الله ﷺ لأبيه وأمه . قلت : لا . قال أوليس هرون نبيا ، وعلى غير نبي ؟ قلت بلى . قال : فهذان الحالان معدومان فى حق على ، فما معنى قوله أنت منى بمنزلة هرون من موسى . قلت له إنما أراد أن يطيب بذلك نفس على لما قال المنافقون ، إنه خلفه استثقالا له ؛ قال فأراد أن يطيب نفسه بقول لامعنى له . قال فأطرقت : قال يا إسحق له معنى فى كتاب الله . قلت وما هو يا أمير المؤمنين قال قوله عز وجل حكاية عن موسى أنه قال لأخيه هرون : « اخلفنى فى قومى ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين » . قلت يا أمير المؤمنين إن موسى خلف هرون فى قومه وهو حى ، ومضى إلى ربه ، وأن رسول الله ﷺ ، خلف عليا كذلك حين خرج إلى غزاته ، قال كلا ، ليس كما قلت ، أخبرنى عن موسى حين خلف هرون ، هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحد من أصحابه أو أحد من بنى إسرائيل . قلت : لا . قال : أو ليس استخلفه على جماعتهم ؟ قلت : بلى . قال : فأخبرنى عن رسول الله ﷺ حين خرج إلى غزاته ، هل خلف إلا الضعفاء والنساء والصبيان فأنى يكون مثل ذلك ، وله عندى تأويل آخر من كتاب الله سبحانه يدل على استخلافه إياه ، لايقدر أحد أن يحتج فيه ، ولا أعلم أحد احتج به ، وأرجو أن يكون توفيقا من الله . قلت وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله عز وجل حين حكى عن موسى قوله : « واجعل لى وزيرا من أهلى ، هرون أخى اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيرا » ؛ فأنت منى يا على بمنزلة هرون من موسى وزيرى من أهلى وأخى ، شد الله به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبح الله كثيراً ، ونذكره كثيراً ، فهل يقدر أحد أن يدخل فى هذا شيئا غير هذا . ولم يكن ليبطل قول النبى ﷺ

وأن يكون لا معنى له . فقال يحيى بن أكثم القاضى ، يا أمير المؤمنين قد أوضحت الحق لمن أراد الله به الخير ، وأثبت مالا يقدر أحد أن يدفعه . قال إسحق فأقبل علينا . وقال: ماتقولون ؟ فقلنا : كلنا يقول بقول أمير المؤمنين أعزَه الله . فقال والله ، لولا أن رسول الله ﷺ قال اقبلوا القول من الناس ، ماكنت لأقبل منكم القول . اللهم قد نصحت لهم القول . اللهم إنى قد أخرجت الأمر من عنقى . اللهم إنى أدينك بالتقريب إليك بحب على وولايته . أهـ . من العقد الفريد لابن عبد ربه بحذف قليل .

* * *

الخـــوارج

هم أشد الفرق الإسلامية دفاعا عن اعتقادهم ، وحماسة لأفكارهم ، وشدة فى تدينهم ، واندفاعا وتهورا فيما يدعون إليه ، وما يفكرون فيه ، وهم فى اندفاعهم وتهورهم يستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها، وظنوها دينا مقدسا ، لا يحيد عنه مؤمن ، ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه إلى البهتان ، ودفعته إلى العصيان . استرعت ألبابهم كلمة «لا حكم إلا لله» فاتخذوها دينا ينادون به فى وجوه مخالفيهم ، ويقطعون به كل حديث . فكانوا كلما رأوا عليا يتكلم قذفوه بهذه الكلمة .

وقد روى أنه رضى الله عنه قال فى شأنهم عندما قالوها وكرروا قولها ، « كلمة حق يراد بها باطل ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هـؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وأنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى ، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر » .

وقد استهوتهم فكرة البراءة من عثمان وعلى والحكام الظالمين حتى احتلت أفهامهم ، واستولت على مداركهم استيلاء تاما ، وسدت عليهم كل طريق للوصول إلى الحق ، فمن تبرأ من عثمان وعلى وطلحة والزبير والظالمين من بنى أمية سلكوه فى جمعهم وأضافوه إلى عددهم ، وتسامحوا معه فى مبادىء أخرى من مبادئهم ربما كانت أشد أثراً ، والخلاف فيها يبعده عنهم أكثر من الخلاف فى هذا التبرؤ .

خرج ابن الزبير على الأمويين فناصروه ووعدوه بالبقاء على نصرته والقتال فى صفه ، ولما علموا أنه لايتبرأ من أبيه وطلحة وعلى وعثمان نابذوه

وفارقوه ، ولما ناقش عمر بن عبد العزيز شوذبا الخارجى كان محز الخلاف ، ومفصل المناقشة هو التبرؤ من أهل بيته الظالمين ، مع إقرار الخوارج أنه خالفهم ومنع استمرار ظلمهم ، ورد إلى الناس مظالمهم . ولكن استحوذت عليهم فكرة التبرؤ فكانت الحائل بينهم وبين الدخول فى غمار الجماعة الإسلامية.

وإنهم ليشبهون فى استحواذ الألفاظ البراقة على نفوسهم واستيلائها على مداركهم اليعقوبيين الذين ارتكبوا أقسى الفظائع ، وأشد الشنائع فى الثورة الفرنسية . فقد استولت على هؤلاء ألفاظ الحرية والمساواة والإخاء ، وباسمها قتلوا الناس ، وأهرقوا الدماء، وأولئك استولت عليهم ألفاظ الإيمان ، ولا حكم إلا لله ، والتبرؤ من الظالمين ، وباسمها أباحوا دماء المسلمين وخضبوا البلاد الإسلامية بالدماء ، وشنوا الغارة فى كل مكان ، ويظهر أن الحماسة التى امتازوا بها كانت الوحدة الجامعة بينهم وبين اليعقوبيين ، وما صدر عن الفريقين من أعمال متشابهة ، كان لهذه الحماسة وقوة العاطفة .

قال العلامة جوستاف لوبون فى وصف اليعقوبيين فى كتابه الثورة الفرنسية : وتوجد النفسية اليعقوبية خاصة عند ذوى الأخلاق المتحمسة الضيقة ، وتتضمن هذه النفسية فكراً قاصراً عنيداً ، وكل شيء خارج عن الإيمان بالفكرة غير مؤثر فيها ، وما تغلب على الروح اليعقوبية من العناصر العاطفية يجعل اليعقوبى كثير السذاجة . ولما كان هذا لا يدرك من الأمور إلا علائقها الظاهرية ، فإنه يظن أن ما يتولد فى روحه من الصور الوهمية حقائق ، ويفوته ارتباط الحوادث بعضها ببعض ، وما ينشأ عن ذلك من النتائج ، لا يحول بصره عن خياله أبدا ، إذن فاليعقوبى لا يقترف الآثام لتقدم منطقه العقلى ، إذ لا يملك منه إلا قليلا ، وإنما يسير مستيقنا ، وعقله الضعيف يخدم اندفاعاته حيث يتردد ذو المدارك السامية فيقف .

وإن هذا الوصف البديع لليعقوبيين هو وصف كامل صحيح لأكثر نواحى الخوارج النفسية . وسترى فيما يلى من الحوادث والمناقشات ما يؤيد ذلك ويثبت صحته .

ولم تكن الحماسة والتمسك بظواهر الألفاظ ، لم تكن هذه فقط هى

الصفات الواضحة في الخوارج ، بل هناك صفات أخرى منها حب الفداء والرغبة في الموت ، والاستهداف للمخاطر من غير داع قوى يدفع إلى ذلك وربما كان منشأ ذلك هوساً عند بعضهم ، واضطرابا في أعصابهم ، لامجرد الشجاعة والتمسك بالمذهب فقط،وإنهم ليشبهون في ذلك النصارى الذين كانوا تحت حكم العرب في الأندلس . فقد أصاب فريقا منهم هوس جعلهم يقدمون على أسباب الموت وراء عصبية جامحة ، وفكرة فاسدة .

واقرأ ماكتبه الكونت هنرى دى كاسترى في وصفهم فإنك سترى وصفاً ينطبق على كثير من النواحى على الخوارج ، فقد قال : أراد كل واحد (من هؤلاء النصارى) أن يذهب إلى مجلس القضاء ليسب محمداً ويموت ، فتقاطروا عليه أفواجا أفواجا ، حتى تعب الحجاب من ردهم . وكان القاضى يصم الآذان ليكلا يحكم عليهم بالإعدام ، والمسلمون مشفقون على هؤلاء المساكين ويظنونهم من المجانين .

ولقد كان من الخوارج من يقاطع عليا في خطبته بل من يقاطعه في صلاته ، ومن يتحدى المسلمين محتسبا الله في ذلك ظانا أنه قربة يتقرب بها إليه . ولما قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت وبقروا بطن جاريته ، قال لهم على ادفعوا إلينا قتلته . قالوا : كلنا قتلته ، فقاتلهم على حتى كاد يبيدهم ، ولم يمنع ذلك بقيتهم من أن يسيروا في طريقهم موغلين في الدعوة إليها والحماسة لها ، فبينهم وبين أولئك النصارى شبه قريب من هذه الناحية .

وفى الحق أن الاخلاص للإسلام كان صفات كثير منهم ، وإن كان معه هوس بفكرة فيه ، والتأثر بناحية واحدة من نواحيه ، يروى أن عليا رضى الله عنه أرسل إليهم ابن عباس يناقشهم ، فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباها قرحة لطول السجود ، وأيديا كثفنات الإبل ، عليهم قمص مرحضة [١] » . فاخلاصهم لدينهم في الجملة أمر لا موضع فيه لارتياب ، ولكنه إخلاص قد عراه ضلال لفهم الدين وإدراك لبه ومرماه ، فالمسلم المخالف لهم لاعصمة لدمه ، بينما الذمى دمه معصوم .

---

(١) الكامل للمبرد ص ١٤٣ ج ٢ .

قال أبو العباس المبرد فى الكامل : من طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا ، فقتلوا المسلم ، وأوصوا بالنصرانى ، ولقيهم عبد الله بن خباب ، وفى عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا إن الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك .. قالوا فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى خيرا . قالوا فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان فى ست سنين فأثنى خيرا ، قالوا فما تقول فى التحكيم ؟ قال : أقول إن عليا أعلم بكتاب الله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة ، قالوا إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائها ، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه ... وساموا رجلا نصرانيا بنخلة له ، فقال هى لكم ، فقالوا والله ماكنا لنأخذها إلا بثمن . قال : ما أعجب هذا أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولاتقبلوا منا حتى نخلة .

ولماذا كان التعصب للفكرة ، والهوس لها والتشدد فيها مع الخشونة فى الدفاع ، والتهور فى الدعوة إليها وحمل الناس عليها بقوة السيف ، والعنف والقسوة بدرجة لا رفق فيها ، وبحال لا تتفق مع سماحة هذا الدين ؟

السبب فى ذلك فيما أعتقد أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية ، وقليل منهم كان من عرب القرى ، وهؤلاء كانوا فى فقر مدقع ، وشدة وبلاء قبيل الإسلام ، ولما جاء الإسلام لم ترد حالتهم المادية حسنا ، لأن كثيراً منهم استمروا فى باديتهم بلأوائها وشدتها وصعوبة الحياة فيها ، وأصاب الإسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة فى التفكر وضيق فى التصور ، وبعد عن العلوم . فتكون من مجموع ذلك نفوس مؤمنة متعصبة لضيق نطاق العقول بها، ومتهورة مندفعة وزاهدة ، لأنها لم تجد ، والنفس التى لاتجد إذا عمرها إيمان ، ومس وجدانها اعتقاد صحيح ، انصرفت عن الطموح إلى شهوات الدنيا ، وملاذ هذه الحياة ، واتجهت إلى الحياة الأخرى ، وإلى نعيمها والرغبة فى التمتع بملاذها ، والابتعاد عما يؤدى إلى جحيمها وشقائها ، ولقد كانت معيشتهم دافعة لهم على الخشونة والقوة والعنف ، إذ النفس صورة

لما تألف وترى ، ولو أنهم عاشوا عيشة رافهة فاكهة بنوع من النعيم لألان ذلك من صلابتهم ، ورطب شدتهم ، ونهنه من حدتهم .

يروى أن زياد ابن أبيه بلغه عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج فدعاه ، فولاه ورزقه أربعة آلاف درهم فى كل شهر ، وجعل عمالته فى كل سنة مائة ألف ، فكان أبوالخير يقول : مارأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة ، والتقلب بين أظهر الجماعة ، فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياد شيئا فتنمر لزياد فحبسه ، فلم يخرج من حبسه حتى مات .

انظر إلى النعمة كيف ألانت من طباعه ، وهذبت من نفسه ، وجعلته سمحا رقيقا بعد أن كان متعصبا عنيفا .

ونحن إن وصفنا الخوارج بالإخلاص فى خروجهم على على والأمويين من بعده ، لا ننكر أن هناك غير العقيدة ، أموراً أخرى حفزتهم على الخروج ، من أعظمها وضوحا ، أنهم كانوا يحسدون قريشا على استيلائهم على الخلافة ، واستبدادهم بالأمر دون الناس ، والدليل على ذلك أن أكثرهم من القبائل الربعية التى كانت بينها وبين القبائل المضرية الإحن الجاهلية ، والعداوات القديمة التى خفف الإسلام من حدتها ، ولم يذهب بكل قوتها ، بل بقيت منها أثارة غير قليلة مستمكنة فى القلوب ، متغلغلة فى النفوس . وقد تظهر فى الآراء والمذاهب من حيث لا يشعر المعتنق للمذهب ، الآخذ بالرأى . وأن الإنسان قد يسيطر على نفسه هوى يدفعه إلى فكرة معينة ، وتخيل إليه أن الإخلاص راشده والعقل وحده يهديه ، وهذا أمر واضح فى الأمور التى تجرى فى الحياة فى كل ظواهرها ، فالإنسان ينفر من كل فكرة اقترنت بما يؤلمه ، وإذا كان ذلك كذلك ، فلابد أن نتصور أن الخوارج وأكثرهم ربعيون رأوا الخلفاء قوما مضريين ، فنفروا من حكمهم ، واتجه تفكيرهم إلى آراء فى الخلافة تحت ظل ذلك النفور من حيث لا يشعرون ، وظنوا أنه محض الدين ، ولب اليقين ، وأن لا دافع لهم إلا الإخلاص لدينهم ، والتوجه

لربهم ، وبذلك زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا وليس بمانع لدينا أن يكون الإخلاص فى طلب الدين لاتشوبه شائبة ، ولم يختلط به أى درن من غرض أو عارض من سوء هو الذى دفع بعضهم إلى الخروج . والله أعلم بما تخفى الصدور .

والخوارج كما رأيت أكثرهم من العرب . والموالى كانوا فيهم عدداً قليلا مع أن آراءهم فى الخلافة من شأنها أن تجعل للموالى الحق فى أن يكونوا خلفاء عندما تتوافر فى أحدهم شروطها ، إذ الخوارج لا يقصرون الخلافة على بيت من بيوت العرب ، ولا على قبيل من قبيلهم ؛ بل لا يقصرونها على جنس من الأجناس أو فريق من الناس ، والسبب فى نفور الموالى عن مذهبهم أنهم هم كانوا ينفرون من الموالى ، ويتعصبون ضدهم .

وقد روى ابن أبى الحديد أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية ، فقالوا لها فضحتنا . . وربما لو تركوا تلك العصبية لتبعهم كثيرون من الموالى . ومع أن الموالى فى الخوارج كانوا عدداً قليلا نرى لهم أثراً فى بعض فرقهم .

فاليزيدية (١) ادعوا أن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ بشرعه الشريعة المحمدية ، والميمونية(٢) أباحوا نكاح بنات الأولاد وبنات الإخوة والأخوات (٣) ، وهذه كما نرى مبادىء كفر . واضح أنها تفكير فارسى ، إذ الفرس المجوس هم الذين يحنون إلى نبى من فارس ، وهم الذين يتبعون الأنكحة السابقة .

من الكلام السابق عرفنا عقلية الخوارج ونفسيتهم وقبائلهم ، والحق أن آراءهم مظهر واضح لتفكيرهم وسذاجة عقولهم ونظراتهم السطحية ونقمتهم على قريش وكل القبائل المضرية .

وأول آرائهم ، وأحكمها وأسدها أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين ، لا فريق دون فريق ، ولاجمع دون جمع

---

(١) أتباع يزيد بن أبى أنيسة الخارجى .
(٢) أتباع ميمون العجردى .
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى .

ويستمر خليفة ما دام قائما بالعدل ، مقيما للشرع ، مبتعداً عن الخطأ والزيغ ، فإن حاد وجب عزله أو قتله .

ولا يرون أن بيتا من بيوت العرب اختص بأن يكون الخليفة فيه ، فليست الخلافة فى قريش كما يقول غيرهم ، وليست لعربى دون أعجمى ، والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة غير قرشى ليسهل عزله أو قتله إن خالف الشرع وحاد عن الحق ، وجانب الصواب ، إذ لا تكون له عصبية ، ولاعشيرة تؤويه ، ولا ظل غير ظل الله يستظل به ، وعلى هذا الأساس اختار أوائلهم عبد الله بن وهب الراسبى وأمروه عليهم ، وسموه أمير المؤمنين ، وهو ليس بقرشى ، وقد علمت حجة ذلك الرأى وما قيل فى شأن الحديث الصحيح : (الأئمة فى قريش) فيما سبق . وكان ذلك المبدأ جديراً بأن يغرى جماهير المسلمين باعتناق مذهبهم ، ولكن ازدراءهم بالموالى واستباحتهم لدماء المسلمين ، وسبيهم للنساء والذرية ، وطعنهم فى إيمان على وكثير من آل البيت . كل هذا حال بينهم وبين قلوب الناس أن تصغى إليهم .

ولا ننسى أن نذكر هنا أن النجدات من الخوارج يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن ذلك لايتم إلا بإمام يحملهم على الحق فأقاموه جاز ، فإقامة الإمام فى نظرهم ليست واجبة بإيجاب الشرع ، بل جائزة إن اقتضتها المصلحة ، ودعت إليها الحاجة ، وقد سبق الرد على هذا المذهب عند الكلام على الخلافة فارجع إليه .

ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب ولم يفرقوا بين ذنب يرتكب عن قصد للسوء ، ونية للإثم ، وخطأ فى الرأى والاجتهاد يؤدى إلى مخالفة وجه الصواب ، ولذا كفروا علياً بالتحكيم ، مع أنه لم يقدم عليه مختاراً ، ولو سلم أنه اختاره فالأمر لا يعدو مجتهداً أخطأ ولم يصب إن كان التحكيم ليس من الصواب ، فلجاجتهم فى تكفيره رضى الله عنه دليل على أنهم يرون أن الخطأ فى الاجتهاد يخرج عن الدين ، ويفسد اليقين ، وكذلك

كان شأن طلحة والزبير وعثمان وغيرهم من علية الصحابة الذين خالفوهم فى جزئية من الجزئيات ، فكفروهم للاجتهاد الخطأ فى زعمهم .

وقد ساق ابن أبى الحديد أدلتهم التى تمسكوا بها فى تكفير مرتكب الكبيرة ، ورد عليها ، ولا يهمنا وجه الرد ، وإنما يهمنا ذكر بعض هذه الأدلة لنعرف منها وجهات نظرهم ، وكيف كانوا يفكرون ، وسترى أن تفكيرهم كان سطحيا ، لا يتعمقون فى بحث ، ولا يتقصون أطراف موضوع .

وهذه الأدلة كثيرة ، منها قوله تعالى : «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » فجعل تارك الحج كافراً ، وترك الحج كبيرة ، فكل مرتكب كبيرة كافر فى زعمهم ، ومنها قوله تعالى : «ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الكافرون» وكل مرتكب الذنوب قد حكم بغير ما أنزل الله فى زعمهم فهو كافر ، ومنها قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » قالوا والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم ، فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ، ووجب أن يسمى كافراً ، لقوله تعالى « بما كنتم تكفرون » . ومنها قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة » والفاسق على وجهه غبرة ، فوجب أن يكون من الكفرة . ومنها قوله تعالى : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » أثبت الظالم جاحداً ، وهذه صفة الكفار (١) .

كل هذه الدلائل كما ترى ظواهر نصوص ، قد نظروا إليها نظرا سطحيا ولم يدركوا مراميها ولا أسرارها ، ولم يصيبوا هدفها . وكان على رضى الله عنه يحتج على من عاصروه منهم بالحجج الدامغة ، والأدلة القاطعة ، ومما قاله راداً عليهم : فإن أبيتم أن تزعموا إلا أنى أخطأت ، وضللت ، فلم تضللون

---

(١) ملخص من نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الثانى ص ٣٠٧ و ٣٠٨ وارجع إلى الموضوع كاملا فيه .

عامة أمة محمد ﷺ وآله بضلالى ، وتأخذونهم بخطئى ، وتكفرونهم بذنوبى ، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ وآله رجم الزانى المحصن ثم صلى عليه ، ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل ، وورث ميراثه أهله ، وقطع يد السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم قسم عليهما من الفىء ، ونكحا المسلمات فأخذهم رسول الله ﷺ وآله بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله .

وفى ذلك الكلام القيم رد مفعم لهم لا يمارون فيه ، ولايستطيعون أن يثيروا حوله غباراً ، ولعله رضى الله عنه عدل عن الاحتجاج بالكتاب إلى الاحتجاج بالعمل الذى كان عليه النبى ﷺ ، لأن العمل لا يقبل تأويلا ، ولا يفهم إلا على الوجه الصحيح ، فلا يتسع لنظراتهم السطحية ، وتفكيرهم الذى لا يصيب إلا جانبا واحدا ، ولا يتجه إلا إلى اتجاه جزئى ، وفى الاتجاه الجزئى فى فهم العبارات والأساليب ضلال عن مقصدها ، وبعد عن مرماها ، وفى النظرة الكلية الشاملة الصواب ، وإدراك الحق من كل نواحيه . فهو رضى الله عنه جادلهم بالعمل ، حتى يقطع عليهم كل تأويل ، ولكى يبين لهم وضح الحقيقة من غير أن يجعل لتلبيساتهم الفاسدة ، أى باب من أبواب الحيرة والاضطراب .

هذه جملة الآراء التى اعتنقها أكثرهم ، ولم يتفقوا فى غيرها على مذهب أو رأى أو نظر ، بل كانوا كثيرى الخلاف ، يشجر بينهم الخلاف لأصغر الأمور وأقلها ، وربما كان هذا هو السر فى كثير من انهزاماتهم . وكان المهلب بن أبى صفرة الذى كان ترسا للجماعة الإسلامية منهم يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم وخضد شوكتهم من حدتهم ، وإذا لم يجدهم مختلفين دفع إليهم من يثير الاختلاف بينهم .

يحكى ابن أبى الحديد أن حداداً من الأزارقة كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال أنا أكفيكموه

إن شاء الله » فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى بن الفجاءة قائد الخوارج ، فقال له : ألق هذا الكتاب فى العسكر والدراهم ، واحذر على نفسك ، فمضى الرجل وكان فى الكتاب : أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلىّ ، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها ، وزدنا من النصال . فرفع الكتاب إلى قطرى فدعا الحداد فقال: ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى . قال ممن هذه الدراهم ؟ قال لا أعلم بها ، فأمر به فقتل . فجاء عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة فقال : قتلت رجلا على غير ثقة وتبين ؟ قال قطرى : فما حال هذه الألف ؟ قال يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقا . فقال قطرى : إن قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما يراه صالحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له عبد ربه فى جماعة معه ، ولم يفارقوه ، وبلغ ذلك المهلب فدس إليهم رجلا نصرانيا جعل له جعلا يرغب فى مثله ، وقال له إذا رأيت قطريا فاسجد له . فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك . ففعل ذلك النصرانى ، فقال قطرى : إنما السجود لله تعالى . فقال ما سجدت إلا لك . فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبدك من دون الله ، وتلا قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون» فقال قطرى: إن النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم ، فما ضر عيسى ذلك شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله ، فأنكر قطرى ذلك عليه وأنكر قوم من الخوارج إنكاره ، وبلغ المهلب ذلك ، فوجه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل فقال أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين لكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغ الآخر إليكم ، فامتحنتموه فلم يجز المحنة ما تقولون ؟ فقال بعضهم : أما الميت ففى الجنة وأما الذى لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة . وقال قوم آخرون : هما كافران حتى يجيزا المحنة ، فكثر الاختلاف ، وخرج قطرى إلى حدود اصطخر ، فأقام شهراً والقوم فى خلافهم (١) .

---

(١) شرح منهج البلاغة المجلد الأول ص ٤٠١ .

انظر كيف كان ذلك القائد العظيم يستغل حماستهم ، وشدة تعصب كل منهم لرأيه ، وسذاجة تفكيرهم ، وضعف مداركهم ، فيؤرث نيران العداوة بينهم ، ويؤجج لهيب الاختلاف ليكون بأسهم بينهم شديداً ، ويكونوا ضعفاء أمام عدوهم . وفى الحق إن مثارات الخلاف بينهم كانت كثيرة ، وكثيراً ما كانت من غير باذر لبذور الخلاف بينهم ، ولذلك انقسموا إلى فرق كثيرة ، ومن أجل أن نكون على بينة من جدلهم مع غيرهم ، وجدلهم فيما بينهم ، نتكلم كلمة عن أظهر فرقهم ورءوسهم ، وهم :

الأزارقة :

هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفى ، وكانوا أقوى الخوارج شكيمة ، وأكثرهم عدداً ، وأعزهم نفرا ، قاتلوا بقيادة نافع قواد الأمويين وابن الزبير تسعة عشر عاما ، ولما قتل نافع فى ميادين القتال جاء من بعده نافع ابن عبد الله ، ثم قطرى بن الفجاءة ، وفى عهده ضعف شأنهم ، بسبب بغض الناس لهم لشهرتهم بسفك الدماء ، وتألب المسلمين عليهم واختلافهم فيما بينهم ، فهزموا فى كل مكان ، ثم توالت انهزاماتهم من بعده إلى أن انتهى أمرهم ، وقد ذهبوا إلى المبادىء العامة التى ذكرناها للخوارج وزادوا عليها :

١ — أن مخالفيهم من عامة المسلمين ، ومن لا يرون رأيهم من الخوارج مشركون .

٢ — أن أطفال مخالفيهم مشركون مخلدون فى النار .

٣ — دار المخالفين دار حرب ، ويجوز قتل أطفالهم ونسائهم وسبيهم .

٤ — إسقاط حد الرجم عن الزانى ، إذ ليس فى القرآن الكريم ذكره ، وإسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء .

٥ — جواز الكبائر والصغائر على الأنبياء (١) .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

النجدات :

هم أتباع نجدة بن عويمر الحنفى ، وقد خالفوا الأزارقة فى تكفير القعدة من الخوارج واستحلال قتل الأطفال (١) وزادوا عنهم استحلال أهل العهد والذمة . وقد كانوا باليمامة وقد كانوا مع أبى طالوت الخارجى ثم بايعوا نجدة سنة ست وستين ، فقطع أمره وأمرهم حتى استولى على البحرين ، وعمان ، وحضرموت ، واليمن والطائف. ثم اختلفوا على نجدة لأمور نقموها عليه ، منها أنه أرسل ابنه فى جيش فسبوا نساء وأكلوا من الغنيمة قبل القسمة ، فعذرهم . ومنها أنه تولى أصحاب الحدود من أصحابه وقال لعل الله تعالى يعفو عنهم ، وإن عذبهم ، ففى غير النار . ثم يدخلهم الجنة . ومنها أنه أرسل جيشا فى البحر ، وجيشا فى البر ، ففضل الذين بعثهم فى البر فى العطاء .

وقد ترتب على اختلافهم عليه أن انقسموا إلى ثلاث فرق ، فرقة ذهبت إلى سجستان مع عطية بن الأسود الحنفى ، وفرقة ثاروا مع أبى فديك على نجدة فقتلوه ، وفرقة عذرت نجدة فى أحداثه ، وهم الذين بقى لهم اسم النجدات . وقد بقى أبو فديك بعد نجدة إلى أن أرسل إليه عبد الملك بن مروان جيشا هزمه ، وبعث برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فانتهى أمر هذه الطائفة .

الصفرية :

أتباع زياد بن الأصفر ، وهم فى آرائهم أقل تطرفا من الأزارقة . وأشد من غيرهم ، قد خالفوا الأزارقة فى مرتكبى الكبائر ، فلم يتفقوا على إشراكه ، بل منهم من يرى أن الذنوب التى فيها الحد ، لايتجاوز بمرتكبها الاسم الذى سماه الله به كالسارق والزانى ، وما ليس فيه حد فمرتكبه كافر ، ومنهم من يقول إن صاحب الذنب لا يكفر حتى يحده الوالى .

---

(١) وقد علمت مما مضى أن النجدات لا يرون إقامة إمام واجبا شرعيا، ومما خالف فيه نجدة نافعا جواز التقية فانه يجيزها ونافع يمنعها .

ومن الصفرية أبو بلال مرداس وكان رجلا صالحا زاهدا . خرج فى أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة ، ولم يتعرض للناس ، وكان يأخذ من مال السلطان ما يكفيه إن ظفر به ، ولايريد الحرب ، فأرسل إليه عبيد الله ابن زياد جيشا قضى عليه ، ومنهم عمران بن حطان ، وكان شاعرا زاهدا قد طوف فى البلاد الإسلامية ، فاراً بنحلته ، وقد انتخبه هؤلاء الخوارج إماما لهم بعد أبى بلال .

العجاردة :

هم أصحاب عبد الكريم بن عجرد أحد أتباع عطية بن الأسود الحنفى ، وهم قريبون جداً من النجدات فى أصل نحلتهم ، وجملة آرائهم أنهم يتولون القعدة من الخوارج إذ عرفوا بالديانة ، ويرون الهجرة فضيلة لافرضا ، ولا يكون مال المخالف فيئاً إلا إذا قتل صاحبه .

وقد افترقت العجاردة فرقا كثيرة فى أمور، منها ما يتعلق بالقدر وقدرة العبد ، ومنها ما يتعلق بأطفال المخالفين ، وكان يدفعهم إلى الخلاف مسائل جزئية فينتهى الأمر إلى الكلام فى قضايا عامة تصيرهم فرقا وأحزابا ، ومن أمثلة ذلك أن رجلا منهم اسمه شعيب كان مدينا لآخر اسمه ميمون فلما تقاضى هذا دينه ، قال شعيب : أعطيكه إن شاء الله . فقال ميمون : قد شاء الله ذلك الساعة . فقال شعيب : لو كان قد شاء ذلك لم أستطع إلا أن أعطيكه . فقال ميمون : قد أمر الله بذلك ، وكل ما أمر به فقد شاءه ، وما لم يشأ لم يأمر به ، فافترقت العجاردة فى ذلك إلى ميمونية وشعيبية ، وكتبوا إلى رئيسهم عبد الكريم . فقال : إنما نقول ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا نلحق بالله سوءا ، فادعى كل أن الجواب يؤيده .

ويروى أن عجرديا اسمه ثعلبة كانت له بنت فخطبها عجردى آخر وأرسل إلى أمها يسألها ، هل بلغت البنت فان كانت قد بلغت ، ورضيت الإسلام على الشرط الذى تعتبره العجاردة ، لم يبال كم كان مهرها . فقالت

إنها مسلمة فى الولاية سواء أبلغت أم لم تبلغ ، فرفع الأمر إلى عبد الكريم ، فاختار البراءة من الأطفال ، وخالفه ثعلبة ، وافترقت العجاردة على ذلك إلى ثعالبة وميمونية .

الإباضية :

هم أتباع عبد الله بن إباض ، وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا ، فهم أبعد عن الشطط والغلو ، وأقرب إلى الاعتدال ، وجملة آرائهم :-

١ - أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ، ولا مؤمنين ، ويسمونهم كفاراً ، ويروى عنهم أنهم قالوا إنهم كفار نعمة .

٢ - دماء مخالفيهم حرام فى السر لا فى العلانية ؛ ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان .

٣ - لا يحل من غنائمهم فى الحرب إلا الخيل والسلاح ، وكل ما فيه قوة فى الحروب ، ويردون الذهب والفضة إلى أصحابها .

٤ - تجوز شهادة المخالفين ، ومناكحتهم ، والتوارث معهم .

ومن هذا يتبين اعتدالهم ، وقربهم من إنصاف المخالفين ، ومن أجل ذلك بقوا إلى اليوم فى بعض جهات العالم الإسلامى .

• خوارج لا يعدون من المسلمين :

قام مذهب الخوارج على الغلو والتشدد فى فهم الدين ، فضلوا ، وأجهدوا أنفسهم والمسلمين بضلالهم ، ولكن المسلمين الصادقى الإيمان لم يحكموا بكفرهم وإن حكموا بضلالهم ، ولذا روى أن علياً رضى الله عنه أوصى أصحابه بألا يقاتل أحد الخوارج من بعده ، لأن من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فناله ، فعلى رضى الله عنه كان يعتبرهم طالبين للحق ، قد جانبوا طريقه ، ويعتبر الأمويين طالبين للباطل ، وقد نالوه ، ولكن نبت فى الخوارج فرق قد ذهبوا مذاهب ليس فى كتاب الله ما يؤيدها ، بل فيه

ما يناقضها من غير أى تأويل ، وقد ذكر عبد القاهر الجرجانى فى كتابه الفرق بين الفرق طائفتين من الخوارج عدهما خارجتين عن الإسلام ، وهما :

١ - اليزيدية :

هم أتباع يزيد بن أبى أنيسة الخارجى ، وكان إباضيا ، ثم ادعى أنه سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ الشريعة المحمدية . وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى .

٢ - الميمونية :

وهم أتباع ميمون العجردى الذى ذكرآنفا فى مسألة الخلاف فى الدين . وقد أباح نكاح بنات الأولاد ، وبنات أولاد الإخوة ، والأخوات . وقال فى علة ذلك أن القرآن الكريم لم يذكرهن فى المحرمات ، وروى عن هؤلاء الميمونية أنهم أنكروا سورة يوسف ، ولم يعدوها من القرآن الكريم ، لأنها قصة غرام فى زعمهم ، لايصح أن تضاف إليه ، فقبحهم الله لسوء ما يعتقدون .

* * *

جدل الخـــوارج

اتصف الخوارج بصفات كثيرة جعلتهم قوما خصمين ، يجادلون عن مذهبهم ويلتقطون الحجج من خصومهم ، ويستمسكون بآرائهم ، لا يتركون منها ناحية فيها إضعاف لمناقشتهم من غير أن يتجهوا إليها ، ولكن مع ذلك كانت فيهم صفات أخرى لم يصلوا بسببها إلى أعلى درجات الجدال والخصام ، وجملة صفاتهم الجدلية التي رفعت جدلهم . والتي خصصتهم تتبين فيما يلى ، فقد اتصفوا بالصفات الآتية :

١ — بالفصاحة وطلاقة اللسان ، والعلم بطرق التأثير بالبيان ومخاطبة الوجدان.وكانوا مع ذلك ثابتى الجنان ، رابطى الجأش ، لا يشدهون أمام قوة مجادلهم ، ولا تعروهم رهبة من أى موقف ، ولا تأخذهم حبسة فكرية تمنعهم من أى مذهب من مذاهب البيان .

روى أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم . فبحثه فرأى منه ما شاء فهما وعلما ، ثم بحثه فرأى ما شاء أربا ودهيا . فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصرا محققا ، فزاده فى الاستدعاء . فقال لتغنك الأولى عن الثانية ، وقد قلت فسمعت ؛ فاسمع أقل . قال له قل . فجعل يبسط له من قول الخوارج ، ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم . ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة وقرر فى قلبى من الحق ، فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطنى الله فى الدنيا ، ومكن لنا فيها ، وأراك لست تجيب بالقول ، والله لأقتلنك إن لم تطع ، وبينما هما فى الحديث إذ دخل على عبد الملك ابن له باكيا لضرب المؤدب إياه ، فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى ، فقال له : دعه يبك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عيناه إذا حضرته

طاعة ربه ، فاستدعى عبرتها . فأعجب ذلك عبد الملك ، فقال : أما يشغلك ما أنت فيه ، وبعرضه عن هذا ، فقال: ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء . فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال يعتذر إليه : لولا أنك تفسد بألفاظك أكثر رعيتى ما حبستك ، ثم قال : من شككنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى وكل رؤساء الخوارج ، وكثير من جموعهم على هذا الطراز من طلاقة اللسان ، وبلاغة البيان ، وقوة الجنان ، وثبات الجأش ، وقوة الإيمان ، ولعل السر فى فصاحتهم ، وقـوة جنانهم أن أكثرهم من العرب ؛ وقد امتازوا بالفصاحة والشجاعة وقوة النفس .

٢ — وكانوا مع فصاحتهم وقوة جنانهم على علم فى الجملة بالكتاب والسنة وأشعار العرب ، وكان زعماؤهم معنيين بدراسة الكتاب ، وفقه الحديث وآثار العرب مع ذكاء شديد ، وعارضة قوية ، وحضور بديهة ، وكانوا ينتجعون فى طلب الدين إلى كل مجتمع ، ويطلبونه حيثما كان .

يروى أن نافع بن الأزرق شيخ الأزارقة كان ينتجع عبد الله بن عباس ، فيسأله .. سأله مرة عن معنى قوله تعالى : « والليل وما وسق » ، فقال ابن عباس ، وما جمع ، فقال أتعرف ذلك العرب ؟ قال أما سمعت قول الراجز (١)

إن لنـا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقـا

وسأله مرة قائلا : أرأيت نبى الله سليمان مع ما خوله الله ، وأعطاه ، كيف عنى بالهدهد على قلته وضئولته .

فقال له ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء ، والهدهد قناء الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها . فسأل عنه لذلك . قال ابن الأزرق : قف بأوقاف كيف يبصر ما تحت الأرض ، والفخ يغطى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ، فقال ابن عباس: ويحك يابن الأزرق، أما علمت أنه إذا جاء القدر غشى البصر .

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ .

ويروى أنه مرة أخذ يسأله حتى أمله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر وطلع عمر بن أبى ربيعة وهو يومئذ غلام فسلم وجلس . فقال ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك ، فأنشده القصيدة التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجـــر

فقال ابن الأزرق : لله أنت ، يابن عباس ، أنضرب إليك أكباد الإبل ، نسأ لك عن الدين ، فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش ، فينشدك سفها فتسمعه ، قال:تالله ما سمعت سفها (١) .

انظر إلى زعمائهم كيف يطلبون علم ابن عباس مع أنه كافر فى زعمهم ، مبطل فى اعتقادهم ، ولكنه علم الكتاب هو الذى دفعهم لأن يجلسوا مجلس التلميذ من حبر هذه الأمة ، وإن زعموا فيه زيغا وخروجا ، وكأنهم يعتقدون أنه ممن أضلهم الله على علم ، قبحهم الله .

٣ — وكانت فيهم رغبة شديدة للمناقشة والمجادلة ومساجلة الآراء والمذاهب حتى أنهم فى القتال كانوا يتواقفون أحياناً كثيرة ، ويتناقشون مع مقاتليهم فى الأمور والولاة ، وينشدونهم بعض الأشعار .

جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : روى أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى الكبير ، قال : كانت الشراة والمسلمون فى حرب المهلب وقطرى يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين ، وغير ذلك على أمان وسكون لا يهيج بعضهم بعضا . فتواقف يوما عبيدة بن هلال اليشكرى ، وأبو حرابة التميمى ، فقال عبيدة: يا أبا حرابة إنى سائلك عن أشياء ، أفتصدقنى عنها فى الجواب . قال : نعم إن ضمنت لى مثل ذلك . قال قد فعلت ، قال:فسل عما بدا لك . قال : ما تقولون فى أئمتكم . قال : يبيحون الدم الحرام . قال ويحك ، فكيف فعلهم فى المال ، قال يجمعونه من غير حله ،

---

(١) ملخص من الكامل ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠ .

وينفقونه فى غير وجهه . قال : فكيف فعلهم فى اليتيم . قال : يظلمونه ماله ، ويمنعونه حقه .. قال : ويحك يا أبا حرابة أمثل هؤلاء تتبع ؟ ..

وروى أبو الفرج أيضا ، قال:كان عبيدة إذا تكاف الناس ، ناداهم ليخرج إلى بعضكم ، فيخرج إليه فتيان من عسكر المهلب ، فيقول لهم:أيما أحب إليكم أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الأشعار ؟ فيقولون له: أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ، ولكن تنشدنا ، فيقول: يا فسقة ، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ، ثم لا يزال ينشدهم حتى يملوا ويفترقوا (١) .

وترى من هذا أن حب المناقشة والمناظرة قد استولى عليهم ، حتى كانوا يتواقفون مع مقاتليهم ، ليجادلوهم ويساجلوهم الأفكار والمذاهب والأشعار .

وكان يسود التعصب لآرائهم جدلهم ، فهم لايسلمون لخصومهم بحجة ولا يقتنعون بفكرة مهما تكن قريبة من الحق ، أو واضحة الصواب ، بل لا تزيدهم حجة خصومهم ، إلا إمعانا فى اعتقادهم ، وبحثا عما يؤيده ، والسبب فى ذلك استيلاء أفكارهم على نفوسهم ، وتغلغل مذاهبهم فى أعماق قلوبهم . واستهواؤها لكل مواضع تفكيرهم وطرق إدراكهم ، وكان فيهم مع ذلك لدد وشدة خصومة تمثل نزعتهم البدوية ، وروحهم العربية وحماستهم التى اشتهر بها العرب من قديم الزمان .

وقد دفعهم ذلك التعصب إلى أن يدركوا الحق من جانب واحد ، ولايدركوه من كل ناحية ، وذلك لأن عصبيتهم الشديدة ، وحدتهم وسيطرة المذهب عليهم ، جعلتهم لا ينظرون إلا تحت ضوئه ، ولايدركون إلا تحت سلطانه . ولايعرفون إلا ما يدعو إليه ، وينصره . ولاتزيدهم حجج الخصوم إلا عنادا وإصرارا . بل لقد دفعتهم رغبتهم فى نصرة مذهبهم إلى أن يخترعوا أحيانا أحاديث ، وينسبوها إلى رسول الله ﷺ ، حتى روى عن بعضهم أنه رجع عن مذهب الخوارج ، فدعا المسلمين لأن ينظروا فى أحاديث رسول الله ﷺ ، لأنهم كانوا إذا لم يجدوا الدليل كذبوا على النبى ﷺ بحديث ، واحتجوا على الناس .

---

(١) المجلد الأول ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

وكانوا فى جدلهم بالقرآن الكريم يتمسكون بظواهره ، ولا يحيطون علما بمراميه وغايته ، وكلما ذكرت لهم آية فهموها كما يبدو من لفظها ، ويظهر بادىء الرأى منها ، وربما كانت لا تنطبق بأى نوع من الانطباق على موضوعهم الذى يجادلون فيه ، أو كان الانطباق غير واضح أو مستقيم .

يروى أن عبيدة بن هلال اليشكرى الذى ذكرناه آنفاً اتهم بامرأة رجل حداد رأوه مراراً يدخل منزله بغير إذنه ، فأتوا قطريا : فذكروا له ذلك ، فقال لهم أن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم . فقالوا إنا لا نقاره على الفاحشة . فقال : انصرفوا . ثم بعث إلى عبيدة . فأخبره . وقال إنه لا يقار على الفاحشة فقال بهتونى يا أمير المؤمنين ، فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البرىء ، فجمع بينهم ، فتكلموا ، فقام عبيدة ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم .. » إلى آخر الآيات الكريمات . فلما سمعوها بكوا ، وقاموا إليه واعتنقوه ، وقالوا استغفر لنا (١) . انظر كيف استولى عليهم بمجرد تلاوة القرآن الكريم ، فأقروه وبرءوه من غير أن ينظروا : أهو إفك رمى به ، فتنطبق عليه الأوصاف المذكورة فى الآيات الكريمة . أم حقيقة توجب الحد ، والخروج عن حظيرة الإيمان فى زعمهم ، ولكنهم قوم تغلب عليهم العاطفة ، ويغلب عليهم النظر السطحى لا يعدونه ، ولذا أصدروا الحكم بالبراءة بعد الحكم بالفاحشة ، وانتقلوا من النقيض إلى النقيض .

والقول الجملى : إن مجادلاتهم كانت يسودها الفصاحة ، والتعصب على غيرهم من المسلمين ، والنظر إلى ظواهر النصوص من غير تعمق فى مراميها ، وسبر لأغوارها ، وكانوا لا يدركون الحق إلا من ناحية واحدة ، ناحية مذهبهم .

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

نماذج من جدل الخوارج

مناظرة عبد الله بن عباس وعلى رضى الله عنهم للخوارج :

بعث على ابن عباس إلى الخوارج وقال لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلمونه ، فلم يصبر ، حتى راجعهم فقال :

ما نقمتم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل : « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » فكيف بأمة محمد ﷺ ، فقالت الخوارج قلنا . أما ما جعل حكمه إلى الناس ، وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به وما حكم به فأمضاه ، فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزانى مائة جلدة وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : « يحكم به ذوا عدل منكم » فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين . فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمين يقاتلنا ، ويسفك دماءنا،فإن كان عدلا فلسنا بعدول ، ونحن أهل حربه. قد حكمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عز وجل ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا ، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة ، وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب ، منذ نزلت براءة . وبعث على زيد بن النضر إليهم ، فقال انظر بأى رءوسهم هم أشد إطافة ، فنظر فأخبره أنه لم يرهم عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس ، فخرج على فى الناس .

ولما انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس ، قال انته عن كلامهم ، ألم أنهك رحمك الله ، ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث ،

فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال لهم : من زعيمكم . قالوا ابن الكواء . قال على : فما أخرجكم علينا . قالوا حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله ، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إنى أعلم بالقوم منكم إنهم ليسوا أصحاب دين ولا قرآن، إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهنا ومكيدة، فرددتم على رأيى ، وقلتم لا ، بل نقبل منهم . فقلت لكم اذكروا قولى لكم ومعصيتكم إياى . ، فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن . فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن الكريم . وإن أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء . فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن ، إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال ، قالوا فخبرنا عن الأجل لم جعلته بينك وبينهم . قال ليعلم الجاهل . ويتثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم .

٢ — محادلة على للخوارج قبل قتالهم :

لما قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الأرت أرسل إليهم على أن أسلموا قاتل عبد الله بن خباب ، فأرسلوا إليه إنا كلنا قتله ، ولئن ظفرنا بك لقتلناك. فأتاهم على فى جيشه ، وبرزوا إليه بجمعهم . فقال لهم قبل القتال : ماذا نقمتم منى ؟ فقالوا أول ما نقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ماوجدنا فى عسكرهم من المال ، ومنعتنا من سبى نسائهم وذراريهم ، فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ؟ فقال إنما أبحت لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم ، والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام ، بحكم دار الإسلام ، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم

يكفر . وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة فى سهمه . فخجل القوم من هذا ، ثم قالوا له : نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين عن اسمك فى الكتاب بينك وبين معاوية لما نازعك معاوية فى ذلك , فقال : فعلت مثل ما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين قال سهيل بن عمر لو علمت أنك رسول الله ما نازعتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ؛ فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمر .

وأخبرنى رسول الله ﷺ أن لى منهم يوما مثل ذلك ؛ فكانت قصتى فى هؤلاء الأبناء قصة رسول الله ﷺ مع الآباء . فقالوا له : فلم قلت للحكمين فإن كنت أهلا للخلافة فاثبتانى ، فإن كنت فى شك فى خلافتك فغيرك بالشك يكون أولى . فقال إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، ولو قلت للحكمين احكما لى بالخلافة لم يرض بذلك معاوية ، وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة ، وقال لهم : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ، فأنصفهم بذلك من نفسه ، ولو قال أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم لم يرض النصارى بذلك ؛ لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسى ، ولم أدر غدر عمرو بن العاص ، قالوا : فلم حكمت الحكمين فى حق كان لك . فقال وجدت رسول الله ﷺ قد حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضاً حكما لكن حكم رسول الله عليه الصلاة والسلام حكم بالعدل . وحكمى خدع حتى كان من الأمر ما كان ، فهل عندكم شىء سوى هذا ، فسكت القوم ، وقال أكثرهم : صدق والله ، وقالوا : التوبة ، واستأمن إليه منهم ثمانية آلاف وبقى أربعة آلاف .

مكاتبة
بين نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر

أرسل نجدة بن عويمر إلى نافع فقال :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فانى عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم وللضعيف كالأخ البر ، لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ، فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق غصه ، وركبت مره تجرد لك الشيطان ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ، فغويت ، فأكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعده الصدق : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله » ، ثم سماهم أحسن الأسماء فقال تعالى : « ما على المحسنين من سبيل » ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ، وقال عز ذكره : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . وقال فى القعد خيراً وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا يدفع

فكتب إليه نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظنى فيه ، وتذكرنى ، وتنصح لى ، وتزجرنى ، وتصف ماكنت عليه من الحق وما كنت أوثره من الصواب . وأسأل الله عز وجل أن يجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وعبت على ما دنت به من إكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، فسأفسر لك ذلك إن شاء الله تعالى :

أما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأنهم كانوا بمكة المكرمة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد فقهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن الكريم ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ماقال الله عزوجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا « كنا مستضعفين فى الأرض » ، فقيل لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها » ، وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » ، وقال تعالى : «وجاء المعذرون من الأعراب ، ليؤذن لهم» فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله . وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » . فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحاً عليه السلام كان أعلم بالله يانجدة منى منك ، فقال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » فسماهم بالكفر ، وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نقوله فى قومنا ، والله يقول : « أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة فى الزبر » . وهؤلاء كمشركى العرب لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

أما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال طلق ، وأموالهم فىء للمسلمين ، فاتق الله ، وراجع نفسك ، فإنه لا عذر إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا ، والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقنا ومقالتنا .

والسلام على من أقر بالحق وعمل به .

مناظرة بين خارجي وعمر بن عبد العزيز

فى السنة المكملة للمائة خرج شوذب على عمر بن عبد العزيز ، واسمه بسطام ، وهو من بنى يشكر ، فأرسل إليه عمر كتابا جاء فيه :

بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم إلى أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك .

فكتب هذا إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك .

وأرسل مولى لبنى شيبان حبشياً اسمه عاصم ، ورجلا من بنى يشكر ، فقدما على عمر ، فقال لهما ما أخرجكما هذا المخرج ، وما الذى نقمتم ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا الناس ومشورة ، أم ابتززتهم أمرهم . فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس ، فاتركونى ذلك الرجل فإن خالفت الحق ، ورغبت عنه ، فلا طاعة لى عليكم ، قالا : بيننا وبينك أمر واحد . قال ماهو؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، فإن كنت على هدى ، وهم على ضلالة فالعنهم ، وابرأ منهم . فقال عمر : فقد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم طريقها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعانا ، وقال الخليل إبراهيم «فن تبعنى ، فإنه منى ، ومن عصانى ، فإنك غفور رحيم » وقال الله عز وجل : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » . وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها ، فإن قلتم إنها فريضة ، فأخبرنى متى لعنت فرعون . قال ماأذكر متى لعنته . قال أفيسعدك ألا تلعن

فرعون وهو أخبث الخلق وأشرهم ، ولا يسعنى الأن ألعن أهل بيتى ، وهم مصلون صائمون .

قال : أما هم كفار بظلمهم . قال لا ، لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه ، قال: أحدث حدثا أقيم عليه الحد . فقال الخارجى أن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله . والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر ، فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ؛ ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء ، قال عاصم فابرأ مما خالف عملك ، ورد أحكامهم. قال عمر أخبرنى عن أبى بكر وعمر ، أليسا على الحق . قالا بلى . قال أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة ، سفك دماءهم ، وسبى الذرارى وأخذ الأموال ، قالا: بلى ؛ قال أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية . قالا نعم قال فهل برىء عمر من عمل أبى بكر . قالا لا . قال : أفتبرءون أنتم من واحد منهما . قالا : لا . قال فأخبرانى عن أهل النهروان ، وهم أسلافكم هل تعلمان أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ، ولم يأخذوا مالا ، وإن من خرج إليهم من أهل البصرة ، قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهى حامل . قالا : نعم . قال فهل برىء هو . قالا : نعم . قال فهل برىء من لم يقتل ممن قتل . قالا : لا . قال : أفتبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا . قال : أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة . وقد علمتم اختلاف أعمالهم ، ولا يسعنى إلا البراءة من أهل بيتى ، والدين واحد ، فاتقوا الله ، فإنكم جهال ، تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ ، وتردون عليهم ما قبل ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده. فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله ﷺ أمنه وحقن دمه وماله ، وأنتم تقتلونه. ويأمن عندكم سائر أهل الأديان ، فتحرمون دماءهم وأموالهم . فقال اليشكرى: أرأيت رجلا ولى قوما وأموالهم ، فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير

مأمون . أتراه أدي الحق الذى يلزمه لله عز وجل ، أو تراه قد سلم ، قال عمر لا . قال أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك ، وأنت تعرف أنه لايقيم فيه بالحق قال إنما ولاه غيرى ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى ، قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا ، فبكى عمر ، وقال انظرانى ثلاثا فخرجا من عنده ثم عادا إليه ؛ فقال عاصم أشهد أنك على حق . فقال عمر لليشكرى ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر ، اعرض عليهم واعلم حجتهم أ هـ .

* * *

المرجئة [1]

ابتدأت هذه الفرقة سياسية . ولكنها أخذت تخلط بالسياسة أصول الدين ، وكونوا لهم رأياً سلبياً فى الأمر الذى شغل الأفكار الإسلامية فى العصر ، وهو مسألة مرتكب الكبيرة التى أثارها الخوارج والشيعة ، وأهل الاعتزال ، ولنشأتها السياسية عددناها فى الفرق السياسية .

والبذرة الأولى التى نبت منها نبت هذه الفرقة كانت فى عصر الصحابة فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه ، فإن القالة فى حكم عثمان وعماله لما شاعت ، وذاعت ، وملأت البقاع الإسلامية ، ثم انتهت بقتله — اعتصمت طائفة من الصحابة بالصمت العميق ، وتحصنت بالامتناع عن الاشتراك فى تلك الفتن التى مرج المسلمون فيها مرجا شديدا ، وتمسكوا بحديث أبى بكر عن النبى ﷺ إذ قال : ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، ألا فإذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه . فقال رجل : يارسول الله من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد إلى سيفه ، فيدق على حده بحجر ، ثم لينج إن استطاع النجاة . وامتنعوا عن الخوض فى الحروب التى وقعت بين المسلمين ، ولم يعنوا أنفسهم بالبحث عن المحق فى الطائفتين المتقابلتين ، ومن هؤلاء سعد بن أبى وقاص ، وأبو بكر راوى الحديث السابق ، وعبد الله بن عمران بن الحصين وغيرهم ، وبهذا

---

(١) الإرجاء على معنيين : أحدهما التأخير مثل (أرجه وأخاه) أى أمهله وأخره . والثانى إعطاء الرجاء . أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والقصد . وأما بالمعنى الثانى فظاهر ، فانهم كانوا يقولون . لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع من الكفر طاعة . وقيل الإرجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يحكم عليه بحكم ما فى الدنيا ، من كونه من أهل الجنة . أو من أهل النار فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان ، وقيل : المرجئة تأخر على رضى الله عنه من الدرجة الأولى إلى الرابعة . فعلى هذا المرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان (الملل والنحل للشهرستانى) .

أرجئوا الحكم فى أى الطائفتين أحق وفوضوا أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد قال النووى فى قضايا هذه الفتن ومسائلها : إن القضايا كانت بين الصحابة مشتبهة ، حتى أن جماعة من الصحابة تحيروا فيها ، فاعتزلوا الطائفتين ، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب ، وقال ابن عساكر فى هذا المقام وفى بيان أصحاب هذه الفرقة : إنهم هم الشكاك الذين شكوا ، وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان ، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ، ليس بينهم اختلاف ، فقالوا تركناكم وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول : قتل عثمان مظلوما : وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول : كان على أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة ، وعندنا مصدق ، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما إلى الله سبحانه حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما .

ولما تكونت الفرق الإسلامية ، فأعلن الشيعة الإفراط الشديد فى التعصب لآل البيت ، والمغالاة فى ذلك حتى تهجموا على العلية من الصحابة ، وكفروا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، إذ فرضوا بينهم وبين على من العداوات مالا يتصور إلا فى أخيلتهم الفاسدة ، ونحلهم الكاذبة . والخوارج كفروا جماهير المسلمين ، وأعلنوا نحلة جديدة لم يكن للمسلمين بها علم من قبل وهى تكفير كل مذنب ، ومن وراء الجميع الدولة الأموية تزعم أن المسلمين هم الذين انضووا تحت لوائهم ، وخضعوا طائعين أو كارهين لسلطانهم ، وقبلوا راضين أو غير راضين حكمهم ، ومن عداهم جانف بنفسه عن الملة ، وبعد عن الدين .

لما حدث ذلك الانقسام ، امتنع المرجئون عن مناصرة فريق ، وأرجئوا الحكم فى أمرهم ، وفوضوه إلى الله علام الغيوب . فلم يريدوا أن يخوضوا فى حديث سياسى ، وامتنعوا حتى عن ذكر الأمويين بسوء ، وقالوا فيهم : إنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فليسوا إذن كفارا ولا مشركين . بل مسلمين نرجىء أمرهم إلى الله سبحانه الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها .

ولما كثر البحث فى أمر مرتكب الكبيرة ، وادعى الخوارج كفره وشنوا الغارة على كل المسلمين ، وأقاموا حربا شعواء على جماهيرهم ، وكانوا شوكة حادة فى جنب حكامهم ، فوض المسلمون الأمر فى مرتكب الكبيرة وأرجئوا الحكم على مرتكبها كما أرجئوا الحكم فى غيره ، ثم خلف من بعد هؤلاء خلف ، نحله المخالفون اسم المرجئة ولم يكن موقف هذا الخلف بالنسبة لمرتكب الكبيرة موقفاً سلبياً كالأول ، بل حكم بأن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، فالإيمان منفصل عن العمل ، ومنهم من غالى وتطرف ، فزعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب ، وإن أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان ، أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك ، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ؛ وهو ولى لله عز وجل ومن أهل الجنة (١) .

بل إن بعضهم زعم أن لو قال قائل : أعلم أن الله قد حرم أكل الخنزير ولا أدرى هل الخنزير الذى حرمه الله هذه الشاة أم غيرها كان مؤمنا . ولو قال أعلم أنه قد فرض الحج إلى الكعبة الشريفة غير أنى لا أدرى أين الكعبة ، ولعلها بالهند ، كان مؤمنا ، ومقصوده أن أمثال هذه الاعتقادات أمور وراء الإيمان لا أنه شاك فى هذه الأمور ، فإن عاقلا لا يستجيز من عقله أن يشك فى أن الكعبة إلى أية جهة هى ، وأن الفرق بين الخنزير والشاة ظاهر (٢) .

ووجد فى ذلك المذهب المستهين بحقائق الإيمان وأعمال الطاعات كل مفسد مستهتر ما يرضى نهمته ، فأعلنه له نحلة ، واتخذه له طريقا ومذهبا ، حتى لقد كثر المفسدون ، واتخذوه ذريعة لمآثمهم ومبرراً لمفاسدهم وساترا لأغراضهم الفاسدة ، ونياتهم الخبيثة ، وصادف هوى فى أكثر المفسدين الغاوين ، ومما يحكيه أبو الفرج الأصفهانى فى هذا المقام ما يروى من أن

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم .
(٢) الملل والنحل للشهرستانى .

شيعيا ومرجئا اختصما فجعلا الحكم بينهما أول من يلقاهما ، فلقيهما أحد الإباحيين المستهترين فقالا له أيهما خير الشيعى أم المرجئ فقال ألا إن أعلاى شيعى وأسفلى مرجىء .

وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن كلمة المرجئة كانت تطلق على طائفتين إحداهما متوقفة فى حكم الخلاف الذى وقع بين الصحابة والخلاف الذى كان فى العصر الذى ولى عصر الصحابة وهو العصر الأموى . والثانية الطائفة التى ترى أن الله يعفو عن كل الذنوب ما عدا الكفر فلا يضر مع الإيمان معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة ، وقد وجد الفساق فى هذا المذهب الباب مفتوحا لمساويهم ، ولذا قال فى هذا القبيل زيد بن على بن الحسين : أبرأ من المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله . وقد جعلت الطائفة اسم المرجئة من الشنائع التى كانت تسب بها الفرق .

ولقد كان المعتزلة يطلقون اسم المرجئة على كل من لايرى أن صاحب الكبيرة ليس مخلداً فى النار ، بل يعذب بمقدار ، وقد يعفو الله عنه ، ولذا أطلق على أبى حنيفة وصاحبيه رضى الله عنهم مرجئة بهذا الاعتبار . ولقد قال فى هذا المقام الشهرستانى فى الملل والنحل : ولعمرى ، لقد كان يقال لأبى حنيفة وأصحابه مرجئة السنة ، وعده كثير من أصحاب المقالات من جملة المرجئة . ولعل السبب فيه أنه لما كان يقول الإيمان التصديق بالقلب ، وهو لا يزيد ولا ينقص ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان . والرجل مع تحرجه فى العمل كيف يفتى بترك العمل ، وله وجه آخر ، وهو أنه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا فى الصدر الأول . والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم فى القدر مرجئاً وكذلك الخوارج ، فلابد أن اللقب إنما من فريقى المعتزلة والخوارج .

وقد عد من المرجئة على هذا النحو عدد كبير غير أبى حنيفة وأصحابه منهم الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ، وسعيد بن جبير ، وطلق

ابن حبيب ، وعمرو بن مرة ، ومحارب بن دثار ، ومقاتل بن سليمان ، وحماد بن أبى سليمان ، وقديد بن جعفر ، وهؤلاء كلهم أئمة الحديث لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة ، ولم يحكموا بتخليدهم فى النار .

هذا وقد كانت تعقد مجالس للمناظرة بين المرجئة وغيرهم ، وخصوصا الخوارج ، وقد جاء فى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى أن ثابت بن قطنة قد جالس قوما من الشعراء وقوما من المرجئة كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان ، فمال إلى قول المرجئة وأحبه ، فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدة قالها فى الإرجاء وهى :

يا هند إنى أظن العيش قد نفدا ... ولا أرى الأمر إلا مدبرا نكدا
إنى رهينة يوم لست سابقه ... إلا يكن يومنا هذا فقد أفدا
بايعت ربى بيعا إن وفيت به ... جاورت قتلى كراما جاوروا أحدا
يا هند . فاستمعى لى . إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
ترجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهمو ... والمشركون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا ... م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا
لانسفك الدم إلا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجر التقى إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى عليا وعثمانا بسعيهما ... ولست أدرى بحق أية وردا
الله أعلم ماذا يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا

الفِرق الدينيّة

علمت كيف كان اختلاف الفرق السياسية ، وكيف كان جدلها فى الجملة ، وكيف ابتدأت سياسية ، ثم تناولت بحوثها ونظرياتها بحوثا دينية بحتة ، ومنهم من غلبت عليه النظريات الدينية آخر الأمر كالمرجئة . والآن نتكلم عن فرق ابتدأت دينية ، واستمرت دينية . وما خالطها من البحوث السياسية كان تحت سيطرة الفكرة الدينية ، وبطريق النظر العرضى لا الجوهرى . ونختار من هذه الفرق ثلاثا نتكلم عنها بكلمات موجزة هى : القدرية والجبرية الجهمية والمعتزلة . ونعقب الكلام فى كل فرقة بصور من جدلها لنكون على بينة من أمرها .

الجبرية

خاض المسلمون فى حديث القدر ، وقدرة الإنسان بجوار إرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته فى عهد الصحابة رضى الله عنهم . ولكن سيادة السليقة العربية والنفس القريبة من الفطرة ، جعلتهم لا يتعمقون فى بحث هذه المسائل ولا يغوصون إلى أعماقها ، ولا يتغلغلون فى بحوثها ، ويسيرون فى طريق مذهبى يسيطر عليهم ، أما بعد عهدهم ، وانقراض أكثرهم واختلاط المسلمين بأصحاب الديانات القديمة وأهل الملل والنحل ، وكثرة المذاهب والفرق . فقد استفاض قولهم ، واتسعت بحوثهم ، وسلكوا مسالك أصحاب الديانات القديمة فى بحث هذه المسائل .

ففريق منهم وهم الذين نحن بصدد بيانهم زعموا أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، وليس له مما ينسب إليه من الأفعال شىء ، فقوام هذا المذهب ، نفى العقل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى . . إذ العبد لا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات . وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات ، وكما يقال أثمرت الشجرة ، أو جرى الماء ،

وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، وازدهرت الأرض ، وأنبتت . . إلى غير ذلك . والثواب والعقاب جبر .. وإذا أثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً (١) .

وقد قال ابن حزم فى بيان وجهة نظر أهل الجبر فى زعمهم ، احتجوا فقالوا : لما كان الله تعالى فعالا ، لايشبهه شيء من خلقه ، وجب ألا يكون أحد فعالا غيره ، وقالوا أيضاً معنى إضافة العقل إلى الإنسان إنما هو كما تقول : مات زيد وإنما أماته الله . وقام البناء وإنما أقامه الله تعالى .

وقد خاض المؤرخون فى بيان أول من تكلم بهذه النحلة ، وأكثروا. وأعتقد أن النحلة التى تصير مذهبا من الصعب تعرف أول من نطق بها ، ولهذا يصعب أن نعين أولا لهذه الفكرة ، وأن نذكر مبدأ لقولها . ولكنا نجزم بأن القول والجبر شاع فى أول العصر الأموى وكثر حتى صار مذهبا فى آخره ، وبين أيدينا رسالتان لعالمين جليلين عاشا فى أول العصر الأموى ذكرهما المرتضى فى كتاب المنية والأمل إحداهما لعبد الله بن عباس يخاطب بها جبرية أهل الشام وينهاهم عن القول بالجبر فيقول فيها : أما بعد ، أتأمرون الناس بالتقوى ، وبكم ضل المتقون ، وتنهون الناس عن المعاصى ، وبكم ظهر العاصون ، يا أبناء سلف المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخزان مساجد الفاسقين ، وعمار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مفتر على الله ، يحمل إجرامه عليه وينسبها علانية إليه ، وهل منكم إلا من السيف قلادته ، والزور على الله شهادته ، أعلى هذا تواليتم ، أم عليه تمالأتم . حظكم منه الأوفر ونصيبكم منه الأكبر ، عمدتم إلى موالاة من لم يدع لله مالا إلا أخذه ، ولا منارا إلا هدمه.ولا مالا ليتيم إلا سرقه أوخانه ، فأوجبتم لأخبث خلق الله أعظم حق الله وتخاذلتم عن أهل الحق ، حتى ذلوا وقلوا ، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا ، فأنيبوا إلى الله وتوبوا ، وتاب الله على من تاب ، وقبل من أناب.

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

وفى هذه الرسالة تصريح بتقبيح فكرتهم الجبرية . إذ يقول : هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه ؛ وينسبها علانية إليه سبحانه .

ثانيتها : رسالة الحسن بن على إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر ، فهو يقول فيها : من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد كفر . إن الله لا يطاع استكراها ولا يعصى لغلبة ، لأنه المليك لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه . فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا ،وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك . فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم لكان عجزاً فى القدرة ، ولكن له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم . وفى هذا تصريح واضح بالجبر .

وروى عن على بن عبد الله بن عباس أنه قال : كنت جالسا عند أبى إذ جاء رجل فقال يا ابن عباس إن هاهنا قوما يزعمون أنهم أتوا ما أتوا من قبل الله ، وأن الله أجبرهم على المعاصى . فقال: لو أعلم أن ها هنا منهم أحد. لقبضت على حلقه فعصرته حتى تذهب روحه عنه ، لا تقولوا : أجبر الله على المعاصى ، ولا تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملوه فتجهلوه(١) .

وقد علمت أن فكرة الجبر نشأت فى عصر الصحابة ، بل فى عصر النبى ﷺ وإنما الذى امتاز به هذا العصر أنها صارت فيه نحلة ومذهبا ، له أنصار يدعون إليه ويدارسونه ، ويبينونه للناس ، وقالوا إن أول من قام بذلك بعض اليهود ، فقد علموه بعض المسلمين . وهؤلاء أخذوا ينشرونه ، ويقال إن أول من فعل ذلك الجعد بن درهم ، وقد تلقاه عن يهودى بالشام ، ونشره بين الناس بالبصرة ثم تلقاه عنه جهم بن صفوان . جاء فى كتاب سرح العيون فى الكلام على الجعد بن درهم : تعلم منه الجهم بن صفوان القول

---

(١) المنية والأمل .

الذى نسب إليه الجهمية (١) . وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن إبان بن سمعان وأخذه إبان عن طالوت بن أعصم اليهودى .

ونرى من هذا أن تلك النحلة ابتدأت يهودية وابتدأت فى عصر الصحابة ، لأن طالوت هذا كان معاصراً للنبى صلى الله عليه وسلم وبقى إلى عصر الصحابة. ولكن مع ذلك لانستطيع أن نقول : إن تلك النحلة كانت بذرا يهوديا خالصا ، لأن الفرس (٢) كانت تجرى بينهم هذه الأفكار من قبل ، فكانت من البحوث التى طرقها الزرادشتية والمانوية وغيرهم ، فلم يترعرع ذلك المذهب إلا فى خراسان ، فإن جهما زعيم هذه الفرقة التى انتحلت اسمه ونسبت إليه لم يجد أرضا صالحة لدعوته إلا فى خراسان وماحولها ، فهذه الفرقة فارسية يهودية فى هذه النحلة وليست من العرب فى شىء .

وقد نسب الجبر إلى الجهم بن صفوان (٣) لأنه أكثر دعاته وأعظم أنصاره ، وقد كان مع دعوته إلى الجبر يدعو إلى آراء أخرى منها :

١ — زعمه أن الجنة والنار تفنيان ، وأن لاشىء بخالد ، والخلود المذكور فى القرآن الكريم هو طول المكث وبعده الفناء ، لا مطلق البقاء .

٢ — وزعمه أن الإيمان هو المعرفة فقط ، وأن الكفر هو الجهل .

٣ — وزعمه بأن علم الله وكلامه حادثان .

٤ — ولم يصف الله بأنه شىء وحى وعلم ، وقال لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على الحوادث.وقد نفى رؤية الله ، وقال بخلق القرآن بناء على زعمه من أن كلام الله حادث ، لا قديم .

---

(١) هم القائلون بالجبر على ما تقدم .

(٢) جاء فى كتاب المنية والأمل : عن الحسن أن رجلا من فارس جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال رأيتهم ينكحون بناتهم وأخواتهم . فإن قيل لم تفعلون قالوا قضاء الله وقدره فقال صلى الله عليه وسلم سيكون فى أمتى من يقولون مثل ذلك أولئك مجوس أمتى .

(٣) ظهر الجهم بن صفوان بخراسان (وهو من موالى بنى راسب) يدعو لهذه الفكرة ، وكان كاتبا لشريح بن الحارث وخرج معه على نصر بن سيار وقتله مسلم بن أحوز المازنى فى آخر عهد بنى مروان ، وبقى أتباعه بنهاوند ، حتى تغلب مذهبا أبى منصور الماتريدى وأبى الحسن الأشعرى على كل المذاهب الاعتقادية بهذه البلاد .

وقد تبعه كثيرون فى هذه الآراء ، غير أن النحلة التى بانوا بها وشهرتهم وصارت خاصة بهم ، هى القول بالجبر ، وأن الإنسان لا إرادة له ولا فعل ، وقد تقدم السلف والخلف للرد عليهم ، وإثبات بطلان مذهبهم ، وقد ذكرنا لك بعضا مما جرى على ألسنة السلف كعبد الله بن عباس والحسن بن على ، وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وغيرهم ، وقد دونت الكتب المجادلات الكثيرة فى الرد عليهم .

والآن نقبس جزءا من مناظرة طويلة جرت بين سنى وجبرى حكاها ابن القيم فى كتابه شفاء العليل ، لتعرف منها كيف كانت المجادلات تجرى فى كل العصور حول مذهبى الجبر والاختيار وها هى ذى :

قال الجبرى : القول بالجبر لازم لصحة التوحيد ، ولا يستقيم التوحيد إلا به ، لأننا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلا للحوادث ، مع أن الله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وهذا شرك ظاهر ، لا يخلص منه إلا القول بالجبر .

قال السنى : بل القول بالجبر مناف للتوحيد ، فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل ، والثواب والعقاب ، فلو صح الجبر ، لبطلت الشرائع ، وبطل الأمر والنهى ، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب .

قال الجبرى : ليس من العجب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهى ، والثواب والعقاب ، فإن هذا لم يزل يقال ، وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد ، وهو من أقوى أدلة التوحيد ، فكيف يكون المصور للشىء المقوى له منافيا له ؟

قال السنى : منافاته للتوحيد من أظهر الأمور ، ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهى ، وبيان ذلك أن أصل عقيدة التوحيد وإثباته هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والجبر ينافى الكلمتين ، فان الإله هو المستحق لصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال ، وهو الذى تؤلهه القلوب ، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء ، فالتوحيد الذى جاءت به

الرسل هو إفراد الرب بالتأله ، الذى هو كمال الذل والخضوع والانقياد له ، مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد فى طاعته ومرضاته ، وإيثار محابه ومراده الدينى على محبة العبد ومراده .

فهذا أصل دعوة الرسول ، وإليه دعوا الأمم ، وهو التوحيد الذى لا يقبل الله من أحد دينا سواه ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين ، وهو الذى أمر به رسله ، وأنزل به كتبه ، ودعا إليه عباده ، ووضع لهم دار الثواب والعقاب لأجله ، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله ، وكان من قولك أيها الجبرى أن العبد لاقدرة له على هذا ألبتة ، ولا أثر له فيه ، ولاهو فعله ، وأمره بهذا أمر بما لا يطيق ، بل أمر بايجاد فعل الرب ، أو أن الله سبحانه وتعالى أمره بذلك ، وأجبره على ضده ، وحال بينه وبين ما أمره به ، ومنعه منه ، وصده عنه ، ولم يجعل له إليه سبيلا بوجه من الوجوه ، مع قولك إنه لا يحب فلا تتأله القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه ، والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية ، فرفعت معنى الإلهية ، بانكار كونه محبوبا مودودا تتنافس القلوب فى محبته ، وإرادة وجهه ، والشوق إلى لقائه ، ورفعت حقيقة العبودية بانكار كون العبد فاعلا وعابدا ومحبا ، فان هذا لله مجاز لاحقيقة له عندك ، فضاع التوحيد بين الجبر ، وإنكار محبته ، فانك وصفته بأنه يأمر عبده بما لاقدرة له على فعله ، وينهاه عما لايقدر على تركه ، بل يأمره بفعله هو سبحانه ، وينهاه عن فعله هو سبحانه ، ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله ألبتة ، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه ، وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره ، وفعل ما نهاه بمنزلة عقوبته على ترك طيرانه إلى السماء ، وترك تحويله للجبال عن أماكنها ، ونقله مياه البحار عن مواضعها ، وبمنزلة عقوبته له على مالاصنع له فيه من لونه وطوله وقصره ، وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب لمن لم يعصه طرفة عين ، وأن حكمته ورحمته لا تمنع ذلك ، بل هو جائز عليه ، ولو خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه . وقلت إن تكليفه

عباده بما كلفهم إياه بمنزلة تكليف الأعمى الكتابة والزمن الطيران فبغضت الرب إلى من دعوته إلى هذا الاعتقاد ، ونفرته عنه ، وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده ، وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها .

وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظاهر ، لا خفاء به ، فان مبنى الشرائع على الأمر والنهى ، وأمر الآمر لغيره بفعل نفسه ، لابفعل المأمور ، ونهيه عن فعله ، لا فعل المنهى عبث ظاهر ، فإن متعلق الأمر والنهى فعل العبد وطاعته ومعصيته ، فمن لافعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعة أو بمعصية . وإذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب ، وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيامة من النعيم والعذاب أحكاما جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة ، لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم .

قال الجبرى : إذا صدر من العبد حركة معينة فإما أن تكون مقدورة للرب وحده ، أو العبد وحده ، أو لا للرب ولا للعبد ، وهذا القسم الأخير باطل قطعا ، والأقسام الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة فإن كانت مقدورة للرب وحده ، فهو الذى نقوله وذلك عين الجبر . وإن كانت مقدورة للعبد وحده فذلك إخراج لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى ، فلا يكون على كل شيء قدير ، ويكون العبد المخلوق الضعيف قادراً على ما لم يقدر عليه خالقه وفاطره . وهذا هو الذى فارقت به القدرية للتوحيد ، وضاهت به المجوس . وإن كانت مقدورة للرب والعبد لزمت الشركة ، ووقوع مفعول بين فاعلين ، ومقدور بين قادرين وأثر بين مؤثرين ، وذلك محال ، لأن المؤثرين إذا اجتمعا استقلالا على أثر واحد ، فهو غنى عن كل منهما بكل منهما ، فيكون محتاجا إليهما مستغنيا عنهما .

قال السنى . . . . قد دل الدليل على شمول قدرة الرب سبحانه لكل ممكن من الذوات والصفات والأفعال ، وأنه لا يخرج شيء عن مقدوره ألبتة . ودل الدليل أيضا على أن العبد فاعل لفعله بقدرته وإرادته ، وأنه فعل له حقيقة يمدح ويذم به عقلا وعرفا وشرعا ، وفطرة فطر الله عليها العباد ، حتى

الحيوان البهيم ، ودل الدليل على استحالة مفعول واحد بالعين بين فاعلين مستقلين ، وأثر واحد بين مؤثرين فيه على سبيل الاستقلال ، ودل الدليل أيضاً على استحالة حادث لامحدث له ، ورجحان راجح لا مرجح له ؛ وهذه أمور كتبها الله سبحانه فى العقول ، وحجج العقل لا تتناقض ، ولا تتعارض ولا يجوز أن يضرب بعضها ببعض ، بل يقال بها كلها ، ويذهب إلى موجبها فانها يصدق بعضها بعضا وإنما يعارض بينهما من ضعفت بصيرته ، وإن كثر كلامه ، وكثرت شكوكه ، والعلم أمر آخر وراء الشكوك ووراء الإشكالات ، ولهذا تناقض الخصوم . والصواب فى هذه المسألة أن يقال تقع الحركة بقـــدرة العبد وإرادته التى جعلها الله فيه ، فالله سبحانه وتعالى إذا أراد فعل العبد خلق الله القدرة والداعى إلى فعله ، ويضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة السبب إلى سببه ، ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق ، فلا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين ، قدرة أحدهما أثر لقدرة الآخر ، وهى جزء سبب ، وقدرة القادر الآخر مســـتقلة بالتأثير ، والتعبير عن هذا المعنى بمقدور بين قادرين تعبير فاسد وتلبيس ، فإنه يوهم أنهما متكافئان فى القدرة ، كما تقول هذا الثوب بين هذين الرجلين ، وهذه الدار بين هذين الشريكين ، وإنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه ، والسبب أو المسبب والفاعل والإله كله أثر القدرة القديمة . ولاتعطل قدرة الرب سبحانه عن شمولها وكمالها وتناولها لـكل ممكن .. وليس فى الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الله سبحانه وقدرته ، وكل ما سواه مخلوق له ، وهو أثر قدرته ومشيئته ، ومن أنكر ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله سبحانه ، أو القول بوجود مخلوق لاخالق له .

قال الجبرى : ضلال الـكافر وجهله عند القدرى مخلوق له ، موجود بإيجاده واختياره ، وهذا ممتنع ، فإنه لو كان كذلك لـكان قاصداً له ، إذ القصد من لوازم الفعل اختياراً ، واللازم ممتنع ، فإن عاقلا لايريد لنفسه الضلال والجهل ، فلا يكون فاعلا له اختياراً .

قال السني : عجبا لك أيها الجبرى ، تنزه العبد أن يكون فاعلا للكفر والظلم ، وتجعل ذلك كله لله . ومن العجب قولك أن العاقل لا يقصد لنفسه الكفر والجهل ، وأنت ترى كثيراً من الناس يقصد لنفسه ذلك عنادا وبغيا وحسدا ، مع علمه بأن الرشد والحق فى خلافه ، فيطيع دواعى هواه وغيه وجهله ، ويخالف داعى رشده وهداه ، ويسلك طريق الضلال ، ويتنكب عن طريق الهدى ، وهو يراهما جميعا . قال أصدق القائلين : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . وقال تعالى: « وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى » . وقال جل وعلا عن قوم فرعون : « لما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » . وقال تعالى « وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » . وقال تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه ، ما له فى الآخرة من خلاق » . وقال سبحانه « بئس ما اشتروا به أنفسهم ، أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » . وقال تعالى : « لم تكفرون بآيات الله ، وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » وقال تعالى : « يا أهل الكتاب ، لم تصدون عن سبيل الله ، من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء » . وهذا فى القرآن الكريم كثير ، يبين سبحانه فيه اختيارهم الضلال والكفر عمداً على علم ، هذا وكم من قاصد أمراً يظن أنه رشد وهو ضلال وغى .. (راجع المناظرة بأكملها فى كتاب شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم) .

القـــدرية

قد علمت خوض المسلمين فى حديث القدر فى العصر الأموى وآخر عصر الخلفاء الراشدين ، وعلمت أن فريقا غالى ، فنفى أن يكون للإنسان إرادة فيما يفعل ، وأن الأفعال تصدر عنه ، كما ينبت الزرع ، ويحيا النبات ، وتمطر السماء ، وتجرى الأنهار ، وكما أنه لا إرادة لهذه الأشياء ، فلا إرادة للإنسان . وهؤلاء هم الجبرية الذين ذكرناهم ، وقد غالى آخرون فأثبتوا أن كل فعل للإنسان إنما هو بارادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى (١) .

وقد قال عبد القاهر البغدادى فى توضيح فكرتهم ، واصفاً المعتزلة بوصفهم : ومنها قولهم أن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ، ولا لشىء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم ، وأنه ليس لله عز وجل فى أكسابهم ، ولا فى أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير ، ولأجل هذا سماهم المسلمون قدرية (٢) .

ولم يقف منتحلو هذا المذهب عند حد قولهم أن إرادة العبد مستقلة فيما يفعل عن إرادة الله سبحانه وتعالى ، بل غالوا أكثر من ذلك ، ونفوا القدر بمعنى العلم والتقدير ، وقالوا فى ذلك : « الأمر أنف » فيروى أن معبد بن خالد الجهمى من شيوخهم سمع من يتعلل فى المعصية بالقدر ، فقام بالرد عليه ينفى كون القدر سالبا للاختيار فى أفعال العباد فقال : « لاقدر ولا أنف » أى أن الأمور يستأنف العلم بها ، وكأنه بهذا نفى الإرادة الأزلية ، ونفى العلم الأزلى القديم ، وأخرج بذلك فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخلاق العليم .

وقد دهش بعض المؤرخين من تسميتهم بالقدرية إذ هم نفاة القدر ، فكيف ينسبون إليه ؟ فقال قوم إنه لامانع من أن ينسبوا إلى ضد ما يقولون ، كما تسمى الأشياء بأضدادها ، وقال قوم إنهم نفوا القدر عن الله ، وأثبتوه

---

(١) الخطط المقريزية للمقريزى .

(٢) الفرق بين الفرق .

للعبد فسموا لذلك قدرية ، إذ جعلوا كل شيء لإرادة الإنسان وقدرته فكأنهم يجعلون للإنسان السلطان على القدر ، وقد أشار البغدادى فيما نقلناه آنفا إلى هذه العلة . ويميل بعض الكتاب إلى أن هذا الوصف ذكرهم به الكتاب من مخالفيهم لينطبق عليهم الأثر المشهور «القدرية مجوس هذه الأمة» وقد قرأنا لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ مصطفى صبرى ، شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقا فى كتابه موقف البشر تحت سلطان القدر موازنة طريفة بين المجوس والمعتزلة وهو يعتقد أن المعتزلة من القدرية ، وقد جاء فيها : ورد فى حديث آخر : القدرية مجوس هذه الأمة فكما أن المجوس ينسبون الخير إلى الله والشر إلى الشيطان ، ويسمون خالق الخير يزدان وخالق الشر أهرمن فالمعتزلة يفرقون بين الخير والشر ويسندون الخير إلى الله ، والشر إلى الإنسان ، ويقولون إن الله لا يريده .

ومهما يكن من شيء فجمهرة كتاب الملل والنحل على تسمية نفاة القدر هؤلاء باسم القدرية ، وقد علمت ما فى التسمية من كلام ، وما فى النسبة من بحث .

وقد خاض المؤرخون فى الكلام عن أول من انتحل هذه النحلة ، وفى أى البلدان نبتت ، وتحت أى ظلال ترعرعت ونمت ، وما مصدرها ؟ وقد علمت رأينا فى مثل هذه البحوث ، من أن الأفكار التى تشيع وتنتشر من الصعب الوصول إلى مبدئها ، ومعرفة أوائلها على وجه الجزم واليقين ، من غير حدس أو تخمين ، وكذلك كان الشأن فى هذه الفكرة .

غير أن جل الباحثين ذكروا أن هذه النحلة كان أول ظهورها فى البصرة فى متناحر الآراء ، ومضطرب الأفكار ، ومريج النحل ، وقد علمت كيف كان العراق كله لا البصرة وحدها موضعا لذلك التناحر ، وقد جاء فى كتاب سرح العيون : قيل أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا ، فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى . ومن هذا ترى أن الفكرة دخيلة بين المسلمين من عنصر أجنبى دعا إليها باسم الإسلام وهو يضمر غيره .

وإذا كان لكل نحلة زعماء يدعون إليها ، ويجادلون فى شأنها ، وينادون بها ، ويلاحون المخالفين لأجلها ، فقد تصدى للدعوة إلى هذه النحلة رجلان أحدهما معبد الجهنى بالعراق ، وثانيهما غيلان الدمشقى بدمشق ، وقد أخذ معبد يدعو إلى هذه النحلة زمناً غير قصير ، حتى كانت فتنة عبد الرحمن ابن الأشعث فانضم إليها ، ولما هزم ابن الأشعث كان هو فيمن قتله الحجاج صبراً من دعاة هذه الفتنة وأنصارها .

أما غيلان فقد استمر داعيا لها بالشام ، مناديا بها ، وقد ناقشه عمر بن عبد العزيز فى ذلك ، وكتب هو إليه كتبا يدعوه فيها إلى التمسك بالعدل ، وفى هذه الكتب يبين نحلته ، ومنه كما فى كتاب المنية والأمل فى الملل والنحل للمرتضى ، إذ قال راويا عن غيلان كتابا له إلى عمر بن عبد العزيز : أبصرت يا عمر وماكدت ، ونظرت وماكدت ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فياميت بين الأموات ، لا ترى أثراً فتتبع ، ولاتسمع صوتا فتنتفع ، طغى على السنة وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولايعطى الجاهل فيسأل ، وربما نجت الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر أى الإمامين أنت ، فإنه تعالى يقول « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » فهذا إمام هدى ، هو ومن اتبعه شريكان ، وأما الآخر فقال تعالى فيه : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لاينصرون » ولن تجد داعيا يقول : تعالوا إلى النار ، إذن لا يتبعه أحد ، لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصى الله سبحانه وتعالى ، فهل وجدت يا عمر حكيما يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب ، أو يعذب على ما قضى ، أويقضى ما يعذب عليه ؟ أم هل وجدت رحيما يكلف العباد فوق الطاقة ، أو يعذبهم على الطاعة ؟ أم هل وجدت عدلا يحمل الناس على الظلم والتظالم ، وهل وجدت صادقا يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم ؟ كفى ببيان هذا بيانا وبالعمى عنه عمى .

ويروى أنه لما ناقشه عمر بن عبد العزيز كشف شبهته وأزال غمته ، وقطع حجته ، فقال هذا له : يا أمير المؤمنين ، لقد جئتك ضالا فهديتنى ،

وأعمى فبصرتني ، وجاهلا فعلمتني ، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر[1] .

ولكنه عاد إلى دعايته بعد موت عمر ، وأمعن في نشرها ، وبالغ في ذلك حتى ولي هشام فقتله ، ويروى أنه قد جاء بالأوزاعي الفقيه ، وناقشه حتى قطعه ثم قتله ، وقد رويت تلك المناقشة بعدة روايات في العقد الفريد وسرح العيون . وغيرهما . وقد رواها صاحب كتاب محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمر الأوزاعي ، وقال إنها مناقشة مع قدري ، ويظهر من موازنتها بغيرها أن القدري هو غيلان ، ولذا أثبت هذه الرواية ، وها هي ذي :

كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدري ، فبعث هشام إليه فقال له : قد كثر كلام الناس فيك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ادع من شئت ، فيجادلني ، فإن أدركت علي بذلك ، فقد أمكنتك من علاوتي . فقال هشام : قد أنصفت ، فبعث إلى الأوزاعي ، فلما حضر ، قال له هشام : يا أبا عمر ناظر لنا هذا القدري . فقال له الأوزاعي : اختر إن شئت ثلاث كلمات ، وإن شئت أربع كلمات ، وإن شئت واحدة . فقال له القدري : بل ثلاث كلمات . فقال الأوزاعي للقدري : أخبرني عن الله عز وجل ، هل قضى على ما نهى ؟ قال القدري : ليس عندي في هذا شيء . فقال الأوزاعي : هذه واحدة ، ثم قال : أخبرني عن الله عز وجل : أحال دون ما أمر ؟ قال القدري : هذه أشد من الأولى ، ما عندي في هذا شيء ، فقال الأوزاعي : هذه اثنتان يا أمير المؤمنين ، ثم قال : أخبرني عن الله عز وجل ، هل أعان على ما حرم ؟ فقال القدري : هذه أشد من الأولى والثانية ، ما عندي في هذا شيء . فقال الأوزاعي : يا أمير المؤمنين ، هذه ثلاث كلمات ، فأمر هشام فضربت عنقه .

---

(١) ويقول المرتضى في المنية والأمل : دعا عمر غيلان ، وقال له أعني على ما أنا فيه ، فقال غيلان ولني بيع الخزائن ورد المظالم ، فولاه ، فكان يبيعها وينادي عليها ، ويقول تعالوا إلى متاع الخونة ، تعالوا إلى متاع الظلمة ، تعالوا إلى متاع من خلف رسول الله ﷺ في أمته بغير سنته وسيرته إلخ ، فأحفظ ذلك هشام بن عبد الملك وقال والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه ، فلما ولي فعل به ما أقسم عليه .

فقال هشام للأوزاعي : فسر لنا هذه الكلمات الثلاث ما هى ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أما تعلم أن الله تعالى قضى على ما نهى ، نهى آدم عن الأكل من الشجرة ، ثم قضى عليه فأكلها يا أمير المؤمنين . أما تعلم أن الله تعالى حال دون ما أمر ، أمر إبليس بالسجود لآدم ، ثم حال بينه وبين السجود ، أما تعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله أعان على ما حرم؟ حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ثم أعان عليه بالاضطرار . فقال هشام : أخبرنى عن الواحدة ماكنت تقول له ؟ كنت أقول : أخبرنى عن الله عز وجل حيث خلقك ، خلقك كما شاء ، أو كما شئت ؟ فإنه يقول كما شاء ، فأقول له : أخبرنى عن الله عز وجل يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء ، فإنه كان يقول إذا شاء ، فأقول له : أخبرنى عن الله عز وجل إذا توفاك أين تصير حيث شئت أو حيث شاء ، فإنه كان يقول حيث شاء . يا أمير المؤمنين من لم يمكنه أن يحسن خلقه ، ولا يزيد فى رزقه ولا يؤخر أجله ، ولا يصير نفسه حيث شاء ، فأى شيء فى يده من المشيئة يا أمير المؤمنين . قال:صدقت يا أبا عمرو. قال الأوزاعى : يا أمير المؤمنين إن القدرية ما رضوا بقول الله تعالى ، ولا بقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا بقول أهل الجنة ، ولا بقول أهل النار ، ولا بقول الملائكة ، ولا بقول أخيهم إبليس . فأما قول الله تعالى فهو : « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » . وأما قول الملائكة فهو : « لا علم لنا إلا ما علمتنا » . وأما قول الأنبياء فقال شعيب عليه السلام : «وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب» . وقال إبراهيم عليه السلام : « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » . وقال نوح عليه السلام : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم » . وأما قول أهل الجنة فانهم قالوا : « الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى ، لولا أن هدانا الله » . وأما قول أهل النار فهو : « لو هدانا الله لهديناكم » . وأما قول إبليس فهو : « رب بما أغويتنى » .

وترى من هذه المناقشة أن الغرض منها كان إلجام غيلان ، ليجد هشام مبرراً لقتله ، ولذا كان يسودها التحدى والتعجيز حتى عجز فقتل . وإن حوى بيانها علما عظيما ، وتفكيرا مستقيما ، وأخذاً من ظواهر القرآن الكريم ما يرد على القدريين .

ولم يمت المذهب بموت غيلان ، ولم يذب فى غيره من المذاهب كما ذكر بعض الكتاب الفضلاء ، فقد دام بين أهل البصرة قرونا طويلة ، بل تحول عند طائفة منهم إلى ما يشبه مذهب الثنوية الذين جعلوا الخير إلى النور والشر إلى الظلمة وأولئك نسبوا لله فعل الخير ، ولأنفسهم فعل الشر من غير أن يكون لله فيه إرادة ، بل معاندين بذلك إرادته ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

والآن نثبت لك مجادلة بين قدرى وسني منها ما كان يدور حوله الجدل والنقاش وها هي ذي :

مجادلة بين قدرى وسنى (١)

قال القدرى :

قد أضاف الله الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة ، فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة كقوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » . وبالمشيئة تارة أخرى كقوله تعالى : « لمن شاء منكم أن يستقيم » وبالإرادة تارة كقول الخضر : «فأردت أن أعيبها» . وبالفعل والكسب والصنع كقوله تعالى « يفعلون » ، « يعملون » ، «بما كنتم تكسبون » ، «لبئس ما كانوا يصنعون» ، وأما بالإضافة الخاصة ، فكاضافة الصلاة والصيام ، والحج والطهارة ، والزنى ، والسرقة ، والقتل ، والكذب ، والكفر ، والفسوق ، وسائر أفعالهم إليهم ، وهذه الإضافة تمنع إضافتها إليه ، كما أن إضافة أفعاله تمنع إضافتها إليهم ، فلاتجوز إضافة أفعالهم إليه سبحانه دونهم ، ولا إليه معهم ، فهى إذن مضافة إليهم دونه .

قال السنى :

هذا الكلام مشتمل على حق وباطل ، أما قولك أنه أضاف الأفعال إليهم فحق لاريب فيه ، ولكن قولك هذه الإضافة تمنع إضافتها إليه سبحانه وتعالى

---

(١) هذه المجادلة مأخوذة من كتاب شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

كلام فيه إجمال وتلبيس ، فإن أردت بمنع الإضافة إليه منع قيامها به ، ووصفه بها . وجريان أحكامها عليه ، واشتقاق الأسماء منها له فنعم هي غير مضافة إليه بشيء من هذه الاعتبارات والوجوه ، وإن أردت بعدم إضافتها إليه عدم إضافتها إلى علمه . وقدرته عليها ومشيئته العامة وخلقه ، فهذا باطل ، فإنها معلومة له سبحانه وتعالى ، مقدورة له مخلوقة ، وإضافتها إليهم لاتمنع هذه الإضافة كالأموال ، فإنها مخلوقة له سبحانه وهي ملكه حقيقة قد أضافها إليهم ، فالأعمال والأموال خلقه وملكه ، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده ، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها ، فصحت النسبتان ، وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال ، وهو الذي خلق الأموال وكاسبيها ، والأعمال وعامليها ، فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده ، كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده ، فهو الذي جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون ، فأعطاهم حاسة السمع والبصر ، وقوة السمع والبصر ، وفعل الأسماع والأبصار ، وأعطاهم آلة العمل وقوة العمل ، ونفس العمل ، فنسبة قوة العمل إلى اليد والكلام إلى اللسان كنسبة قوة السمع إلى الأذن ، والبصر إلى العين ، ونسبة الرؤية والسمع اختياراً إلى محلهما كنسبة الكلام والبطش إلى محلهما ، وإن كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع ، فهل خلقوا محلهما وقوى المحل والأسباب الكثيرة التي تصلح معها الرؤية والسمع ، أم الكل خلق من هو خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار .

قال القدري :

لو كان الله سبحانه وتعالى هو الفاعل لأفعالهم ، لاشتقت له منها الأسماء ، وكان أولى بأسمائها منهم ، إذ لايعقل الناس على اختلاف لغاتهم وعاداتهم ودياناتهم قائماً إلا من فعل القيام ، وآكلا إلا من فعل الأكل ، وسارقا إلا من فعل السرقة ، وهكذا جميع الأفعال ، فقلبتم أنتم الأمر . وقلبتم الحقائق فقلتم من قال هذه الأفعال حقيقة لا يشتق له منهم اسم . وإنما تشتق منها الأسماء لمن لم يفعلها ، ولم يحدثها ، وهذا خلاف العقول واللغات وما تتعارفه الأمم .

قال السنى :

العبد فاعل لفعله حقيقة ، والله خالقه ، وخالق آلاته الظاهرة والباطنة ، وإنما تشتق الأسماء لمن فعل تلك الأفعال ، فهو القائم والقاعد والمصلى والسارق والزانى حقيقة . فإن الفعل إذا قام بالفاعل ، عاد حكمه إليه ولم يعد إلى غيره ، واشتق له منه اسم ، ولم يشتق لمن لم يقم به . فها هنا أربعة أمور ، أمران معنويان فى النفى والإثبات ، وأمران لفظيان فيهما . فلما قام الأكل والشرب والزنى والسرقة بالعبد عادت أحكام هذه الأفعال إليه ، واشتقت له منها الأسماء ، وامتنع عود أحكامها إلى الرب واشتقاق أسمائها له ، ولكن من أين يمنع هذا أن تكون معلومة للرب سبحانه ، مقدورة له ، مكونة له ، واقعة من العباد بقدرة ربهم وتكوينه .

قال القدرى :

لو كان خالقها لزمته هذه الأمور .

قال السنى :

هذا باطل ، ودعوى كاذبة ، فإنه سبحانه لا يشتق له الاسم مما خلقه فى غيره ، ولا يعود حكمه عليه ، وإنما يشتق الاسم لمن قام به ذلك ، فإنه سبحانه خلق الألوان والطعوم والروائح والحركات فى محالها ، ولم يشتق له اسم منها ، ولا عادت أحكامها إليه ، ومعنى عود الحكم إلى المحل الإخبار عنه بأنه يقوم ويقعد ويأكل ويشرب .

(تراجع المناظرة بأكملها فى كتاب شفاء العليل لابن القيم) .

المعتزلة

نشأتهم :

نشأت هذه الفرقة فى العصر الأموى ، ولكنها شغلت الفكر الإسلامى فى العصر العباسى ردحا طويلا من الزمان ، ولأنها نشأت فى العصر الأموى ، نتكلم عنها ، ونبين آراءها ، ولكى يكون الكلام وافيا نذكر ما كان فى العصر العباسى فنقول :

كان العراق فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى يسكنه عدة طوائف تنتهى إلى سلائل مختلفة ، فبعضهم ينتهى إلى سكان العراق الأقدمين من الكلدان ، وبعضهم فارسى ، وآراميون ، ونصارى ويهود ، وعرب . وقد دخل أكثر هؤلاء فى الإسلام ، وبعضهم قد فهمه على ضوء المعلومات القديمة التى فى رأسه ، واصطبغ فى نفوسهم بصبغتها ، وتكونت عقيدته على طريقتها ، وبعضهم أخذ الإسلام من ورده الصافى ، ومنهله العذب ، وانساغ فى نفسه من غير تغيير ، ولكن شعوره وأهواءه لم تكن إسلامية خالصة ، بل كان فيه ميل إلى القديم ، وحنين إليه على غير إرادة ، بل على النحو الذى يسميه علماء النفس فى العصر الحديث : العقل الباطن .

لذلك لما اشتدت الفتن فى عصر أمير المؤمنين على بن أبى طالب انبعثت فى العراق الأهواء القديمة من مراقدها ، واستيقظت من سباتها ، وهبت من مكامنها مكشوفة من غير ستار ، وظهر فى العراق وحوله الخوارج والشيعة ، والجهمية ، والقدرية ، وفى وسط هذا المزيج من الآراء ، وذلك المضطرب الفسيح من الأهواء ظهرت المعتزلة .

ويختلف العلماء فى وقت ظهورها . فبعضهم يرى أنها ابتدأت فى قوم من أصحاب على اعتزلوا السياسة ، وانصرفوا إلى العقائد عندما تنزل الحسن عن الخلافة لمعاوية . وفى ذلك يقول أبو الحسين الطوائفى فى كتابه رد أهل الأهواء والبدع : وهم سموا أنفسهم معتزلة ، وذلك عندما بايع الحسن بن على عليه السلام معاوية ، وسلم إليه الأمر ، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ، وكانوا من أصحاب على ، ولزموا منازلهم ، ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة .

ويرى الدكتور نيبرج أن الاعتزال أول ما نشأ كان فى القدرية .

والأكثرون على أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء وقد كان ممن يحضرون مجلس الحسن البصرى العلمى فثارت تلك المسألة التى شغلت الأذهان فى ذلك

العصر ، وهى مسألة مرتكب الكبيرة (١) ، فقال وأصل مخالفا الحسن البصرى أنا أقول أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن باطلاق ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين ، ثم اعتزل مجلس الحسن ، واتخذ له مجلسا آخر فى المسجد .

ومن هذا تعرف لماذا سمى هو وأصحابه بالمعتزلة ؟ ولكن بعض المستشرقين يرى أنهم سموا المعتزلة لأنهم كانوا رجالا أتقياء متقشفين ، ضاربى الصفح عن ملاذ الحياة ، وكلمة معتزلة تدل على أن المتصفين بها زاهدون فى الدنيا ، وفى الحق ليس كل المنتسبين إلى هذه الفرقة كما نعتهم ، بل منهم المتهمون بالمعاصى ، ومنهم المتقون ، منهم الأبرار . ومنهم الفجار .

وقال الأستاذ أحمد أمين فى كتاب فجر الإسلام : ولنا فرض آخر فى تسميتهم المعتزلة لفتنا إليه ما قرأناه فى خطط المقريزى من أن بين الفرق اليهودية التى كانت منتشرة فى ذلك العصر وما قبله طائفة يقال لها الفروشيم . وقال إن معناها المعتزلة . وذكر بعضهم عن هذه الفرقة ، أنها كانت تتكلم فى القدر ، وتقول ليس كل الأفعال خلقها الله ، فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم ممن أسلموا من اليهود لما رأوه بين الفرقتين من الشبه أ هـ ملخصا .

مذهب المعتزلة :

قال أبو الحسن الخياط فى كتابه الانتصار : وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد ،

---

(١) قال الأزارقة أن مرتكب الذنب صغيراً أوكبيراً كافر هو وولده . ووافقهم الصفرية إلا أنهم خالفوهم فى الأطفال . وقال النجدات إن مرتكب الكبيرة وهى ما أجمعت الأمة على تحريمها — كافر .

وقال الإباضية إن مرتكب الذنب الذى جاء فيه وعيد مع معرفته بالله تعالى وما جاء به كافر كفر نعمة لا كفر إيمان . وذهب الحسن البصرى إلى أن مرتكب الكبيرة منافق . والجمهور يرى أنه مؤمن فاسق ، والمعتزلة يرون أنه فى المنزلة التى بين المنزلتين إلا أبا بكر الأصم منهم ، فإنه يرى رأى الجمهور .

والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإذا أكملت فى الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلى .

هذه هى الأصول الجامعة لمذهب المعتزلة ، فكل من يتحيف طريقها ، ويسلك غير سبيلها ليس منهم ، لايتحملون إثمه ، ولاتلقى عليهم تبعة قوله ، ولنتكلم فى كل أصل من هذه الأصول بكلمة موجزة ، فأما التوحيد فهو لب مذهبهم ، وأس نحلتهم ، ويرون فيه كما قال الأشعرى عنهم فى كتابه مقالات الإسلاميين : إن الله واحد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولاجثة ، ولاصورة ، ولالحم ، ولادم ، ولاشخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذى لون ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا مجسة ولا بذى حرارة ، ولا برودة ، ولارطوبة ، ولايبوسة ، ولا طول ولاعرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ، ولا يتبعض ولا بذى أبعاض وأجزاء ، ولا جوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ولا بذى يمين وشمال ، وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولايوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولايوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولاتدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولاتجرى عليه الآفات ، ولاتحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم ، فغير مشبه له ، ولم يزل أولا سابقا ، متقدما للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ، ولا يزال كذلك لاتراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ، ولاتحيط به الأوهام ، ولايسمع بالأسماع . شىء لاكالأشياء ، عالم قادر حى ، لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولامعين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق

على مثال سبق ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ، ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولايصل إليه الأذى والآلام ، وليس بذي غاية فيتناهى ، ولايجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء . أ هـ قوله .

وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة ، وأن الصفات ليست شيئا غير الذات (١) ، وإلا تعدد القدماء فى نظرهم . وبنوا على ذلك أيضا أن القرآن الكريم مخلوق لله سبحانه ، لنفيهم عنه سبحانه صفة الكلام .

وأما العدل ، فقد بين معناه المسعودى فى مروج الذهب ، فقال : هو أن الله لا يحب الفساد ، ولايخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ، ونهوا عنه بالقـدرة التى جعلها الله لهم ، وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولى كل حسنه أمر بها (٢) ، برىء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالا يطيقون ، ولاأراد منهم ما لا يقدرون عليه ، وإن أحداً لا يقدر على قبض ولابسط إلا بقدرة الله التى أعطاهم إياها ، وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء ، ولو شاء صبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطراريا عن معصيته ، ولكان على ذلك قادراً ولكنه لا يفعل إذ كان فى ذلك رفع للمحنة ، وإزالة للبلوى . أهـ .

وقد ردوا بهذا الأصل على الجهمية الذين قالوا إن العبد فى فعله غير مختار ، فعدوا ذلك ظلما ، لأنه لا معنى لأمر الشخص بأمر يضطره الآمر إلى مخالفته ولا لنهيه عن أمر يضطره الناهى إلى فعله . وقد بنوا على ذلك الأصل كما رأيت أن العبد خالق لأفعاله ، ولكنهم لاحظوا فى ذلك تنزيه

---

(١) وليس هذا محل إجماع منهم .

(٢) احتجوا على ذلك بظاهر قوله تعالى : « ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

الله عن العجز ، فقالوا إن هذا بقدرة أودعه الله إياها وخلقها ، . المعطى المانح ، وله القدرة التامة على سلب ما منح ، وإنما أعطى ما أعطى ليتم التكليف .

وأما الوعد والوعيد فهو أن يجازى من أحسن بالإحسان ، ومن أساء بالسوء ، لا يغفر لمرتكب الكبائر ما لم يتب .

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فقد بين وجهة نظرهم فيه الشهرستانى بقوله : ووجه تقريره أنه قال (واصل بن عطاء) أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمنا ، وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ، ولااستحق اسم المدح ، فلايسمى مؤمنا ، وليس هو بكافر مطلق أيضاً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها ، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالداً فيها ، إذ ليس فى الآخرة إلا الفريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولكنه تخفف عنه النار ، وتكون دركته فوق دركة الكفار (١) .

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد قرروا وجوبهما على المؤمنين نشراً لدعوة الإسلام ، وهداية للضالين ، وإرشاداً للغاوين ، وكل بما يستطيع فذو العيان ببيانه ، وذو السيف بسيفه .

طريقتهم فى الاستدلال على عقائدهم :

كانوا يعتمدون فى الاستدلال على عقائدهم على القضايا العقلية ، دون الآثار النقلية ، وكانت ثقتهم بالعقل لا يحدها إلا احترامهم لأوامر الشرع ،

---

(١) والمعتزلة مع اعتقادهم أنه فى منزلة بين المنزلتين يرون أنه لا مانع من أن يطلق عليه اسم المسلم تمييزاً له عن الذميين لا مدحا وتكريما . قال ابن أبى الحديد وهو من شيوخهم : إنا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما ، فإنا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة ، وعابدى الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء والمدح .

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

كل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ، فما قبله أقروه ، وما لم يقبله رفضوه .

وقد سرى إليهم ذلك النحو من البحث العقلى :

(أ) من مقامهم فى العراق وفارس ، وقد كانت تتجاوب فيهما أصداء لمدنيات وحضارات قديمة .

(ب) ومن سلائلهم غير العربية فقد كان أكثرهم من الموالى .

(ج) ولعدم علمهم بالحديث .

(د) ولسريان كثير من آراء الفلاسفة الأقدمين إليهم ، لاختلاطهم بكثير من اليهود والنصارى وغيرهم ، ممن كانوا حملة هذه الأفكار ونقلتها إلى العربية .

وكان من آثار اعتمادهم على العقل أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلا . وكانوا يقولون : المعارف كلها معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبح (١) .

وقال الجبائى : كل معصية كان يجوز أن يأمر الله سبحانه بها فهى قبيحة للنهى ، وكل معصية كان يجوز أن يبيحها الله سبحانه فهى قبيحة لنفسها كالجهل به ، والاعتقاد بخلافه ، وكذلك كل ما جاز إلا بأمر الله سبحانه به فهو حسن للأمر به ، وكل ما لم يجز إلا أن يأمر به فهو حسن لنفسه (٢) .

وقد بنوا على هذه الفكرة وجوب الصلاح والأصلح لله ، فقد قال جمهورهم أن الله لا يصدر عنه إلا ما فيه صلاح ، فالصلاح واجب له ، ولا شيء مما يفعله جلت قدرته إلا وهو صالح ، ويستحيل عليه سبحانه أن يفعل غير الصالح .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعرى .

أخذهم عن الفلسفة اليونانية و ثرها :

فى العصر العباسى توردت على العقل العربى الفلسفة الهندية والفلسفة اليونانية ، وقد جاءت إليهم أرسالها عن طريق :

١ - الفرس ، لأن الثقافة الفارسية قبيل الإسلام كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية .

٢ - وعن طريق السريان ، لأنهم قد ورثوا الفلسفة اليونانية ، وألبسوها لبوسهم الدينى ، ومسوحهم اللاهوتية .

٣ - وعن طريق اليونان أنفسهم ، لأن بعض الموالى كان يجيد اليونانية والعربيـــة .

تأثر المعتزلة بهذه الفلسفة فى آرائهم ، وأخذوا عنها كثيراً فى مقدمات دلائلهم وأقيستهم ، بل كان بعض عقائدهم لا يخلو من تأثر بالفلسفة اليونانية حتى لقد زعم بعضهم أن رأيهم فى الصفات مأخوذ من المعانى الأفلاطونية ؛

وقد دفعهم إلى دراسة الفلسفة أمران :

أحدهما : أنهم وجدوا فيها ما يرضى نهمتهم العقلية ، وشغفهم الفكرى، ووجدوا فيها مرانا عقليا جعلهم يلحنون بالحجة فى قوة .

وثانيهما : أن الفلاسفة وغيرهم لما هاجموا بعض المبادىء الإسلامية ، تصدى هؤلاء للرد عليهم ، واستخدموا بعض طرقهم فى النظر والجدل ، وتعلموا كثيراً منها ، ليستطيعوا أن ينالوا الفلج والفوز عليهم ، فكانوا بحق الفلاسفة المسلمين .

دفاعهم عن الاسلام :

دخل فى الإسلام طوائف من المجوس ، والصابئة ، واليهود ، والنصارى وغير هؤلاء وأولئك ، ورءوسهم ممتلئة بكل ما فى هذه الأديان من تعاليم ، جرت فى نفوسهم مجرى الدم فى الجسم ، وتغلغلت فيها ، واستقرت فى ثناياها ، ففهموا الإسلام على ضوئها .

ومنهم من كان يظهر الإيمان خشية السلطان ، ويبطن غيره ، فأخذ ينشر بين المسلمين ما يفسد عليهم دينهم ، ويشككهم فى عقائدهم ،

ويدسون بينهم أفكاراً وآراء ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد ظهرت ثمار غرسهم ، واستغلظت سوق نيتهم ، فوجدت فرق هادمة تحمل اسم الإسلام وهى معاول هدمه ، فكان الروافض والمجسمة والمشبهة ، والزنادقة ، وغيرهم ، وقد تصدى للدفاع دون هؤلاء فرقة درست المعقول وفهمت المنقول ، فكانت المعتزلة . تجردوا للدفاع عن الدين وما كانت الأصول الخمسة التى تضافروا على تأييدها ، وتآزروا على نصرها إلا وليدة المناقشات الحادة التى كانت تقوم بينهم وبين مخالفيهم ، والتوحيد الذى اعتقدوه على الشكل الذى أسلفناه كان للرد على المشبهة والمجسمة ، والعدل كان للرد على الجهمية ، والوعد والوعيد كان للرد على المرجئة ، والمنزلة بين المنزلتين ردوا به على الخوارج الذين كفروا مرتكب الذنب صغيرا أو كبيرا .

وفى عهد المهدى ظهر المقنع الخراسانى ، وكان يقول بتناسخ الأرواح ، واستغوى طائفة من الناس ، وسار إلى ما وراء النهر ، فلاقى المهدى عناء فى التغلب عليه . ولذلك أغرى بالزنادقة ، فكان يتتبعهم ليقضى عليهم ، بسيف السلطان ، ولكن السيف لا يقضى على رأى ، ولا يميت مذهبا ، ولذا شجع المعتزلة وغيرهم فى الرد عليهم ، وأخذهم بالحجة ، وكشف شبهاتهم ، وفضح ضلالاتهم ، فمضوا فى ذلك غير وانين .

مناصرة الخلفاء للمعتزلة .

ظهر المعتزلة فى العصر الأموى ، فلم يجدوا من الأمويين معارضة لهم لأنهم لم يثيروا شغبا ، ولم يعلنوا حربا ، بل كانوا طائفة لا عمل لها ، إلا الفكر وقرع الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، ووزن الأمور بمقاييسها الصحيحة ، لا يتعرضون للسياسة إلا بقدر محدود ، وحجتهم فيما يرون بيان لا سنان ، وسلاحهم دليل قوى ، لا سيف مشهور .

ويحكى المسعودى فى مروج الذهب : أن يزيد بن الوليد كان يرى رأى المعتزلة ، ويعتقد بصحة أصولهم الخمسة .

ولما جاءت الدولة العباسية ، وكان سيل الإلحاد والزندقة قد طم ، وجد خلفاؤها فى المعتزلة سيفا مسلولا على الزنادقة فلم يفلوه ، وحربا شعواء منهم على الإلحاد ، فلم يخمدوها ، حتى جاء المأمون فشايعهم ، وقربهم ، ورأى ما بينهم وبين الفقهاء من خلاف ، فكان يعقد المناظرات بين الفريقين ، لينتهوا إلى رأى واحد ، ولكنه سقط سقطة ما كان لمثله أن يقع فيها ، وهو أنه أراد أن يحمل الفقهاء والمحدثين على رأى المعتزلة فى القرآن بقوة السلطان ، وما كانت قوة الحكم لنصرة الآراء ، وحمل الناس على غير ما يعتقدون ، وإذا كان من المحرم الإكراه فى الدين ، فكيف يحل حمل الناس على عقيدة ليس فى مخالفتها كفر ، بل تنزيه ، فقد حاول أن يحمل الفقهاء على القول بخلق القرآن ، فأجابه بعضهم إلى رغبته تقية ورهبا ؛ لا إيمانا واعتقادا ، وتحمل آخرون العنت والإرهاق والسجن الطويل ، ولم يقولوا غير ما يعتقدون واستمرت تلك الفتنة طول خلافة المعتصم والواثق ، لوصية المأمون بذلك ، وزاد الواثق الإكراه على نفى الرؤية الذى يراه المعتزلة ، ولما جاء المتوكل رفع هذه المحنة ، وترك الأمور تأخذ سيرها ، والآراء تجرى فى مجاريها ، وللناس فيها ما يختارون .

منزلة المعتزلة عند معاصريهم :

شن الفقهاء والمحدثون الغارة على المعتزلة فكان هؤلاء بين عدوين ، كلاهما ، أيد قوى ، الروافض والزنادقة ، ومن على شاكلتهم من ناحية ، والفقهاء والمحدثون من ناحية ، وإنك لترى فى مجادلات الفقهاء ومحاوراتهم تشنيعا على المعتزلة ، كلما لاحت لهم بارقة ، وإذا سمعت الشافعى وابن حنبل وغيرهم يذمون علم الكلام ، ومن يأخذ العلم على طريقة المتكلمين ، فانما المعتزلة أرادوا بذمهم ، وطريقتهم أرادوا بتزييفهم ، ولكن ما السر فى كراهية الفقهاء لهم ، وكلا الفريقين يسعى لنصرة الدين لا يألو جهداً فى تأييده ، ولا يدخر وسعا فى إقامته ، يظهر لى أن عدة أمور تضافرت فأوجدت ذلك العداء ، وتعارضت فسببت تلك البغضاء ؛ وهذا بعض منها :

١ - خالف المعتزلة طريقة السلف الصالح فى فهم عقائد الدين الحنيف ، كان القرآن الكريم هو الورد المورود الذى يلجأ إليه كل من يتعرف صفات الله سبحانه ، وما يجب الإيمان به من العقائد ، لا يصدرون عن غيره ، ولا يطمئنون لسواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات القرآن الكريم ، وهى بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ، وهم بها خبراء . وإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور غير مبتغين فتنة ، ولا راغبين فى زيغ ، ولا سالكين غير سبيل الحق القويم .

وقد كان ذلك ملائما للعرب كافيا لهم ، لأنهم قوم أميون ليسوا أهل علوم ولا منطق ولا فلسفة ، خالف المعتزلة ذلك المنهج ، وحكموا العقل فى كل شىء وجعلوه أساس بحثهم ، وساقهم شره عقولهم إلى محاولة اكتناه كل أمر ، فكان كل ذلك صدمة للفقهاء لم يألفوها ، فجردوا عليهم سيوفهم ، وأشاعوا عنهم قالة السوء ، وماكان المعتزلة فى الحقيقة إلا كما قال أحد العلماء الأوروبيين : إنا لم نسمع من المعتزلة صوت المخالفة للدين ، ولكن سمعنا صوت الضمير المتدين الذى يناضل ضد كل ما لا يليق بالله تعالى وعلاقته بعبده.

٢ - شغل المعتزلة بمجادلة الزنادقة والروافض والثنوية وغيرهم ، وكل مجادلة نوع من النزال ، والمحاربة ، والمحارب مأخوذ بطرق محاربه فى القتال مقيد بأسلحته ، متعرف لخططه ، دارس لمراميه ، متقص لغاياته ، وكل ذلك من شأنه أن يجعل الخصم متأثراً بخصمه ، آخذاً عنه بعض مناهجه ، فالمعتزلة قد تأثروا إلى حد ما بآراء مخالفيهم وأفكارهم ، وما أحسن قول نيبرج فى ذلك : .

من نازل عدوا عظيما فى معركة فهو مربوط به ، مقيد بشروط القتال ، وتقلب أحواله ، ويلزمه أن يلاحق عدوه فى حركاته ، وسكناته وقيامه وقعوده ، وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله ، كذلك فى معركة الأفكار ، وفى الجملة فللعدو تأثير فى تكوين الأفكار ليس بأقل من تأثير الحليف فيه ، حتى إن بعض الحنابلة قد شكا أن أصحابه انقطعوا إلى الرد على الملحدين

انقطاعا أداهم إلى الإلحاد ، فلا غرو بعد ذلك إذا رأيت شذوذا فى آراء بعض المعتزلة لتأثرهم بهذه المجادلة .

كانت طريقة المعتزلة فى معرفة العقائد عقلية خالصة ، لا يعتمدون على نص ، اللهم إلا إذا كان موضوع الكلام حكما شرعيا ، أو له صلة بحكم شرعى فجل اعتمادهم على العقل كما أسلفنا ، وللعقل نزوات وغرة ، لذلك وقعوا فى كثير من الهنات دفعتها إليهم نزعتهم العقلية الخالصة ، كقول الجبائى وهو من أئمتهم أن الله مطيع لعبده إذا أجاب دعاءه ، وكان سبب قوله هذا القول أنه سأل أبا الحسن الأشعرى قائلا له : ما معنى الطاعة عندك ؟ فقال موافقة الأمر ، وسأله هذا عن قوله فيها ، فقال الجبائى : الطاعة عندى موافقة الإرادة ، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه ، فقال أبو الحسن يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله مطيعا لعبده إذا فعل مراده ، ولو جاز أن يكون الله تعالى مطيعا لعبده لجاز أن يكون خاضعا له ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (١) .

وقول أبى الهذيل من أئمتهم أن أهل الجنة غير مختارين ، لأنهم لو كانوا مختارين لكانوا مكلفين ، والآخرة دار جزاء لا دار تكليف ، وفى ذلك شطط عقلى ، لأن الاختيار لا يستلزم التكليف ، وذكر الخياط أنه رجع عن هذا القول (٢) .

مثل هذا النوع من الشذوذ الفكرى كان يقع من بعضهم ، فيسير بين الناس عنهم ومعه قالة السوء عامة ، من غير أن تخص المسىء : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

٤ — خاصم المعتزلة كثيرين من رجال كانت لهم منزلة كبيرة عند الأمة ، ولم ينزهوا كلامهم فى خصومتهم ، وانظر إلى قول الجاحظ عن رجال

(١) الفرق بين الفرق .

(٢) الانتصار فى الرد على ابن الراوندى .

الحديث والفقه : وأصحاب الحديث والعوام هم الذين يقلدون ولا يحصلون ، ولا يتخيرون ، والتقليد مرغوب عنه فى حجة العقل ، منهى عنه فى القرآن ... إلى أن قال : وأما قولهم فالنساك والعباد منا ، فعباد الخوارج وحدهم أكثر عدداً من عبادهم ، على قلة عدد الخوارج فى جنب عددهم ، على أنهم أصحاب نية ، وأطيب طعمة ، وأبعد من التكسب ، وأصدق ورعا ، وأقل زيا ، وأدوم طريقة ، وأبذل للمهجة ، وأقل جمعا ومنعا ، وأظهر زهدا وجهدا (١) . فكان الطعن فى مذاهب هؤلاء بمر القول سببا فى نفور الأمة من المعتزلة .

٥ - كان من خلفاء بنى العباس من شايع المعتزلة ، وناصرهم ، واعتنق مذاهبهم ، وتعصب لها ، فأراد أن يحمل الناس على اعتناقها ، فآذى الفقهاء والمحدثين ، وابتلاهم ، وأنزل بهم المحنة ، فصبروا وصابروا ، واستدرت محنتهم عطف الناس عليهم وسخطهم على من كان سبب البلية ، ومن استحل هذه القضية ، فرجعت تلك الآلام وبالا على المعتزلة فى سمعتهم ، لأنهم أصل البلاء وخلطاء الخلفاء والأمراء ، صدروا عن رأيهم ، ونفذوا بتدبيرهم ، وكان منهم من دافع عن هذا الإرهاق ، وذلك الاضطهاد .

انظر إلى قول الجاحظ فى تبرير عمل الخلفاء فى امتحانهم الفقهاء والمحدثين : وبعد ، فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكا وكل امتحان تجسساً لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس تتبعا لعورة (٢) .

إن انهزام الآراء التى تناصرها القوة أمر محتوم ، لأن القوة المادية رعناء هوجاء من شأنها الشطط . والخروج على الجادة . وكل رأى يعتمد على القوة

(١) الفصول المختارة من كتب الجاحظ للإمام عبيد الله بن حسان .

(٢) الفصول المختارة أيضا .

فى تأييده تنعكس عليه الأمور ، لأن الناس يتظنون فى قوة دلائله ، إذ لو كان قويا بالبرهان ، ما احتاج فى النصرة إلى السلطان .

٦ - كان كثيرون من ذوى الإلحاد يجدون فى المعتزلة عشا يفرخون فيه بمفاسدهم وآرائهم ، ويلقون فيه جمعهم ودسهم على الإسلام والمسلمين ، حتى إذا تبدت أغراضهم أقصاهم المعتزلة عنهم . فابن الراوندى كان يعد منهم ، وأبو عيسى الوراق ، وأحمد بن حائط ، وفضل الحدثى ، كانوا ينتمون إليهم ، وكل هؤلاء أحدثوا الأحداث فى الإسلام ، وأتوا بالمنكرات ، وكان منهم من استؤجر لليهود لإفساد عقيدة المسلمين ، وانتماؤهم للمعتزلة أول أمرهم ، وإن فصلوا عنهم عند ظهور شنائعهم يجعل رشاشا مما لطخوا به ينال سمعة المعتزلة وإن أقسموا جهد أيمانهم أنهم منهم براء ، فإن الاتهام إلى الأذهان من البراءة .

اتهام الفقهاء والمحدثين لهم :

اشتدت حملة أولئك على المعتزلة ، فاتهموهم فى كل شىء حتى أن الإمام محمد بن الحسن الشيبانى أفتى بأن من صلى خلف المعتزلى يعيد صلاته ، والإمام أبا يوسف عدهم من الزنادقة ، والإمامان مالك والشافعى لم يقبلا الشهادة من أحدهم . وسرت مقالة السوء إلى من ينتمى إليهم ، حتى اتهموهم بالفسق وانتهاك الحرمات . وفى الحق إن كل خصومة تؤدى إلى الملاحاة لابد أن تؤدى إلى المهاترة ، ورمى الخصم خصمه بالحق وبالباطل ، فكثير من التهم التى وجهت إلى المعتزلة لم تصدر عن إنصاف ، بل كان التحيز رائد المتهمين والتعصب دليلهم ، وكل تعصب يسد مسامع الإدراك فى ناحية من النواحى ، فالمعتزلة فيهم خير كثير ، ولو كان قد انتمى إليهم بعض المتهمين فى دينهم المأخوذين بإثمهم ، إذ أن لهم سابقة الفضل بالدفاع عن الإسلام ، فقد تفرق أتباع واصل فى الأقطار الإسلامية رادين على أهل الأهواء ، وكان عمرو بن عبيد حربا على الزنادقة مشبوبة ، لا تخمد أوارها . وكان صديقا لبشار بن برد ، فلما علم منه الزندقة سعى فى نفيه من بغداد فنفى ولم يعد إلا بعد موت عمرو .

وكان منهم العباد الزهاد . فهذا عمرو بن عبيد (١) . يقول فيه الجاحظ (متعصبا) إن عبادته تفى بعبادة عامة عبادة الفقهاء والمحدثين .

وقال الواثق لأحمد بن أبي دؤاد وزيره لِمَ لَمْ تول أصحابي (المعتزلة) القضاء ، كما تولى غيرهم ، فقال: ياأمير المؤمنين إن أصحابك يمتنعون عن ذلك ، وهذا جعفر بن مبشر وجهت إليه بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها ، فذهبت إليه بنفسى ، واستأذنت فأبى أن يأذن لى ، فدخلت من غير إذن ، فسل سيفه فى وجهى ، وقال: الآن حل لى قتلك ، فانصرفت عنه ، فكيف أولى القضاء مثله .

ومن الغريب أن جعفراً هذا حمل إليه بعض أصحابه درهمين فقبلهما ، فقيل له كيف ترد عشرة آلاف درهم ، وتقبل درهمين ؟ فقال أرباب العشرة أحق بها منى ، وأنا أحق بهذين الدرهمين ، لحاجتى إليهما ، وقد ساقهما الله إلى من غير مسألة ، وأغنانى بهما عن الشبهة والحرام .

فهذه نفس قوية تسد كل باب للشبهات ، اشتبه فى مال السلطان لظنه أنه جمع عن غير الطرق المحللة ، فرفض العطاء ، وقبل الدرهمين حلالا طيبا .

ومن هذا السياق ترى أن المعتزلة كان منهم الزهاد ، ومنهم المقتصدون وقليل منهم ساء ما يفعلون .

مناظرات المعتزلة

تكون علم الكلام من مجموع مناظرات المعتزلة مع خصومهم ، سواء أكانوا من الرافضة ، والمجوس والثنوية ، وسائر أهل الأهواء ، أم من رجال الفقه والحديث ، أم من الأشاعرة والماتريدية . فهم مركز الدائرة ،

---

(١) كان المنصور يبالغ فى تعظيم عمرو بن عبيد ورثاه بقوله :

صلى الإله عليك من متوسل ... قبرا مررت به على مران
قبرا تضمن مؤمنا متخشعا ... عبد الإله ودان بالقرآن
وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة ... فصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحا ... أبقى لنا عمرا أبا عثمان

وقطب الرحى ، شغلوا الأمة الإسلامية بمجادلاتهم ومناظراتهم نحو ثلاثة قرون ازدحمت فيها مجالس الأمراء والوزراء والعلماء ، وتضاربت فيها الآراء ، وتناحرت المذاهب ، وتجاوبت فيها أصداء الفكر الإسلامى ، وقد زين بزينة فارسية أو يونانية أوهندية . وقد امتازوا فى جدلهم بميزات واختصوا بخصائص جعلت لهم لونا خاصا ، ونحلة خاصة ، لا تختلف فى مجملها عما دعا إليها الدين ، وإن تباينت طرق استنباطها ، وتخالفت مقدماتهم الاستنباطية عن مقدمات غيرهم من جماهير الأمة الإسلامية . وأوضح ميزاتهم فى الجدل :

١ - مجانبتهم التقليد ، ومجافاتهم الاتباع لغيرهم ، من غير بحث وتنقيب ووزن للأدلة ومقايسة للأمور ، الاحترام عندهم للآراء لا للأسماء ، وللحقيقة لا للقائل ، ولذلك لم يكن يقلد بعضهم بعضا . وقاعدتهم التى يسيرون عليها أن كل مكلف مطالب بما يؤديه إليه اجتهاده فى أصول الدين ، ولعل ذلك هو السبب فى افتراقهم إلى فرق كثيرة .

منهم الواصلية (١) والهذيلية (٢) والنظامية (٣) والحائطية (٤) ، والبشرية (٥) والمعمرية (٦) والمزدارية (٧) والثمامية (٨) والهشامية (٩) والجاحظية (١٠) والخياطية (١١) والجبائية (١٢) والبهشمية (١٣) .

---

(١) أصحاب واصل بن عطاء .
(٢) أصحاب أبى الهذيل العلاف .
(٣) أصحاب النظام .
(٤) أصحاب أحمد بن حائط .
(٥) أصحاب بشر بن المعتمر .
(٦) أصحاب معمر بن عباد السلمى .
(٧) أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار .
(٨) أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى .
(٩) أصحاب هشام بن عمر الفوطى .
(١٠) أصحاب الجاحظ .
(١١) أصحاب ابى الحسين الخياط .
(١٢) أصحاب الجبائى .
(١٣) أصحاب أبى هاشم عبد السلام بن الجبائى .

٢ — اعتمادهم على العقل فى إثبات العقائد . وقد اتخذوا من القرآن الكريم مددا ، حتى لايذهب بهم الشطط إلى الخروج عن جادته ، ولم تكن معرفتهم بالحديث كبيرة ، لأنهم ماكانوا يأخذون به فى العقائد ولايحتجون به .

٣ — أخذهم من مناهل العلوم التى ترجمت فى عصرهم ، فقد ضربوا بسهم فى تلك العلوم ، ونالوا منها ما يساعدهم فى اللحن بالحجة ، ومقارعة الخصوم ومصارعة الأقوام فى ميدان الكلام . وقد انضم إليهم كل مسلم مثقف بالثقافة الأجنبية التى غذت العقل العربى فى ذلك العصر . فقد رأى ما يلائمه فى آراء المعتزلة التى كانت جامعة بين الروح الدينية التى تظلها ، وفكرة التنزيه التى تسيطر عليها ، والأفكار الفلسفية التى ترضى النهمة العقلية ، ولذلك كان بين رجالها كثيرون من الكتاب الممتازين ، والعلماء المبرزين ، والفلاسفة الفاهمين جمع عظيم .

٤ — اللسن والفصاحة والبيان ، فقد كان بين رجالها خطباء مصاقع ، ومناظرون لبقون ، ومجادلون قد مرسوا بالجدل ، فعرفوا أفانينه ، وخبروا طرقه . ودرسوا كيف يصرعون الخصوم ويلوون عليهم المقاصد ، وهذا واصل بن عطاء كبيرهم ، خطيب عليم بخواطر النفوس ، حاضر البديهة ، قوى الارتجال . وهذا النظام من شيوخهم كان ذكيا بليغا ، جاد اللسان أديبا شاعراً ، وهذا أبو عثمان عمرو الجاحظ الذى يقول فيه أحد الصابئة ثابت بن قرة : أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتكلمين إن تكلم حكى سحبان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل ، شيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفا ، ولا تعرض له متعرض ، إلا قدم له التواضع استبقاء .

خصوم المعتزلة :

جادل المعتزلة :

١ — الروافض والمجوس والثنوية والجهمية وسائر أهل البدع .

٢ — الفقهاء المحدثين ..

٣ — الأشاعر والماتريدية ..

وسنتكلم الآن على جدلهم مع الروافض والجهمية ومن إليهم ، والفقهاء والمحدثين ، ونبقى الكلام على جدلهم مع الأشاعرة إلى أن يحين وقت الكلام عليهم .

مجادلتهم للكفار وأهل الأهواء :

فى آخر العصر الأموى ، وصدر الدولة العباسية كثر الزنادقة والديصانية ، والمرقيونية ، وغيرهم من أهل الأهواء ، وكانوا تارة يكشفون القناع ، وأحيانا ينفثون تعاليمهم مستترين بلباس الإسلام ، متسربلين بسرباله ، ليدس السم من غير أن يشعر بهم أحد فلا يحترس منهم المتدينون ؛ وقد كان جل الرافضة على ذلك النحو ، فكانوا أشد عداوة على الإسلام من غيرهم ، وأعظم نكاية له ، وأهدى إلى مقاتله لاغترار بعض الناس بهم ، فتصدى لهم المعتزلة ، وصارعوهم فى كل ميدان ، ظنوا أنهم يحاربون الإسلام فيه ، ثم لاقوا الثنوية والديصانية والدهرية وغيرهم ممن استمد منهم الروافض وجها لوجه ، فلقد فرق واصل أصحابه فى الأمصار لمحاربة الزنادقة فيها ، ودافع بنفسه . ومن مؤلفاته كتاب ألف مسألة للرد على المانوية ، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده ، وكان جدلهم بقوة ونهوض دليل ، وفصاحة ، وبيان ، وقدرة على الإقناع اكتسبوها من علومهم وممارستهم الجدل حتى

---

(١) ومما يحكى أن صالح بن عبد القدوس وقد كان سوفسطائيا مات له ولد فمضى إليه أبو الهذيل العلاف والنظام معه وهو غلام حدث كالتبع له . فرآه محترقا . فقال أبو الهذيل لا أدرى لجزعك وجها ، إذا كان الناس عندك كالزرع . فقال صالح يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه ، لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان . فقال له النظام : فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت ، وإن مات ، وشك أيضا فى أنه قد قرأ هذا الكتاب ، وإن لم يكن قرأه فسكت صالح . (من شرح العيون) .

إن كثيرين من خصومهم كانوا يغمدون السلاح ، ويلقون السلم عند لقائهم وكثير منهم كان يسلم بعد نقاشهم .

وهذا أبو الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من المجوس والثنوية ، لحذقه وبراعته فى المناظرة ، وقوة ما يدعو إليه ، وضعف ما يلوون ألسنتهم به ، ولكن نعطيك صورة مما كان يجادل به المعتزلة ، ومقدار قوة استدلالهم ننقل لك بعضا مما روى من هذه المناقشات ، جاء فى الانتصار : أن المانوية تزعم أن الصدق والكذب متضادان ، وأن الصدق خير ، وهو من النور ، والكذب شر وهو من الظلمة . قال لهم (إبراهيم النظام) حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه ، من الكاذب ؟ قالوا الظلمة . قال فان ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب وقال قد كذبت وأسأت . من القائل قد كذبت ؟ فاختلطوا عن ذلك ولم يدروا ما يقولون . فقال إبراهيم النظام : أن زعمتم إن النور هو القائل قد كذبت وأسأت فقد كذب ، لأنه لم يكن الكذب منه ، ولا قاله ، والكذب شر ، فقد كان من النور شر ، وهذا هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت ، فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان خيراً وشراً على حكمكم .

انظر إلى ذلك الاستقراء والتتبع ، وأخذ الطرق على المناقش ، حتى يفحمه،وكذلك كانت مناقشة المعتزلة للروافض وغيرهم ممن على شاكلتهم . ومع هذا يجب أن نقرر أنه مع هذه المناقشة الحادة التى كانت تقوم بينهم وبين المعتزلة . كان هؤلاء يحسنون فى معاملتهم . وتلك أخلاق العلماء تتسع صدورهم لمودة مخالفيهم فى الدين حتى يهديهم الله سواء السبيل .

مجادلتهم مع الفقهاء والمحدثين :

من المقرر من كتب علم النفس (١) أن المختلفين إن تقاربا فى العقيدة كان الجدال أشد ، والملاحاة أحد ، وذلك ما كان ، فإن موضع الخلاف بين

---

(١) ذكر هذه القضية وأثبتها جوستاف لوبون ، فى كتابه : الآراء والمعتقدات .

المعتزلة والفقهاء هين متدارك ، لا يكفر به مخالف ، ولايخرج به عن نهج الدين مجادل ، ولكن الجدال بينهما كان عنيفا ، والمهاترة قد راجت سوقها ، ولعل السبب فوق ما سبق أن الاختلاف كان اختلاف عقلية ومنطق ، وطرائق تفكير فى هذا الدين القويم ، فالفقهاء والمحدثون يتعرفون دينهم من الكتاب والسنة ، وعملهم العقلى فهم نصوص الكتاب الكريم ، وتعرف الصحيح من المأثور عن الرسول الأمين ، ويعد طلب الدين من غير هذا الطريق شططا وتحيفا وعوجا .

والمعتزلة يرون أن إثبات العقائد بالأقيسة العقلية جائز إن لم يكن واجبا مادامت لم تخالف نصا فى الدين بل تؤيده ، هم لذلك يستخدمون المنطق ، والبحوث الفلسفية ، وإثبات عقائد الإسلام ، وأولئك الفقهاء يجافونها ويرون الوقوف عند النص ، حتى لا تزل الأقدام فى مزالق الضلال ، ومخاطر الأوهام ، والعقل يخدع ويغتر فيضل .

وليس معنى هذا الكلام أنه لم يكن هناك خلاف بل كان بينهما خلاف فى جزئيات كثيرة ، ولكنه لا يصيب لب العقيدة : ولذلك هم لا يكفرون الفقهاء والمحدثين ، وهؤلاء لا يكفرونهم بل يعدونهم مبتدعة .

وجدالهم كان صورة لاختلاف هاتين العقليتين ، واقرأ مجادلتهم فى مسألة خلق القرآن ، تجد المعتزلى منطلقا وراء الأقيسة العقلية من غير أى قيد يقيد به نفسه إلا التنزيه ، والفقيه أو المحدث متوقف متحفظ ، غير متهجم على ما لم ينص عليه فى كتاب ولا سنة ، وقد علمت أن الجمهور كان وراء الفقهاء والمحدثين على ما أسلفنا .

المأثور من مجادلات المعتزلة

كان العصر العباسى عصر المناظرات حقا ، وكانت هى ميدان البيان ومظهر الفصاحة واللسن ، وقد كان المعتزلة فرسان الحلبة فى المناظرات فى العقائـــد .

وقد كثرت مجالس مناظراتهم . فقد تناظروا بين أيدى الأمراء ، وفى المساجد ، وفى كل مكان يصلح للجدل والمناظرة ، ولكن المأثور من المناظرات قليل بالنسبة لما كان . ولعل السبب فى ذلك ، أن أكثر تلك المناظرات كان ارتجاليا ، ومن الصعب تدوين جميع ما يقال ، ذلك إلى أن اضطهاد المعتزلة فى عصر المتوكل ، وما والاه ، وكراهية الجماهير الإسلامية لهم ، كانا سببا فى ضياع كثير من آثارهم ، واندثار أكثر مناظراتهم ، وما بقى على قلته يعطينا صورة من قوة جدلهم ، ويبين لنا أنهم قوم خصمون .

* * *

مختارات من مناظرات المعتزلة

المناظرة الأولى

مناظرة واصل بن عطاء لعمرو بن عبيد

لما فارق واصل مجلس الحسن البصرى ، أرسل إليه هنا عمرو بن عبيد يناظره .

قال واصل :

لم قلتم من أتى كبيرة من أهل القبلة استحق اسم النفاق ؟ فقال عمرو : لقوله تعالى « والذين يرمون المحصنات . ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون» . فكأن كل فاسق منافق ، إذ كان ألف المعرفة ولامها موجودين فى الفاسق .

قال واصل :

أليس قد وجدت الله تعالى يقول : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وأجمع أهل العلم على أن صاحب الكبيرة من أهل القبلة استحق اسم ظالم ، كما استحق اسم فاسق ، فألا كفرتم صاحب الكبيرة من أهل القبلة بقوله تعالى : « والكافرون هم الظالمون » فعرف بألف ولام التعريف فى قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » كما قال تعالى فى القاذف «وأولئك هم الفاسقون» فسميته منافقا لقوله تعالى «إن المنافقين هم الفاسقون » ؟

يا أبا عثمان أيما أولى أن نستعمل فى المحدثين من أمتنا ما اتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة ، أم ما اختلفوا فيه ؟ فقال عمرو : بل ما اتفقوا عليه أولى . فقال واصل ألست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقا ، ويختلفون فيما عدا ذلك من أسمائه ، لأن الخوارج تسميه مشركا فاسقا ، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقا ، والحسن يسميه منافقا فاسقا والمرجئة تسميه مؤمنا فاسقا ، فالواجب أن يسمى بالاسم الذى اتفق المختلفون عليه ، وهو الفسق ، ولا يسمى بما عدا ذلك من الأسماء التى اختلفوا فيها ،

فهذا أشبه بأهل الدين ، فقال عمرو : ما بيني وبين الحق عداوة ، والقول قولك ، فليشهد على من حضر أنى تارك للمذهب الذى كنت أذهب إليه ، قائل بقول أبى حذيفة ، وإنى قد اعتزلت مذهب الحسن فى هذا الباب .

المناظرة الثانية

مناظرة المأمون للمرتد الخراسانى

ارتد خراسانى عن الإسلام ، فحمل إلى المأمون ، حتى وافاه بالعراق . فقال له المأمون : لأن أستحييك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق ، ولأن أقيلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة ، قد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا ، وكنت فيها أتيح ، وأيامك أطول ، فاستوحشت مما كنت به آنسا ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافراً ، فخبرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار آنس لك من إلفك القديم ، وأنسك الأول ؛ فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة ، وإن أخطأك الشفاء ، ونبا عن دائك الدواء ، كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة ، فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، أو ترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تفرط فى الدخول فى باب الحزم .

قال المرتد :

أوحشنى كثرة مارأيت من الاختلاف فيكم .

قال المأمون :

لنا اختلافان أحدهما كالاختلاف فى الأذان ، وتكبير الجنائز ، والاختلاف فى التشهد ، وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ، ووجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف ، إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى ، وأقام مثنى لم يؤثم ، ومن أذن مثنى ، وأقام فرادى لم يحوب ، لا يتعايرون ، ولا يتعايبون . أنت ترى ذلك عيانا ،

وتشهد عليه تبيانا ، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذى أوحشك هذا ، حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب ، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقا على تأويله ، كما يكون متفقا على تنزيله ، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف فى تأويل ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ، ويجعل كلام أنبيائه ، وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله الدنيا .

قال المرتد : أشهد أن الله واحد ، لا ند له ولا ولد ، وأن المسيح عبده ، وأن محمداً صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا .

* * *

الجدل فى الفروع فى العصر الأموى

فى ذلك العصر تفرقت الأمة سياسيا إلى شيعة وخوارج وأمويين ، كما علمت ، وسرى ذلك الاختلاف إلى العقائد وإلى الفروع ، وتفرق الصحابة والتابعون ، فى الأقطار الإسلامية ، فرأوا ما لم يكونوا قد رأوه ، وانفتقت أذهانهم إلى أمور لم يكونوا يعرفونها ، وفى هذا العصر كثر التحدث عن رسول الله ﷺ فكان ذلك التفرق مع شيوع التحدث سببا فى كثرة الكذب عليه ﷺ ، وقد قوى ذلك دخول طوائف من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم فى الدين الإسلامى ، وهم متأثرون بتعاليمهم القديمة ، فأدخلوا على الأحاديث شيئاً كثيراً من الإسرائيليات وغيرها .

وقد قال الإمام النووى فى بيان الدوافع إلى الكذب على النبى ﷺ : وهم أنواع منهم من يضع عليه ما لم يقله أصلا ، إما ترفعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم ممن لم يرج للدين وقارا ، وإما حسبة بزعمهم كجهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث فى الفضائل والرغائب ، وإما إغرابا وسمعة كفسقة المحدثين ، وإما تعصبا واحتجاجا كدعاء المبتدعة ومتعصبى المذاهب ، وإما اتباعا لهوى أهل الدنيا فيما أرادوه وطلب العذر لهم فيما أتوه إلخ (١) .

أهل الرأى وأهل الحديث :

قدعلمت أن الصحابة كانوا يجتهدون آراءهم إذا لم يجدوا نصاً فى القرآن الكريم ولا فى السنة ، ولكنهم كانوا يخشون الانسياق وراء الآراء ، حتى لا يضلوا ، ولكيلا يبعدوا عن سمت الدين ومنهج الحق ، لذلك أثر عن كثيرين منهم النهى عن الآراء ، فقد قال عمر : يأيها الناس إن الرأى كان من رسول الله

---

(١) شرح مسلم للنووى ، وقد أسند ذلك إلى القاضى عياض .

ﷺ مصيبا ، لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف . وقال : اتقوا الرأى فى دينكم ، وكان يقول : أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لانعلم ، فعارضوا السنن برأيهم ، فإياكم وإياهم (١) .

لذلك وجد قوم من المجتهدين فى ذلك العصر يكرهون الرأى ، ولايفتون إلا بالحديث ، فإن لم يجدوا الحديث توقفوا ، وكان أكثر هؤلاء فى الحجاز ، وسموا أهل الحديث ، كما وجد قوم أكثر اجتهادهم بالقياس والرأى ، لكثرة ما فى الحديث من كذب على رسول الله ﷺ ، وهذا الفريق يرى أن الشريعة معقولة المعنى ، ولها أصول يرجع إليها ، فكانوا لا يخالفون الأولين فى العمل بالكتاب والسنة ما وجدوا إليهما سبيلا ، ولكنهم لاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة ، كانوا لا يحجمون عن الفتوى ، برأيهم فيما لم يجدوا فيه نصاً .

وفوق ذلك كانوا يحبون معرفة العلل والغايات التى من أجلها شرعت الأحكام ، وربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها لأصول الشريعة(٢) ، وكان مقام هؤلاء بالعراق لإقامة عبد الله بن مسعود به ، وقد كان من أهل الرأى ، ولأن أكثر رواة الحديث كانوا بالحجاز ، وللتعاليم الفارسية واليونانية التى كانت بالعراق ، وقد امتاز أهل الرأى بقلة روايتهم للحديث وكثرة تفريعهم الفروع ، حتى وصلوا إلى وضع أحكام لأمور تتخيل بالخيال ، ولا يحققها الواقع ، كما امتاز رجال الحديث بكثرة روايته ، ووقوفهم عند النص ،

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ١٤٥ و١٤٦ .

(٢) تاريخ التشريع الإسلامى للأستاذ المرحوم الشيخ محمد الخضرى « بك » .

مجادلاتهم :

اشتدت المجادلة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ولكنها مجادلة منشؤها طريقة الدراسة لا الهوى ، كلهم يطلب الحق ، وكلهم يسعى إليه . لكن اختلاف الطرق شعب الأنظار ، وأوجد ذلك الاختلاف فى الفروع ، انظر إلى تلك المناقشة بين أبى حنيفة وهو من أهل الرأى ، والأوزاعى وهو من أئمة الحديث كما روى سفيان بن عيينة إذ قال :

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى دار الحياطين بمكة المكرمة . فقال الأوزاعى لأبى حنيفة : مالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع ، وعند الرفع منه ، فقال أبو حنيفة لأجل أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع ، وعند الرفع . قال : كيف ؟ وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع ، فقال أبو حنيفة حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولا يعود إلى شىء من ذلك . فقال الأوزاعى أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، وتقول حدثنى حماد عن إبراهيم فقال أبو حنيفة كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان إبراهيم أفقه من سالم . وعلقمة ليس بدون ابن عمر ، وإن كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبة فالأسود له فضل كثير .

تعطيك هذه المناقشة أن الاثنين اتفقا فى العمل بالحديث ، ولكن أباحنيفة لاحظ أولا فقه الرواة .

وكانت المناظرة بريئة لا يقصد بها إلا إحقاق الحق ، وكلهم من نور الشريعة مقتبس . واقرأ الرسائل التى كانت بين الإمام مالك والليث تجد الخلاف فى وجهة النظر مع أدب المناقشة وحسن المودة وسعة الصدر التى امتاز بها العلماء المحققون ، بيد أنا نقول إن كراهة رجال الحديث للرأى وتخوفهم منه

جعل لسان كثير منهم ينزلق إلى مذمته ، وينال رشاش منه القائلين به ، وانظر إلى قول الشعبي لداود : احفظ عني ثلاثا : إذا سئلت عن مسألة ، فأجبت فيها ، فلا تتبع مسألتك أرأيت ، فان الله قال في كتابه : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » حتى فرغ من الآية . والثانية إذا سئلت عن مسألة فلاتقس شيئا بشيء ، فربما حرمت حلالا أو حللت حراما ، والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم [١] . وقال أيضا : والله لقد بغض هؤلاء القوم إلى المسجد لهو أبغض إلى من كناسة داري ، قيل ومن هم يا أبا عمر قال الأرأتيون [٢] .

• • •

(١) الموافقات للشاطبي .

(٢) يقصد بذلك أهل الرأي لكثرة تفريعهم المسائل وكانوا يقولون أرأيت لو حصل كذا ، أرأيت لوكان كذا .

مختار من جدل المجتهدين في ذلك العصر

أرسل الليث بن سعد فقيه مصر إلى مالك بن أنس كتابا يبين فيه دليل ما خالفه فيه ، وها هو ذا الكتاب :

نسلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ، قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم ، وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيراً ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ماكتبت إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا ، إلا أنى لم أذاكرك مثل هذا . وأنه بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإنى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن الكريم ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى . والحمد لله رب العالمين الذى لاشريك له . وأما ماذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة ، ونزول القرآن الكريم بها عليه بين ظهرانى أصحابه ، وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه فكما ذكرت ، وأما ماذكرت من قول الله تعالى «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » .

فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وأقرهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ، ولا غافلين عنهم ، بل كانوا فى الأمر اليسير ، لإقامة الدين ، والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمراً فسره القرآن ، أو عمل به النبى ﷺ أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهوه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه ، حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعده فى الفتيا فى أشياء كثيرة ، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، سعيد ابن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن شهاب ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قدمضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذى الرأى من أهل المدينة يحيى بن سعيد ، وعبيد الله بن عمر وكثير ابن فرقد وغيرهم كثير ممن هو أسن منه ، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه ، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيت به على ربيعة من ذلك فكنتما الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ما أكرهه ، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة فى الإسلام ، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له ، وجزاه أحسن من عمله ، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا ، فربما كتب إليه

فى الشىء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك . فهذا الذى يدعونى إلى ترك ما أنكرت تركى إياه ، وقد عرفت أيضا عيب إنكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه الا الله ، لم يجمع منهم إمام قط فى ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل . ويأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برتوة (خطوة) وشرحبيل بن حسنة ، وأبو الدرداء ، وبلال بن رباح ، وكان أبو ذر بمصر ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر ، وبأجناد المسلمين كلها . وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وعمران بن حصين . ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه سنين ، وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط . ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق ، وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ثم ولى عمر بن عبد العزيز ، وكان كما قد علمت فى إحياء السنن والجد فى إقامة الدين ، والإصابة فى الرأى ، والعلم بما قد مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فكتب إليه إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة ، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين ، ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا . ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت ، فدفع إليها ،

وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام ، وأهل مصر ، ولم يقص أحـد من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا من بعـدهم لامرأة بصـداقها المؤخر ، إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق ، فتقوم على حقها ؛ ومن ذلك قولهم فى الإيلاء أنه لا يكون عليه طلاق ، حتى يوقف وإن مرت الأربعة الأشهر .

وقد حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذى كان يروى ذلك التوقيف بعد الأشهر أن الإيلاء الذى ذكر الله فى كتابه لا يحل للمولى إذا بلغ الأجل إلا أن يفيء كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون إن لبث بعد الأربعة الأشهر التى سن الله فى كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق ، وقد بلغنا أن عثمان ابن عفان ، وزيد بن ثابت ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف . قالوا فى الإيلاء إذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة بائنة ، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب إذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة ، وله الرجعة فى العدة ، ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهى تطليقة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا فهى تطليقة ؛ وقضى بذلك عبد الملك ابن مروان ، وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقوله وقد كان الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق ، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا بانت منه ، ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فيدخل بها ، ثم يموت أو يطلقها إلا أن يرد عليها فى مجلسه فيقول إنما ملكتك واحدة ، فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته . ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول ، أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات . وكان ربيعة يقول ذلك . وإن تزوجت المرأة الحرة عبداً ، فاشترته فمثل ذلك . وقد بلغنا عنكم شىء من الفتيا مستكرها ، وقد كتبت إليك فى بعضها فلم تجبنى فى كتابى ، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك ، فتركت الكتاب إليك فى شىء مما أنكره ، وفيما

أوردت فيه على رأيك ، وذلك أنه بلغنى أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالى حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة فى الاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة ، فدعا ، حول رداءه ثم نزل فصلى ، وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وغيرهما ، فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه . ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول فى الخليطين فى المال أنه لاتجب عليهما الصدقة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ؛ وفى كتاب عمر ابن الخطاب أن يجب عليهما الصدقة ، ويترادان بالسوية . وقد كان ذلك يعمل به فى ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم ، وغيره ، والذى حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمانه ، فرحمه الله ، وغفر له ، وجعل الجنة مصيره . ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول إذا أفلس الرجل ؛ وقد باعه رجل سلعة ، فتقاضى طائفة من ثمنها ، أو أنفق المشترى طائفة منها أنه يأخذ ماوجد من متاعه ، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئا ، أو أنفق المشترى منها شيئا ، فليست بعينها ، ومن ذلك أنك تذكر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث ، أهل الشام ، وأهل مصر ، وأهل العراق ، وأهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغى لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالف الأمة أجمعين . وقد تركت أشـياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسى بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلىّ بخبرك وحالك ، وحال ولدك ، وأهلك ، وحاجة ، وإن كانت لك ، أو لأحد يوصل لك ، فإنى أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله .

العصر العباسي

تمهيد :

امتاز العصر العباسي بميزات جعلته أزهر العصور العربية ، من حيث العلوم ، والآداب ، والفلسفة .

وقد كان لهذا أثره فى الجدل ، إذ هو صورة للمنازع العقلية ، والنزوع الفكرى للأمم ، ولهذا كان لابد من الكلام إجمالا عما اعترى الفكر الإسلامى والحياة الإسلامية من تغير ، ذاكرين أسبابه إجمالا :

وأعظم الأسباب لما طرأ على العرب من تغير فى ذلك العصر هو اختلاطهم بغيرهم من الأمم ، وثمرة ذلك الاختلاط لم تبتدىء فى ذلك العصر بل كانت فى أول القرن الثانى الهجرى ، إذ تغلغل الموالى فى الاتصال بالعرب وكثر التزاوج والتصاهر بينهم ؛ وابتدأت الأمم ذوات الحضارات القديمة وخصوصا الفرس يلبسون العرب ثيابا من حضاراتهم ، ويخلعون عليهم حللا من ترفهم . وقد أخذت النفس العربية تتنزل عن عصبيتها وحميتها.

اختلط العرب بالموالى ماديا ، وشاركوهم فى عيشتهم ، وأسهموا معهم فى أرزاقهم ، واختاروا منهم أزواجا وأمهات أولاد ، وحكموهم سياسيا . فكان لهذا كله أثر عقلى ، إذ تشارك العقلان ، وتنزل كلاهما عن بعض خواصه ، فتكون من المزيج عقل واحد ، له خواص مشتركة ، ومناح فكرية متحدة ، غير أن ذلك احتاج إلى زمن مديد ، فان من السهل اشتراك طوائف من الناس فى مطالب مادية واحدة ، ونوع من الحكم واحد ، ولكن من الصعب جمعهم على عاطفة واحدة ، وإحساس مشترك ، ونظر إلى الحياة واحد،وأغراض وآمال تحدوهم جميعا إلى غاية واحدة ، وفكر يوحد أنظارهم ، ويجمع أشتات خواطرهم صوب شىء واحد ، لذلك لم تظهر عقلية جديدة فى الحياة الإسلامية بمجرد الاختلاط المادى ، والخضوع السياسى ، بل مضى زمن صهرت فيه العواطف والأفكار ، وبدت فى

عاطفة جديدة وظاهرة فكرية جديدة ، بزغت فى مبتدأ هذا القرن ، وتكامل نموها فى منتهاه .

وقد تضافرت أمور فى إنماء تلك العاطفة المشتركة ، وذلك الفكر المشترك ، منها الانقلاب السياسى الذى انتقل به الملك من الأمويين إلى العباسيين أو من العرب إلى الفرس . فإن الفرس الذين نصروا بنى العباس ، كان لهم سلطان فى عهدهم ، قويا أحيانا ، وضعيفا أحيانا . والعرب محرومون فى الحالين ، فانغمروا فى سائر الناس ، وطوتهم لجة الحياة الاجتماعية ، وأخذ الفرس ينشرون حضارتهم متأثرة بالإسلام ، وببقايا الأخلاق العربية ، أو حضارة هى مجموع العنصرين ، ولكن عنصر الفرس فيها أغلب ، لأنهم كانوا أقوياء بسلطانهم ، وكانوا أقوياء بآمالهم التى زينت لهم إحياء ملكهم القديم ، وكانوا أقوياء بحضارتهم القديمة ، وميراثهم الفكرى . فلما اصطدمت عاداتهم بعادات العرب ، وتقاليدهم بتقاليد العرب غلبتها ، وإن تأثرت قليلا بها ، ولما تضاربت فى الرءوس تعاليمهم بتعاليم العرب ، ألبستها ثوبا من خيالها وصورها الذهنية .

ولم تكن المعركة قائمة بين العرب والفرس فقط ، لأن أمما أخرى كان لها أثر فى تكوين تلك الحضارة الجديدة ، إلا أن الفرس أظهرها ، وأشدها تأثيراً لسابق ملكهم الذى أورثهم مطامع وآمالا ، ولعظم سلطانهم بنصرتهم العباسيين ، ولأن مكان الاصطدام وهو العراق كان قريبا منهم ، مزدحما بهم ، متأثراً بنفوذهم قبل الإسلام وبعده .

والفكر الفارسى الذى كان له بليغ الأثر فى الحياة الإسلامية فى ذلك العصر ، كان متأثراً بالفكر اليونانى ، لغزو الفلسفة اليونانية له قبل الإسلام وبعده ، فإن الفلسفة اليونانية قد أنشئت لها مدارس قبيل الإسلام فى فارس ، وبعد الإسلام جاءت هذه الفلسفة لابسة ثوبا يهوديا ومسيحيا على ألسنة السريان الذين أجادوا العربية ، فتأثر بهم المسلمون . وكان الفرس بطبيعة تكوينهم الفكرى أشد قبولا لها ، لسابق عهدهم بها ، ولاستعدادهم

للتأمل الذى يوائم الفلسفة ، ويوافقها ، فكان ذلك عاملا عظيما من عوامل تغير التفكير الإسلامى فى عصر العباسيين .

وقد كان مظهر ذلك التغير الفكرى الحركة العلمية التى ظهرت فى ذلك العصر ، فإنه ما سكنت ريح الفتن السياسية حتى أخذت الأفكار تستغل الثقافات المختلفة التى توردت إليها من عدة جهات ، فكثر التدوين فى العلوم العربية والدينية ، فدونت أكثر قواعد النحو ، وابتدأ التفكير فى علوم البلاغة ، ووضع ضوابط عامة لها ، إذ كثر النقد والبحث والموازنات بين المتقدمين والمتأخرين . وكانت النهضة الفقهية فى استنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتفريع الفروع ، ووضع القواعد، وإحكام الصلة بين الأحكام وينبوع الدين ، فدون الفقه وأصوله ، ودونت السنة ، وقوانين روايتها ، وموازين صحة النسبة فيها .

وبجوار ذلك كانت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية قائمة على قدم وساق ، وزخرت اللغة العربية بأرسال من الأفكار اليونانية ، جاءتها من عدة طرائق ، جاءتها من طريق الفرس المتأثرين باليونان ، كما بينا ، وجاءتها من طريق السريان الذين كانوا أعظم ورثة اليونان إبان ظهور الإسلام ، وجاء بها من اليونانية نفسها ؛ فإن بعض الموالى كان يجيد اليونانية والعربية ، فنقل إليها طرائف من أفكارها .

جاءت الفلسفة اليونانية أحيانا خالصة كما علمت ، وأحياناً لابسة ثوبا فارسياً ، وأحياناً مرتدية بمسوح يهودية ومسيحية عن طريق السريان . وكان طبيعياً أن يتأثر الذهن الإسلامى بهذه الأشكال المختلفة ، وإذا كان من الناس من لهم عقول قوية تسيطر على الأفكار التى ترد إليها ، وتهضمها ، فكذلك من الناس من لا تقوى عقولهم على احتمالها . بل تضطرب عند ورودها بين قديمها وجديدها ، فتكون فى فوضى فكرية لا استقرار فيها ، ولذا رأينا قوما بعضهم شعراء ، وبعضهم كتاب ، وبعضهم فلاسفة ، بعضهم ينتسبون للعلم ،

غرّتهم تلك الأفكار ، فلم تقو على هضمها عقولهم ، وهجروا أفكارهم القديمة الصالحة ، فاضطربوا وصاروا حائرين بائرين .

بل نستطيع أن نقول إنه ظهر فى ذلك الاضطراب ، وتلك الحيرة الفكرية قوم يذهبون مذاهب سوفسطائية (١) اليونان والرومان . منهم من أخذوا يدعون إلى أن الأشياء لاحقيقة لها ؛ فنهم من أنكر وجودها ، ومنهم من ادعى أن الشيء كما يعتقد الإنسان ، ومنهم الشكيون الذين يشكون فى كل شيء ، ويدعون إلى هذا الشك .

ومن هؤلاء صالح بن عبد القدوس ، ولعلماء الكلام معه ومع غيره مناقشات طويلة . جاء فى كتاب سرح العيون : مات لصالح بن عبد القدوس ولد فمضى إليه أبو الهذيل والنظام معه ، وهو غلام حدث ، كالتبع له ، فرآه محترقا ، فقال أبو الهذيل : لا أعرف لجزعك وجها ، إذ كان الناس عندك كالزرع . فقال صالح : يا أبا الهذيل ، إنما أجزع عليه ، لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال كتاب وضعته ، من قرأه شك فيما كان ، حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه قد كان . فقال له النظام : فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل

---

(١) طائفة من فلاسفة اليونان قوام فلسفتها إنكار كل موجود ، يقولون لا شيء بموجود ، ولو وجد ما أمكننا معرفته ، فهم ينكرون الوجود والمعرفة جميعا ، والشيء كما يعتقد الإنسان . فكل حكم يصدره الإنسان فهو حق، فليس هناك علم ، ولكن هناك آراء . وليست هناك حقيقة ، ولكن هناك ما يشبهها ، ويقولون فى الديانات أنها لا أصل لها فى الفكر والعقل . ويقولون فى الأرباب التى كانت شائعة إذ ذاك : أنها من اختراع واضعى القوانين ، ليرهبوا بها البشر ، فلا آلهة ، ولا معبودات فى الواقع والعقل ، ويقولون فى الأخلاق إن الخير نسبى وأنه ليس هناك عدل ولا ظلم ، ولا حق ولا باطل ، وأن القوانين ما وضعت إلا للضعفاء وأن السعادة كل السعادة فى القوة والسيادة على الأشياء ، والفوز من أى طريق ، وكون الفرد لا يتقيد بغير إرادته . فلخص فلسفتهم كما رأيت إنكار حقائق الكون ، ومسائل الأخلاق والعقل ، واعتبار الفرد محور كل الوجود ، فما انعكس فى نفسه فهو الواقع والحق ، والشيء حق عند من اعتقد أنه حق ، وباطل عند من اعتقد أنه باطل ، ولذا قال زعيمهم بروتغوراس : الفرد مقياس كل شيء .

أه (مأخوذ من مذكرات الفلسفة للمؤلف) .

على أنه لم يمت ، وإن مات ، وشك أيضا فى أنه قرأ هذا الكتاب ، وإن لم يكن قد قرأه ، فحصر صالح ، وكان مذهبه السوفسطائية ، فانهم يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها ، وأن ما نستبعده ، يجوز أن يكون على ما نشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده ، وأن حال اليقظان كحال النائم . وإنك لترى إلى الآن كتب علم الكلام تبتدىء بالرد عليهم ، وتعنى بالنظر فيما ينقض كلامهم .

ولم تكن الحضارة الفارسية والثقافة اليونانية هما وحدهما مادة الغذاء للفكر الإسلامى فى ذلك العصر ، بل شاركتهما عدة عناصر أخرى ، فهناك بقايا الحضارة الأشورية وعلوم الكلدانيين ، وهناك الفلسفة الهندية ، وما اشتملت عليه من تصوف ، وما بها من أفكار ونحل ، وليس مبدأ تناسخ الأرواح الذى كثر الحديث فيه فى هذا العصر وسابقه إلا غزوا هنديا غزا الفكر الإسلامى . وقد ظهر بين المسلمين دعاة مبادىء إلحاد تشبه مبادىء كانت قائمة فى الهند القديمة ، فالدهريون الذين كثروا فى العصر العباسى ، وكانوا يقولون لايوجدنا ولا يهلكنا إلا الدهر قد نبتوا فى الهند ، وقد ظهرت فى المسلمين طائفة طالما ناقشها المعتزلة وسائر علماء الكلام وناظرتهم ، وهى طائفة السمنية (١) ، وهى طائفة ولدت فى الهند وعاشت فى الهند وغيرها ، وسرت أفكارها إلى بعض ضعفاء الإيمان (٢)

---

(١) تنسب هذه الطائفة إلى سومنات ، وهو اسم كان فى الهند أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ٤١٦ كما ذكر الخضرى فى تاريخه . وقد ذكر البيرونى أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة . وقد كانت خراسان ، وفارس ، والعراق ، والموصل إلى حدود الشام فى القدم على دينهم . إلى أن ظهر زرادشت من أذربيجان ، ودعا إلى المجوسية ، وراجت دعوته فانجلت السمنية عنها إلى مشارق بلخ .

(٢) جاء فى كتاب الأغانى : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام هم عمرو بن عبيد ، وواصل ابن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العرجاء . ورجل من الأزد . فكانوا يجتمعون بمنزل الأزدى ويختصمون عنده ، فأما عمرو بن عبيد فصار إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة . وأما بشار فبقى متحيرا مخلطا . وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية . وهو مذهب من مذاهب الهند القديمة ، وبقى ظاهره على ما كان عليه .

من المسلمين ، وقوام مذهبها إنكار كل ما لا يعلم إلا بالحس والتجربة ، فلا يعترفون بغير الحس طريقا للعرفان ، وينكرون بسبب ذلك، وجود الله سبحانه وتعالى ، لأنه ليس معروفا بالحس ، ومع ذلك يأخذون بمبدأ التناسخ .

وقد كانت المناقشة قائمة بين كثير من علماء الكلام وبين السمنية فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها . جاء فى كتاب المنية والأمل للمرتضى : أن ملك السند طلب إلى الرشيد أن يبعث إليه من يناظره فى الدين ، فبعث الرشيد إليه قاضيا لامتكلما (لأن الرشيد كان قد منع الجدال فى الدين ، وحبس علماء الكلام) فانتدب ملك السند سمنيا ليجادل القاضى .

فسأل السمنى القاضى : أخبرنى عن معبودك هل هو القادر؟ قال : نعم . قال أفهو قادر أن يخلق مثله ؟ فقال القاضى : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة ، وأصحابنا ينكرونه . فقال السمنى : قد كنت أعلمتك دينهم . وكتب ملك السند بذلك إلى الرشيد ، فقامت قيامته ، وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ قالوا بلى . يا أمير المؤمنين هم الذين نهيتهم عن الجدال فى الدين وجماعة منهم فى الحبس ، فقال أحضروهم . فلما حضروا قال : ما تقولون فى هذه المسألة ؟ فقال صبى من بينهم : هذا السؤال محال ، لأن المخلوق لا يكون إلا محدثا ، والمحدث لايكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن يخلق مثله أو لايقدر ، كما استحال أن يقال يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلا ، فقال الرشيد : وجهوا إليه بهذا الصبى . فقالوا إنه لا يؤمن أن يسألوه عن غير هذا . فقال اختاروا غيره . فاختاروا معمر بن عباد السلمى ، فسم فى الطريق .

ومن هذا ترى كيف كانت المناقشة قائمة بين السمنية وعلماء الكلام من المعتزلة وغيرهم فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها .

وقد كان العصر العباسى عصر التحام جدلى بين أصحاب الديانات ، فقد كانت كثرة إسلام اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الديانات المختلفة سبباً فى أن رؤساء هذه الديانات تجردوا للدفاع عنها ، ومهاجمة المسلمين فى رفق ومن غير طعن إلا قليلا فى الإسلام ، فكان ذلك محور جدل عظيم كما سنبين فيما يلى .

نموّ الجدل في العصر العباسي

اشتدت حركة الجدل فى العصر العباسى ، ونمت وازدهرت ، وقوى أمره حتى صار موضوع مباراة العلماء ، ومسابقة الأدباء ، ومنازلة الكتاب ، ومناط التقدير لكل عالم مستبحر ، وكل نجيب شاد ، يريد أن يتخذ من العلم طريقا للمجد ومن الأدب طريقا للسبق ؛ ومن البحث والاطلاع وسيلة للوصول إلى الغاية ونيل الأمل ، والحصول على المأرب ، وقد تضافرت عدة أسباب فجعلت للجدل تلك المنزلة وله ذلك الشأن منها :

كثرة الملل والنحل فى البلاد الإسلامية ، فقد صارت الحواضر الإسلامية شرقا وغربا مزدحمة بأهل الملل والنحل من كل صوب ، فيها اليهودى والنصرانى والمجوسى المانوى ، والزرادشتى والمزدكى ، والحرانى ، والدهرى ، والسنى ، وغير هؤلاء وهؤلاء ، وكلهم اجتمعوا فى صعيد واحد وأكسبهم ظل الإسلام حرية دينية يقيمون بها شعائرهم الدينية ، من غير أن يمسهم أحدهم بسوء ، وحرية فكرية تجعلهم يتناقشون فى كل ما يقع تحت أنظارهم من أمور دينية وغيرها ، ماداموا لايسبون دينا ، ولايقدحون فى شعيرة من شعائره .

ولقد حفظت مناقشات بين هذه الطوائف المختلفة ، وأقواها ما كان بين المسلمين وغيرهم ، ومن ذلك ما حكى من أن المأمون ناقش مجوسيا ثنويا ، فقال له : أسألك عن حرفين لا أزيد عليهما ، هل ندم مسىء قط على إساءته . قال بلى . قال فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان . قال إحسان . قال : فالذى ندم هو الذى أساء أم غيره . قال : بل هو الذى أساء . قال : فأرى أن صاحب الخير هو صاحب الشر ، قال : فإنى أقول : الذى ندم غير الذى أساء . قال فندم على شيء كان منه أم على شيء كان من غيره (١) .

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٣٥ .

وترى على هذا النحو كثيراً من المناقشات الدينية ، سببها كثرة الاختلاط واستمتاع الجميع بحرية القول والعمل فى ظل الأدب والأخلاق الفاضلة التى يجب أن تسود المناقشات العقلية بين الأكفاء ذوى الفكر الراجح ، والعقل القويم .

دخول طوائف كثيرة من أهل الديانات الأخرى فى الإسـلام ، فإن الرؤساء وزعماء الأديان قد تقدموا بسبب ذلك للدفاع عن أديانهم ، ومهاجمة بعض المبادىء الإسلامية فى حرص وحذر واتئاد . وأشد ما كانت تلك المهاجمات ما كان يجىء من اليهود والنصارى ، لعلمهم بالكتب المنزلة . ولقد تصدى للرد عليهم علماء المسلمين ، فردوا دعاويهم فى نحورهم ، ولووا مقدماتهم على نتائجهم ، وبينما أولئك دائبون فى محاولة الهدم ، كان هؤلاء مسارعين لإحقاق الحق ورده إلى نصابه .

يروى أن يحيى الدمشقى وضع رسالة يحاول فيها الدفاع عن دينه ، وقد رأى الناس يخرجون عنه أفواجا أفواجا ، جاء فيها : إذا قال لك العربى ما تقول فى المسيح ؟ فقل له : إنه كلمة الله . ثم ليسأل النصرانى المسلم : بم سمى المسيح فى القرآن . وليرفض أن يتكلم بشىء ، حتى يجيبه المسلم ، فإنه سيضطر إلى أن يقول : كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . فإن أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذن كان ، ولم تكن له كلمة ولا روح ، فإن قلت ذلك فسيفحم العربى ، لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين .

ولهذه الاعتراضات الواهية ردود قيمة مذكورة فى مواضعها من كتب علم الكلام ، وفى القرآن الكريم وتفسيره ، فلا نشغل أنفسنا بحكايتها ، وإنما سقنا ذلك لتعرف مقدار ما كان يتضافر به النصارى للدفاع عن عقيدتهم إزاء الغزو الروحى للإسلام فى جماعتهم ، وقد كتب الجاحظ رسالة لأحد إخوانه فى الرد على النصارى جاء فى مقدمتها : أما بعد ، فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخل على قلوب

إخوانكم وضعفائكم من اللبس ، والذى خفتموه على جواباتهم من العجز .
وذكرتم أنهم قالوا : إن الدليل على أن كتابنا باطل وأمرنا فاسد أننا ندعى عليهم مالا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم لأنا نقول إن الله عز وجل قال فى كتابه الكريم على لسان نبيه محمد ﷺ « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله فى سرهم ، ولا ادعوا ذلك قط فى علانيتهم وأنهم زعموا أننا ادعينا عليهم مالا يعرفون كما ادعينا على اليهود ما لايعرفون حين نطق كتابنا ، وشهد نبينا أن اليهود قالوا عزيراً ابن الله ، وأن يد الله مغلولة ، وأن الله فقير وهم أغنياء ، وهذا مالايتكلم به إنسان ، ولايعرف فى شىء من الأديان . ولو كانوا يقولون فى عزير ما علمتموه وادعيتموه ما جحدوه من دينهم ، وما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بانكار بنوة عزير أحق منا بانكار بنوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة وأخذ الجزية . . الخ (١) . ثم يسترسل الجاحظ فى بيان ما يعترض به النصارى ، ويعقب عليه ينقضه لبنة لبنة ، حتى لايترك لهم بعد ذلك حجة قائمة . وهذا كله يدل على أن دخول طوائف كثيرة فى الإسلام حرك الكثيرين من المتعصبين للذود عن دينهم ومهاجمة الإسلام بسيوف مفلولة . وإن ذلك قد دفع إلى حركة جدلية واسعة النطاق ، عقدت لأجلها مجالس المناظرة وفصلت فيها الفصول فى الكتب .

واضطراب عقائد بعض ضعفاء الإيمان ، إما لالتباس الأمر عليهم ، وحيرتهم بين قديم قد أنسوا إليه وألفوه ، وجديد قد عرفوه ، وإما لأنهم قوم لا يهتمون بالأديان ، بل سيطر الإلحاد على قلوبهم ويلبسون أردية الدين اتجاراً لنيل غرض أوشهوة . فقد كان اضطراب هؤلاء سببا فى كثرة المناقشات الدينية والموازنات بين الأديان ، والتاريخ يروى لنا أن بعض الناس دخل فى الإسلام ، ثم ارتد عنه ، وذلك يستدعى مناقشته لأن حكم الإسلام فى

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فنكل .

المرتد أنه يستتاب قبل قتله ، والاستتابة تستدعى مناقشة فى الأسباب التى حملته على الخروج من الإسلام بعد أن عرفه . فإن كان ضالاً ، بين له السبيل ، ووضح له الطريق ، وإن كان معانداً عولج رأسه بالسيف ، فانه مفسد أراد اللهو والعبث بالأديان ، ولا معنى للدخول فى الإسلام وهو فى حل من ألا يدخل ، ثم الخروج منه إلا الإفساد ، والتشنيع بالباطل .

واقرأ مناظرة المأمون للمرتد الخراسانى ، فإنها تعطيك صورة من الجدل الذى كان يجرى بسبب الدخول فى الإسلام ، ثم الخروج من غير حجة واضحة ، ولا سبب معقول ، وستأتى هذه المناظرة فى المختار من مجادلات هذا العصر .

• اتساع نطاق الحركة العلمية ، وتغلغل المذاهب الفلسفية فى الثقافة الإسلامية وفى نفوس رجال ممن يعيشون فى ظل الإسلام . فقد علمت أن الفلسفة اليونانية ودخولها الربوع الإسلامية تبعه غزو سوفسطائية اليونان لبعض المسلمين ، ودخول كثير من النحل وآراء الفلاسفة فى الإلهيات فى بحوث المسلمين الدينية .

بل إن أولئك العلماء الذين تصدوا للرد على الفلاسفة سلكوا مسلكهم فى الاستدلال ، وبنوا قضاياهم الدينية على بحوث فى الطبيعيات ، وقد نالوا لهذا أشطراً من الفلسفة ، ليلحنوا على خصومهم ، وليعرفوا أسلحتهم ، فيشهروا عليهم مثلها فتكا وقوة ، وليلزموهم بمبادئهم وما يعتنقون من آراء ومذاهب ، وقد كان التحام الفلاسفة ، ومن لف لفهم مع علماء المسلمين مثاراً لحركة جدلية واسعة . قد قيدت بقيود المنطق وسادتها قيود الفلسفة واصطلاحات العلماء ، وإنك لترى ذلك واضحا فى ردود الغزالى على الفلاسفة التى جمعها فى كتابه «تهافت الفلاسفة» وردود ابن رشد عليه التى جمعها فى كتابه «تهافت التهافت» .

تشجيع الخلفاء للمناظرة ، فقد عمل خلفاء بنى العباس على تشجيع الحركة العلمية ، وتقريب العلماء ، وإدنائهم لهم ، وذلك التشجيع قد تبعه

تشجيع المناظرات ، إذ ليست إلا صورة لقوة الحركات العلمية ، واختلاف النفوس فى المنازع ، واختلاف العقول فى المسالك فعقدت لها المجالس فى قصور الخلفاء والأمراء ، وفى المساجد والنوادى . وأشد الخلفاء سبقا فى هذا الميدان المأمون ، فقد كان بما أوتى من قدرة جدلية ، وما امتاز به من رغبة علمية ، وما اشتهر به عصره من كثرة العلم والعلماء أبرز الخلفاء العباسيين فيه شخصية وقوة ، يعقد المجالس للمناظرة ، ويسهم فيها برأيه ، ويجادل كلا فى حجته ، والجميع فى المناقشة سواء لا فرق بين أحد إلا بالحجة الدامغة ، والعارضة القوية ، والقول المبين .

ولقد أكثر المأمون من مجالس المناظرات ، حتى لقد عيب ذلك عليه.. قال الطيفورى فى تاريخ بغداد : قال التغلبى سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهالى بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا ، وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين . قال المأمون : يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم ، وتزكية آرائهم ، فطائفة عابوا علينا فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف. والله ما استحل أو قال ما استجيز أن انتقص الحجاج ، فكيف السلف الطيب . وإن الرجل ليأتينى بالقطعة من العود ، أو بالخشبة ، أو بالشىء الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه . فيقول إن هذا كان للنبى ﷺ ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه ، أو مسه ، وما هو عندى بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهى وعينى ، وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ، وإنما هو عود لم يفعل هو شيئا ، ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة ، إلا ما ذكر عن مس رسول الله ﷺ له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه

وحرمة من قد صحبه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أمام الشدة وأوقات العسرة ، وعادى العشائر والعمائر والأقارب ، وفارق الأهل والأولاد ، واغترب عن داره ، ليعز الله دينه ، ويظهر دعوته . يا سبحان الله ، والله لو لم يكن هذا فى الدين معروفا لكان فى الأخلاق جميلا . وإن من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة ماهو أقل من هذا . معاذ الله مما فطن به الجاهلون . ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها ، حتى نسبته إلى البدعة فى تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه . وقد قال الله جل من قائل : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ثم وسع لنا فى جهل الفاضل من المفضول . فما فرض علينا ذلك ، ولا ندبنا إليه ، إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة . فمن دون النبيين مثل ذلك ، إذ شهد لهم بالعدالة . والتفضيل أمر لو جهله جاهل ، رجونا ألا يكون اجترح إثما ،وهم لم يقولوا : بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب رسول الله ﷺ وشك فى الآخر ، واحتج فى كسره وإبطاله فى الأحكام وذلك فى الفروج والدماء والأموال التى كان النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل . فيغالط فى مثل هذا أحد يعرف شيئا ،أو له روية أوحسن نظر ، أويدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الاستعلاء ، أو متبع لهواه ذاب عن رياسة أو معتقد . وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا ، واعتقد به رياسته ، لعله يدعو فئة لضرب من البدعة . ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه الأمر الذى قد عقد به رياسة بدعة ، ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين من هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له ،فسأله عليهوأمسك عنه عند ذكر مخالفته إياه فيه ، فإذا خولف فى نحلته ، ولعلها مما وسع الله فى جهله ، أو قد اختلف السلف فى مثله ، فلم يعاد بعضهم بعضا ، ولم يروا فى ذلك إثما . ولعله يكفر مخالفه أو يبدعه ، أو يرميه بالأمور التى حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغياً عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها ، لينتهبوا أموال الناس

ويستحلوها بالغلبة ، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الفتن زئير الأسد على فرائسها . وإنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ماهو أرضى وأصلح للدين . إما شاك فيتبين ويثبت فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها .

يستفاد من هذا النص كيف كان المأمون مشغوفا بالجدل والمناظرة ، وكيف كان يعقد لها المجالس رجاء حسم خلاف وفض نزاع ، أو هداية شاك طالب لليقين ، أو أخذ الذريعة للقضاء على معاند مكابر لا يبغى سداداً ، ولا يطلب رشاداً . وتراه قد كان يشكو من ناقديه وتجنيهم عليه بسبب تفضيله على بن أبى طالب على غيره من الصحابة ، وبهذا تعرف كيف كانت حركة الجدل قائمة على قدم وساق .

• تشعب الفرق الإسلامية وانفراعها والتحامها وكثرة مجادلاتها ، فالمعتزلة قضوا ردحا طويلا من ذلك العصر فى منازلات مع الفقهاء والمحدثين ، وأهل الأهواء والنحل ، حتى جاءهم الأشاعرة وانفصل عنهم الخلفاء ، فنازلوهم فى كل مكان حتى ضعف أمرهم . والشيعة المعتدلة كثر حديثها ، وكانت مجالس المأمون موضعا لكثير من مناقشات الشيعة .

يروى عن بشر المريسى قال : حضرت عبدالله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبى العباس ، وعلى بن الهيثم ، فتناظروا فى التشيع ، فنصر محمد بن أبى العباس الإمامية ، ونصر على بن الهيثم الزيدية .

وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلى : يا نبطى ما أنت والكلام ، فقال المأمون وكان متكئا ، فجلس : الشتم عى ، والبذاءة لؤم ، إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه . ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب . فاجعلا بينكما أصلا فإن الكلام فروع ، فإذا افترعتم شيئا رجعتم إلى الأصول .

وهكذا كل الفرق الإسلامية ، وقد جدت فرق ونحل لم تكن من قبل زادت حركة الجدل حدة وقوة ونماء .

وجــود المذاهب الإسلامية فى الفروع ، فقد دونت هذه المذاهب وكان لها أئمة يدافعون عنها ، ويبرهنون عليها ويقيمون الأدلة عليها ، وإنك لتقرأ كتاب الأم للشافعى فتجد فيه أبوابا قد جاءت على شكل مناظرات مما يدل على رواج سوقها ، وقوة أمرها فى هذا الباب ، ولم يكتفوا بالاجتهاد فى الفروع بل استنبطوا لها أصولا ، وقعدوا لها قواعد . وقد كثر جدل الفقهاء كثرة فاحشة حتى بعد إغلاق باب الاجتهاد ، حتى كانت مجالس العزاء تحيا بالمجادلات الفقهية والمناقشات فى أصول المذاهب . وقد وضع لتنظيم جدل الفقهاء وترتيبه علم الجدل والخلاف ، وهو يشبه المنطق العملى ، وسنبين ذلك بيانا أوفى عند الكلام على الجدل فى الفروع .

لهذه الأسباب كلها ، ولغيرها مما لا يسع المقام ذكرها قويت المناظرات وحلت محل الخطابة عندما ضعفت وكسدت بضاعتها ، وكان المجادلون فيها يحرصون على بلاغة الكلام ، وإفصاح البيان والتأثير بالإقناع بعد الإفحام .

* * *

مواضع الجدل

الجدل فى الإمامة :

لم تنشأ فرق سياسية جديدة ، وإن أخذت الفرق القديمة تبعد عن مذاهب أسلافها . وأشد الجدل فى السياسة ماكان بين العلويين والعباسيين ، وخصوصاً فى أول قيام الدولة العباسية ، فقد رأى العلويون أبناء عمهم يبتزون الأمر منهم ، ويستبدون به دونهم ، وما لحنوا إلا بحجتهم ، ولاقاموا إلا بأنصارهم ، فأعلنوا الخروج على المنصور ، وبادلوه الكتب يحتجون عليه بما لأبيهم من مآثر ، ويحتج عليهم بما له من حق الوراثة ، وقد استمر العلويون شجا فى حلق الدولة العباسية يمنعونها أن تنقلب فى نعيم من الهدوء ، وتكرر خروجهم فى عصور مختلفة على الدولة ، وقامت لهم خلافة فى مصر ، لا تقل قوة عن خلافة العباسيين فى بغداد بل أقوى .

والمناظرات فى شأن العلويين استمرت طول العصر العباسى قائمة على أحدّ ما تكون قوة ، وأشد ما تكون انتشاراً ، وسرت إلى الأدباء والكتاب ، وكتبت فيها الرسائل ، ودبجت فيها الكتب .

أما الخوارج فقد ضعف أمرهم ، وإن كان منهم خروج وحروب فى صدر الدولة ، فقد خضدت شوكتهم ، وباد أكثرهم فى آخرها .

* * *

المجدل في العقائد

الزنادقة

كانت تطلق كلمة الزندقة فى هذا العصر على كل متهم فى دينه ، يخلط بالإسلام عقائد مجوسية قديمة ، أو يتشكك فى دينه ، أو يرتكب الموبقات ويستحل المحرمات ، ولا يرجو للدين وقاراً ، يهزع الأخلاق ، وينشر المجون والفساد .

وقد ذاعت هذه الأحوال فى ذلك العصر ذيوعاً شديداً ، وتضافرت عدة أسباب فى رواجها وانتشارها ، حتى خشى كثيرون على الإسلام الاندثار وعلى أسسه الانهيار ، ولكنه كان أقوى عماداً ، وأشد سناداً ، وأعمق فى القلوب تأثيراً ، مما توهم الأكثرون . والأسباب فى شيوع الزندقة كثيرة قوامها طمع بعض الفرس فى إحياء ملكهم القديم ، ولذا تقدم المقنع الخراسانى ، مهاجما الدولة الإسلامية بالسيف فى عهد المهدى ؛ فقد خرج بخراسان من قرية من قرى مرو ، وكان فيما ذكر يقول بتناسخ الأرواح ، فاستغوى بشراً كثيراً ، وقوى ؛ وسار إلى ماوراء النهر ، فوجه المهدى لقتاله عدة من قواده ، فيهم معاذ بن مسلم ، وهو يومئذ على خراسان ، ثم أفرد لمحاربته سعيداً الحرشى ، وضم إليه القواد ، فاستعد المقنع فى قلعة كش ، فحاصره سعيد بقلعته ، ولما اشتد عليه الحصار ، وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهله ؛ فمات وماتوا جميعا ، ودخل المسلمون قلعته ، واحتزوا رأسه (١) .

ولما عجزت تلك المحاولة ، انصرف مريدو إحياء الملك الفارسى ، إلى إحياء الديانات الفارسية ، فأحيوا المانوية ، وأرادوا نشر الزرادشتية ،

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٣٨ .

ولذا كثر المانويون وغيرهم من طوائف المجوس ، وقد أغرم المهدى بالفتك بهم ، والقتل الذريع فيهم ، حتى كان يأخذ بالظنة ، إذ رأى عددهم يكثر وينمى .

لما انتشر من كتب مانى ، وابن ديصان ، ومرقيون ، مما نقله ابن المقفع وغيره ، وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت ، آراؤهم فى الناس . وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ، ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين فأوضحوا الحق للشاكين (١) .

تتبعهم المهدى فى كل مكان ، ولم ير أحد متهما فى دينه من غير أن يفتك به ، وينزل به ما يجعله عبرة لغيره . ويظهر أن المانوية كانوا أكثر ظهوراً من غيرهم فوصيته لولده الهادى كان موضوعها المانوية . وهاهى ذى بنصها كما جاء فى الطبرى :

يابنى إن صار إليك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) ، فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا إنكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتجرد بأمرها إلى الله لاشريك له ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين .

---

(١) من ضحى الإسلام للأستاذ الجليل أحمد أمين نقلا عن المسعودى .

وقد نفذ الهادى وصية أبيه ، فتتبع المانوية بالقتل الذريع فيهم ، وحرك أهل الكلام لإبطال مذاهبهم .

وقد كان للمأمون مع بعضهم مناقشات ، ويروى أنه حاكى أسلافه من الخلفاء فى الفتك ، والعمل على إبادتهم بالسيف .

ويظهر أن مزدك بعد ذلك كان له أنصار كثيرون بجوار أنصار مانى ، فإن كثيرين من الإباحيين من الشعراء وغيرهم كانوا مزدكيين فى أعمالهم ، وربما كان منهم من يعتنق مذهبه ، على أنه عقيدة يؤمن بها ، ومذهب يسير على طريقته .

ولقد وجد من دعا إلى هذا المذهب علنا من غير سر ، وجهراً من غير إخفاء . فقد ظهر بابك الخرمى ، وأخذ فى العبث والفساد ، ودعا إلى المزدكية ، وكان أصحابه جميعا عليها ، وكان ظهوره فى عصر المأمون . وقد أوصى أخاه المعتصم بالتشديد فى قتاله هو وقبيله ، وجاء فى الوصية ذلك الكلام : والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد ، واكفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك فاغزهم ، واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه . واعلم أن العظة إذا طالت ، أوجبت على السامع لها ، والموصى بها الحجة ، فاتق الله فى أمرك كله ، ولا تفتن[1] .

ولقد تجرد الأفشين وهو من قواد المعتصم الممتازين لبابك ، حتى قضى عليه . ومن الغريب أنه هو اتهم بالزندقة ، وبأنه من أنصار المزدكية ، وقد حوكم ، ثم قضى عليه ، وكانت محاكمته مناظرة قيمة ، ولذلك نثبتها هنا كما وردت فى الطبرى :

أتى بالأفشين ، ولم يكن بعد فى الحبس الشديد ، فأحضر قوم من الوجوه ، لتبكيت الأفشين بما هو عليه ، ولم يترك فى الدار أحد من أصحاب

---

(١) الطبرى جـ ١٠ .

المراتب ، وصرف الناس ، وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان ، والموبذ (١) المرزبان ابن تركش ، هو أحد ملوك السفد ، ورجلان من أهل السفد (٢) فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة فقال لهما . ما شأنكما ؟ فكشفا عن ظهورهما ، وهي عارية من اللحم ، فقال له محمد تعرف هذين . قال : نعم ، هذا مؤذن ، وهذا إمام بنيا مسجدا بأشروسنة . فضربت كل واحد منهما ألف سوط ، ذلك أن بيني وبين ملك السفد عهداً أن أترك كل قوم على دينهم وماهم عليه . فوثب هذا على بيت كان فيه أصنامهم (يعني أهل شروسنة) فأخرجا الأصنام ، واتخذاه مسجداً ، فضربتهما على هذا ألفاً لتعديهما ، ومنعهما القوم من بيعتهم .

فقال له محمد : ماكتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج ، فيه الكفر بالله ؟ قال هذا كتاب قد ورثته عن أبي فيه أدب من آداب العجم . وما ذكرت من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب ، وأترك ما سوى ذلك ووجدته محلًّى ، فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك في منزلك ، فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام .

ثم تقدم الموبذ ، فقال : إن هذا كان يأكل المخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة . وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفيها ، ويأكل لحمها ، وقال لي يوما : إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت لهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة (يعني لم يطل ، ولم يختن) .

---

(١) الموبذ هو فقيه المجوس .
(٢) أماكن بسمرقند .

فقال الأفشين : خبرونى عن هذا الذى يتكلم بهذا الكلام أثقة هو فى دينه (وكان الموبذ مجوسيا ، أسلم بعد ذلك على يد المتوكل) قالوا : لا . قال : فما معنى قبولكم شهادة من لاتثقون به ، ولاتعدلونه . ثم أقبل على الموبذ ، فقال : هل كان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تطلع على منها وتعرف أخبارى ؟ قال : لا . قال : أفليس كنت أدخلك إلى ، وأبثك سرى ، وأخبرك بالأعجمية ، ميلى إليها وإلى أهلها ؟ قال نعم . قال : فلست بالثقة فى دينك ، ولا بالكريم فى عهدك إذا أفشيت على سراً ، أسررته إليك.

ثم تنحى الموبذ ، وتقدم المرزبان بن تركش ، فقالوا للأفشين : هل تعرف هذا ؟ قال : لا ، فقيل للمرزبان : هل تعرف هذا ؟ قال : نعم ، هذا الأفشين . قالوا له هذا المرزبان . فقال له (المرزبان) يا ممخرق ، كم تدافع وتموه ؟ قال له الأفشين : يا طويل اللحية ما تقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل مملكتك . قال كما كانوا يكتبون إلى أبى وجدى . قال : فقل . قال : لا أقول . فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية ، قال : بلى . قال أفليس تفسيره بالعربية إلى الآلهة من عبده فلان بن فلان ، قال : بلى . قال : قال محمد بن عبد الملك والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا .. فماذا أبقيت لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى . قال : كانت هذه عادة القوم لأبى وجدى ، ولى قبل أن أدخل فى الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم ، فتفسد على طاعتهم .

فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب : ويحك يا حيدر ، كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ، ونصدق يمينك ونجريك مجرى المسلمين ، وأنت تدعى ما ادعى فرعون .

ثم قدم مازيار صاحب طبرستان ، فقالوا للأفشين : تعرف هذا ؟ قال : لا ، قالوا للمازيار تعرف هذا قال نعم ، هذا الأفشين ، فقالوا له هذا المازيار ، قال نعم قد عرفته الآن . قالوا هل كاتبته ؟ قال لا ، قالوا للمازيار ، هل كتب إليك ، قال نعم ، كتب أخوه خاش إلى أخى قوهيار .

إنه لم يكن ينصر هذا الدين إلا بيض غيرى وغيرك وغير بابك ، فأما بابك ، فإنه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم من برمونك غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس ، فان وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب ، والمغاربة ، والأتراك ، والعربى بمنزله الكلب ، اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) إنما هم أكلة رأس ، وأولاد الشياطين (يعنى الأتراك) فإنما هى ساعة ، حتى تنفذ سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة ، فتأتى آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم .

فقال الأفشين : هذا يدعى على أخيه وأخى دعوى لا تجب على ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله ويثق بناحيتى ، كان غير مستنكر، لأنى إذا نصرت الخليفة بيدى ، كنت بالحيلة أحرى أن أنصره ، لآخذه بقفاه وآتى به الخليفة لأحظى به عنده كما حظى به عبد الله بن طاهر عند الخليفة ، ثم نحى المازيار . ولما قال الأفشين للمرزبان التركشى ما قال ، وقال لإسحق بن إبراهيم ما قال ، زجر ابن أبى دؤاد الأفشين . فقال هذا له : يا أبا عبد الله ، ترفع طيلسانك بيدك ، فلا تضعه على عاتقك ، حتى تقتل به جماعة ، فقال ابن أبى دؤاد : أمطهر أنت ؟ قال : لا . قال فما منعك من ذلك ، وبه تمام الإسلام ، والطهور من النجاسة ، قال : أوليس فى دين الإسلام استعمال التقية ؟ قال : بلى . قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى ، فأموت : قال : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف ، فلا يمنعك ذلك من أن تكون فى الحرب ، وتجزع من قطع قلفة ، قال تلك ضرورة تعنينى ، فأصبر عليها إذا وقعت . وهذا شيء أستجلبه ، فلا آمن معه خروج نفسى.ولم أعلم أن فى تركها الخروج عن الإسلام ، فقال ابن أبى دؤاد : قد بان حكم أمره ، ثم أمر به فحبس .

وقد أخذت بعض فرق الشيعة تخلط بتعاليمها مبادىء من الديانات القديمة فالإسماعيلية الباطنية التى تقول بالإمام المستور أخذت تخلط بمذهبها تعاليم

مجوسية قديمة ، ويؤكد بعض المؤرخين أن عبد الله بن ميمون القداح وهو من زعمائهم كان هو وأبوه ديصانيين (١) وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة وكان يظهر كثيراً من الترهات والأباطيل ، ويذكر أن الأرض تطوى تحته ، فيمضى إلى أى مكان يحب فى أقرب مدة (٢) .

وليس القرامطة الذين ظهروا فى آخر عصر المعتمد ، إلا شعبة من الباطنية التى اختلطت تعاليمها بتعاليم مجوسية ونصرانية ، فكانت زندقة لبست لبوسا شيعيا. وقد كانوا قوة مخربة وسط الدولة العباسية ، وشجا فى حلقها ، وشوكة فى جنبها . وكان ابتداء ظهورهم على يد رجل قدم من نواحى خوزستان إلى سواد الكوفة ، وكان يظهر الزهد والتقشف ، ويأكل من كسبه ، وإذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين وزهده فى الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفترضه على الناس خمسون صلاة فى كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه ، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله ﷺ ، فلم يزل على ذلك يقعد إليه ، فيخبرهم من ذلك بما تعلق به قلوبهم ، ثم مرض ، وبقى فى الطريق مطروحا ، وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرميته ، لحمرة عينيه (وهو بالنبطية أحمر العينين) فكلم فى أن يحمل هذا العليل إلى منزله ففعل ، وأقام عنده حتى برأ فكان كرميته يدعو الناس إلى مذهبه ، حتى أجابه جمع كثير من الأكرة ، وكان يأخذ من كل من يدخل مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام . ومما دعاهم إليه أنه جاء بكتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج ابن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانة . أنه داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية . وذكر

---

(١) الديصانية نحلة مجوسية قديمة ، تنسب إلى ابن ديصان ، وكانت تقول بالأصلين النور ، والظلمة ، وطائفة منهم تقول إن النور خالط الظلمة اختياراً منه ليصلحها ، فلما اختلط بها ، ورام الخروج فيها ، امتنع ذلك عليه ، وقالت طائفة إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ، فشابكها بغير اختياره .

(٢) الطبرى ، الجزء الحادى عشر .

أن المسيح تصور له فى جسم إنسان ، وقال له إنك الداعية ؟ وإنك الحجة ، وإنك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحيى بن زكريا ؛ ومن شرائعه ، أن الصوم يومان فى السنة ، وهما المهرجان والنيروز (١) .

ولقد خاف الرجل بعد ذلك على نفسه ، إذ أفسد الناس ، ففر إلى الشام فنسب مذهبه إلى كرميته ثم خفف فقيل قرمط (١) .

ولقد عظم أمر القرامطة ، وانتشرت مفاسدهم ، وازداد طغيانهم ؛ وهاجموا الحجاج . وفتكوا بهم ، وانتهكوا حرمات البيت الحرام ، وانتزعوا منه الحجر الأسود ثم ردوه إليه ، وقالوا قد أخذناه بأمر ، ورددناه بأمر ، وكانت لهم مواقع حربية شديدة التقوا فيها مع جيوش العباسيين حتى قضى عليهم هؤلاء بالسيف .

وقد تصدى الأشاعرة للرد عليهم ، ومناقشاتهم ، وكانت المناظرات بينهم على أقوى ما تكون حدة ، حتى انتشلوا العامة من ضلالهم ، وردوا كيدهم فى نحورهم ، وأثبتوا بذلك أن الإسلام أقوى من أن يرام بذلك النحو من الكيد مهما تتعدد مثارات الباطل ، ونوازع الشيطان ، وطرق التضليل .

من كل ما سبق علمت كيف كان كثيرون من الفرس يحاولون إحياء دياناتهم القديمة ، ونور الإسلام فى الآفاق ، وينشرون مبادئهم الثنوية ، تحت سلطان دين التوحيد ، وكان بجوار هؤلاء طائفة أخرى ملحدة لا دين لها ، دأبها الشك ، وديدنها الإنكار ، لاتذعن لدين ، ولاتطمئن إلى شرع ، ومن الناس من كان يطلق على هؤلاء اسم الزنادقة كالأولين ، كما أن من الناس من كان يطلق الزندقة على طائفة الإباحيين الذين لايتقيدون فى شهواتهم بقيد من واجب أو دين أو خلق ، فكأن الزندقة كانت تطلق حينئذ على من اعتنقوا الديانات الفارسية القديمة ، وخصوصا المانوية . وكانت تطلق على الإباحيين . وعلى الملحدين ، وأكثر مناقشات العلماء والفقهاء كانت بينهم وبين الأولين ، وكثير منها كان بينهم وبين الملحدين :

---

(١) ملخص من الطبرى الجزء الحادى عشر .

خلق القرآن

هذه مسألة شغلت الفكر الإسلامى فى عصور ثلاثة من خلفاء بنى العباس : المأمون ، والمعتصم ، والواثق . ابتلى فيها العلماء : واضطربت فيها النفوس وأرهقت فيها حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وأوذى المتمسكون بدينهم ، المتورعون فى ألفاظهم ، المتوقفون فى علمهم عند حدود النص — إيذاء شديداً . ولا ذنب لهم فى ذلك ، إلا العكوف على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعدم خروجهم عن نطاق ما بينا خشية أن يضلوا فى متاهات الباطل ، ومثارات الشيطان ، ونزغات الفكر ، وزيغ العقول ، وماكانوا فى تدينهم ليفتوا بغير علم من كتاب أو أثارة من سنة .

وفى الحقيقة إن المناقشة فى خلق القرآن لم تكن بدعا فى العصر العباسى ، بل كانت قبل ذلك .

يروى أن أول من تكلم فيها الجعد بن درهم فى العصر الأموى ، فقد كان يقول بخلق القرآن . فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بالكوفة ، وكان والياً عليها ، أتى به فى الوثاق : فصلى . وخطب . ثم قال فى آخر خطبته : انصرفوا ، وضحوا بضحاياكم : فقبل أن نعارضكم فإنى أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم ، فإنه يقول ما كلم الله موسى تكليما ، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ، ثم نزل ، وحز رأسه بالسكين بيده (١) .

وقال مثل ذلك القول الجهم بن صفوان : فقد نفى صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى تنزيها له عن الحوادث وصفاتها . وحكم بسبب ذلك بأن القرآن مخلوق ، وليس بقديم .

---

(١) سرح العيون ص ١٨٦ .

ولما جاء المعتزلة ، ونفوا صفات المعانى ، ثم بالغوا ، فأنكروا أن يكون الله متكلما ، وما ورد فى القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى تكليما ، أولوه بأنه خلق الكلام فى الشجرة ، فهم لايصفون الله بأنه متكلم ، ولكن يعتقدون أنه يخلق الكلام ، كما يخلق كل شىء . وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم أن الكلام مخلوق لله سبحانه ، لذلك خاضوا فى حديثه فى العصر العباسى خوضاً شديداً ، وشاركهم فى حديثه بعض الفقهاء ، فقد كان بشر بن غياث المريسى على كبر محله فى الفقه من المصرين على القول بخلق القرآن ، وقد نهاه أبويوسف عن ذلك فلم ينته ، فطرده من مجلسه .

وقد كان ابتداء الخوض الشديد فى شأن القرآن فى عصر الرشيد ، ولم يكن هو ممن يشجعون الخوض فى العقائد . والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين فى العقائد من المعتزلة ، ولذا لم يشجع الكلام فى شأن القرآن أهو قديم أو حادث ، ولذا لما بلغته مقالة بشر بن غياث المريسى فى شأن القرآن الكريم . قال : إن أظفرنى الله أقتله ، فظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد .

فلما جاء المأمون ، أحاط به المعتزلة ، وكان جل حاشيته من رجالهم ، وأدناهم هو إليه ، وقربهم زلفى نحوه ، وأكرمهم أبلغ الإكرام ، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطى من أئمة المعتزلة تحرك له حتى يكاد يقوم ، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس ، وذلك لأنه كان تلميذاً لأبى الهذيل العلاف فى الأديان والمقالات وهو معتزلى . ولما عقد المجالس للمناظرات والمناقشات فى المقالات والنحل ، كانوا الفرسان ، والسابقين فى الحلبة والبارزين على الخصوم ، لما عنوا به من دراسات عقلية واسعة ، كما بينا آنفاً عند الكلام على المعتزلة .

ولذلك كان لهم الأثر الكبير فى نفس المأمون يجتبى منهم من يشاء لصحبته ، ويختار منهم من يريد لوزارته ، وخص منهم أحمد بن أبى دؤاد بالرعاية والعطف والتقريب ، حتى أنه أوصى أخاه المعتصم بإشراكه معه فى أمره وقال

له : وأبو عبد الله بن أبي دؤاد ، فلا يفارقك ، وأشركه في المشورة في كل أمرك ، فانه موضع لذلك منك .

فلما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له إعلان القول بخلق القرآن نشراً لمذهبهم ، وليكتسبوا بذلك إجلال العامة واحترامهم ، وصادف ذلك هوى في نفسه ، فأعلن ذلك سنة ٢١٢ هـ وناظر من يغشى مجلس مناظرته في هذا الشأن ، وأدلى فيها بحججه وأدلته ، ولكنه ترك الناس أحراراً في عقائدهم ، لا يرهقون في مذاهبهم ، ولا يحملون على فكرة لا يرونها ، ولا عقيدة لا يستسيغون الخوض في شأنها ، ولكن في سنة ٢١٨ وهي السنة التي توفي فيها بدا له (ولعل ذلك بوسوسة بعض أهل الاعتزال) أن يدعو الناس بقوة السلطان على اعتناق القول بخلق القرآن ، بل أراد أن يحملهم على ذلك قهراً وغلبة ، وابتدأ ذلك بارسال كتابه وهو بالرقة إلى إسحاق بن إبراهيم نائبه في بغداد ، بامتحان القضاة والمحدثين ، ليحملهم على القول بخلق القرآن . ويظهر أنه كان يريد حمل الذين لهم شأن في مناصب الدولة والذين يتصلون بالحكام بأي نوع من الاتصال ، ولو كانوا شهوداً في نزاع قد رفع أمره إلى القضاء ، على تلك العقيدة ، فقد جاء في آخر الكتاب الأول : فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه . فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم . والأمر لهم بمثل ذلك . ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم . حتى تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والإخلاص للتوحيد .

وترى من هذا أنه لم توضع عقوبة لمن لم يعتقد هذه العقيدة سوى الحرمان من مناصب الدولة ، وعدم سماع شهادته إن كان شاهداً ، ولم يعد كتابه الثاني ذلك فأحضر إسحاق بن إبراهيم القضاة واختبرهم ، ولم يكتف بذلك ، بل أحضر المحدثين أيضا ، وكل من تصدى للفتوى والتعليم والإرشاد وامتحنهم ، وأرسل إجاباتهم عن مسألته فى خلق القرآن إلى المأمون . فأرسل هذا كتابا (١) يبين سخف هذه الإجابات ، ويجرح المجيبين ويسلقهم بقارص القول وعنيف الكلام . ثم ذكر فى هذا الكتاب عقوبات لمن لم يقل مقالته ، إذ أمر بحمل من لم يقل إليه موثقا . وقال : ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا . ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى (٢) فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه ، لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وترى من هذا كيف ترقى من عقوبة الحرمان إلى الإنذار بعقوبة الإعدام ، وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ رغبته وإجابة طلبته ، من غير مراجعة أو توان ، فأحضر الفقهاء والمفتين وأنذرهم بالعقوبة الصارمة ، والعذاب العتيد ، إن لم يقروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به ، ويحكموا بالحكم الذى ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلبوا وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب ، ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم ، واطمأنوا إلى حكم الله ، وآثروا الباقية على الفانية . ولم يرضوا بالدنية فى دينهم أصروا على موقفهم إصراراً جريئاً ، وهم أحمد بن حنبل ، ومحمد ابن نوح ، والقواريرى ، وسجادة ، فشدوا فى الوثاق وكبلوا بالحديد ، وباتوا

(١) ستجىء إليك هذه الكتب فى باب المختار من المناظرات فى ذلك .

(٢) قد ذكر فى كتابه أنهما إن لم يقولا يقتلا .

ليلتهم مصفدين فى الأغلال ، فلما كانوا فى الغد أجاب سجادة إسحاق فيما يدعوه إليه ، فخلوا عنه ، وأطلقوا من قيوده ، واستمر الباقون على حالهم ورضوا بتقييد الأشباح فى سبيل انطلاق الأفراح .

وفى اليوم التالى أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب إليهم ، فخارت نفس القواريرى ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، ففكوا قيوده ، وبقى اثنان الله معهما فسيقا فى الحديد ليلتقوا بالمأمون فى طرسوس ، وقد استشهد ابن نوح فى الطريق ، والذين أجابوا طلب منهم أن يواجهوا المأمون أحراراً . وقدموا كفلاء بأنفسهم ليوافوه بطرسوس كأخويهم . وبينا هم فى الطريق نعى الناعى المأمون ، ولكنه عفا الله عنه ، لم يودع هذه الدنيا من غير أن يوصى أخاه المعتصم بالتمسك بمذهبه فى القرآن ودعوة الناس إليه بقوة السلطان وكأنه فهم أن تلك الفكرة التى استحوذت على رأسه دين واجب الإطاعة ، وواجب لا يبرأ عنقه منه من غير أن يوصى خلفه به ، فوصاه .

فقد جاء فى مطلع وصيته : هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هرون أمير المؤمنين بحضرة من حضره ، أشهدهم جميعا على نفسه أنه يشهد هو ومن حضره أن الله عز وجل وحده ، لاشريك له فى ملكه ، ولامدبر لأمره غيره ، وأنه خالق ، وما سواه مخلوق ، ولايخلو القرآن أن يكون شيئا له مثل ، ولاشىء مثله تبارك وتعالى .

وجاء فى وسط الوصية : يا أبا اسحاق ، ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى خلق القرآن .

ولهذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المأمون ، بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وكانت شراً مستطيراً على المتوقفين من الزهاد والعلماء والفقهاء والمحدثين ، وأهل الفتيا فى الدين .

استمر البلاء بأحمد بن حنبل ، ومزق جسمه بالسياط ، وهو راض بالبلاء غير مستهين بعقيدته . واستمر فى الحبس نحو ثمانية وعشرين شهراً ، حتى استيئسوا منه ، وعلموا أنه لا يجيب دعاءهم ، ويؤثر بالإجابة دعاء

النفس والوجدان ، وما يراه واجب الاعتقاد ، وجزءا من الإيمان . ثم أطلق سراحه فعاد إلى ماكان عليه من الإفتاء والتحديث إلى أن مات المعتصم . ولما آل الأمر إلى الواثق سار على سنة أبيه وعمه فى هذه المسألة ، وإنزال المحنة بمن لايراها ، ولكنه لم يرد أن ينزل بأحمد أكثر مما نزل به ، فقال له : لا تجمعن إليك أحداً ، ولاتساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولاغيرها ، حتى مات الواثق .

ولم تكن المحنة مقصورة على أحمد ، بل تجاوزته إلى غيره ، وكان الفقهاء يساقون من الأمصار إلى بغداد ، ليختبروا فى هذه المسألة ، ويفتش عن خبايا قلوبهم . وممن نزل به ذلك يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى صاحب الإمام الشافعى ، فقد دعى للقول بما يقولون فامتنع ، فحمل مقيداً مغلولا ، حتى مات فى أصفاده ، محتسباً ذلك عند ربه ، ومنهم نعيم ابن حماد ، فقد مات فى سجن الواثق مقيداً لذلك ، ومنهم أحمد بن نصر الخزاعى قتله الواثق وصلبه ، لامتناعه عن الخوض فيما يخوضون فيه ، وقد قيل إن ثمامة بن أشرس هو الذى سعى به إليه ؛ ويروى أن الواثق ندم على قتله ، وعاتب ثمامة وكل من أشار عليه بقتله .

فى هذه الفتنة الصماء التى خفت فيها صوت الحكمة ، وفى هذه الشدة الطخياء التى سكتت فيها نداء الرحمة ، عاش العلماء سنين ، وكان التورع عن الخوض جريمة لاتغتفر ، وإثما لايعفى عنه ، وحوبا كبيراً لايعذر فيه مؤمن لسابق عمله ، أو حسن سيرته ، أوصلاحه واحترام الناس له .

وقد تفاقم الخطب ، واستمرت البلوى ، حتى سئم الناس هذه الحال ، بل حتى سئمها القائمون بها ، وحتى صارت هزلا لدى بعض الناس .

يروى أنه دخل عبادة المضحك على الواثق ، فقال يا أمير المؤمنين ، أعظم الله أجرك فى القرآن ، قال ويلك ، القرآن يموت . قال يا أمير المؤمنين ، كل مخلوق يموت ، بالله يا أمير المؤمنين ، من يصلى بالناس التراويح إذا ما مات القرآن ، فضحك الواثق وقال : قاتلك الله ، أمسك .

ويروى الدميرى فى كتاب حياة الحيوان أن الواثق رجع فى آخر حياته عن إنزال المحنة بمن لايرى هذا الرأى ، إذ دخل عليه شيخ ممن نزلت به المحنة فقال فى ضمن مجادلته مع ابن أبى دؤاد : شىء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولاعمر ، ولا عثمان ، ولا على ، تدعو أنت الناس اليه ، ليس يخلو أن تقول علموه ، أو جهلوه ، فان قلت علموه . وسكتوا عنه ، وسعنى وإياك من السكوت ماوسع القوم . وإن قلت جهلوه . وعلمته أنت ، فيالكع ابن لكع ، يجهل النبى ﷺ والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئا ، وتعلمه أنت .

فلما سمع الواثق ذلك وثب من مجلسه . وأخذ يردد تلك الكلمات ، وعفا عن الشيخ ، ورجع عما كان يفعل ، كما روى ابنه المهتدى .

موضع النزاع فى هذه المسألة :

لم يكن النظر فى الواقع متلاقيا حول محور واحد فى هذه المسألة ، فأحد المتناظرين وهم المعتزلة ، والخلفاء ، وكل من له يد فى هذه المحنة يرى أن القرآن شىء ، وإن كان أعلى من كل الأشياء ، وأن الله جعله ، وخلقه ، وإن كان أعلى من كثير من المخلوقات . والآخرون نظروا إلى أن القرآن من حيث معانيه وكلام الله القائم ، وكلام الله قديم ، إذ هو صفة من صفاته فقد وصف الله سبحانه وتعالى بالكلام . فقال « وكلم الله موسى تكليما » ولا يمكن أن تكون صفة من صفات الله محدثة .

ولما اشتدت حومة الجدل ، وحمى الوطيس رضى الأكثرون من العلماء والفقهاء والمحدثين أن يتوقفوا ، ولا يخوضوا ، وأن يسكتوا عن أمر لم يرد فى كتاب ولا فى سنة ، وإنك لتجد ذلك فى أجوبة كثيرين ممن امتحنهم إسحاق بن إبراهيم إجابة لطلب المأمون ، إذ كانت أجوبتهم تدور حول التوقف ، والامتناع عن الخوض ، والإمساك عن الأمر .

وانظر إلى إجابة بشر بن الوليد ، فاسحاق يقول له : ماتقول فى القرآن ؟ فقال أقول فى القرآن هو كلام الله . قال لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟

قال: الله خالق كل شيء . قال : القرآن شيء ؟ قال هو شيء . قال فمخلوق . قال ليس بخالق . قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال ما أحسن غير ما قلت لك .

وانظر إلى إجابة أبي حسان الزيادى ، إذ قال له إسحاق : القرآن مخلوق هو ؟ قال القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم . وقد قلده الله أمرنا ؛ فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا .

وترى من هاتين الإجابتين كيف كان القوم متوقفين ، لايريدون الخوض فى هذا الحديث ، ولايحبون إثارة الفتنة حوله ، ولذا نستطيع أن نقول إن المناظرة كانت مناظرة قوم قد اعتنقوا مذهبا مع آخرين قد امتنع الأكثرون منهم عن الخوض فى موضع النزاع ، ولم يروا أن يتكلموا فيه ، لعدم وروده فى قرآن أو سنة ، ولعدم تعرض السلف الصالح له ، وقليل منهم من كون له اعتقاداً مناقضاً لما قال المعتزلة .

ومن هنا نرى ظلم المأمون ، إذ سن سنة سيئة ، فأخذ يمتحن الناس فى عقيدتهم ، ويحملهم على قول لم يجدوا من ورعهم ودينهم ما يشجعهم على الخوض فيه ، إذ لم يرد به شرع ، ولم يثبت بنص ، ولم يعرف أن أحداً من أصحاب رسول ﷺ تعرض له وناقش فيه ، فليس بكافر من امتنع عن الخوض ، بل هو أقرب إلى الرشاد ، وأولى إلى السداد .

* * *

مختار من الجدل في خلق القرآن

مجلس مناظرة

لما أعلن المأمون القول بخلق القرآن ، وزخرت مجالسه بالمناقشة فيه قبل نزول المحنة وبعدها ، تقدم رجل من أهل مكة المكرمة اسمه عبد العزيز بن يحيى الكنانى لإعلان رأيه فى هذا المقام ، وهو إنكار ما يدعون ، فرحل إلى بغداد ، ووقف فى مسجد الرصافة ، وقال بصوت جهير يسمعه كل من فى المسجد : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . فحمل إلى المأمون : وشارك الناس فى مجلس مناظرته ، وتقدم لإقناعه ، وإفهامه بشر بن غياث المريسى الفقيه الذى قدمنا الكلام فى بعض شأنه ، وقد دون عبد العزيز تلك المناظرة فى رسالة سماها الحيدة . وها نحن أولاء نقتبس لك منها شيئا يدل على نسقها وأساليب الجدل فيها :

قال بشر (مستدلا على خلق القرآن) : قال الله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » .

قال عبد العزيز : أى شىء فى هذا من الحجة والدليل على خلقه ؟

فقال بشر : هل فى الخلق أحد يشك فى هذا ، أو يخالف عليه ، إن معنى جعلناه خلقناه .

قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين إن القرآن نزل بلسانك ولسان قومك وأنت أعلم أهل الأرض بلغة قومك ، ولغة العرب كلها ، ومعانى كلامها ، وبشر رجل من أبناء العجم ، يتأمل كتاب الله تعالى ، على غير ما أنزل الله ، وغير ما عناه الله عز وجل ، ويحرفه عن مواضعه ، ويبدل معانيه ، ويقول ما تنكره العرب وكلامها ولغاتها ، وأنت أعلم خلق الله بذلك ، وإنما يكفر بشر الناس ، ويستبيح دماءهم بتأويل ، لا بتنزيل .

قال بشر : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » ، يروغ عبد العزيز إلى الكلام والخطب والاستعانة بأمير المؤمنين ؛ لينقطع المجلس .. قد أتيتك بما لا تقدر على رده ، ولا التشبيه فيه ، لينقطع المجلس بثبات الحجة عليك ، وإيجاب العقوبة لك ، فان كان عندك شيء ، فتكلم به ، وإلا فقد قطع الله مقالتك ، وأدحض حجتك .

قال عبد العزيز : يا بشر ، أخبرنى عن (جعل) هذا الحرف لحكم لا يحتمل غير الخلق ؟

قال بشر : لا . وما بين جعل وخلق عندى فرق ، ولاعند غيرى من سائر الناس من العرب والعجم . ولايتعارف الناس إلا هذا .

قال عبد العزيز : أخبرنى عن نفسك ، ودع ذكر العرب وسائر الناس ، فأنا من الناس ، ومن الخلق . ومن العرب ، وأنا أخالفك على هذا ، وكذلك سائر العرب يخالفونك .

قال بشر : هذه دعوى منك على العرب ، وكل العرب والعجم يقولون ما قلت أنا ؟ وما يخالف فى هذا غيرك .

قال عبد العزيز : أخبرنى يا بشر ، إجماع العرب والعجم بزعمك أن جعل وخلق واحد ، لافرق بينهما فى هذا الحرف وحده ، أو فى سائر ما فى القرآن من (جعل) .

قال بشر : بل ما فى سائر القرآن من جعل ، وسائر ما فى الكلام والأخبار والأشعار .

قال عبد العزيز : قد حفظ عليك أمير المؤمنين ما قلت ، وشهد به عليك .

قال بشر : أنا أعيد عليك هذا القول متى شئت ، ولا أرجع عنه ولا أخالفه .

قال عبد العزيز لبشر : زعمت أن معنى « جعلناه قرآنا عربياً » خلقناه قرآنا عربيا . قال:نعم هكذا .

قال عبد العزيز : قال الله عز وجل : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » . خلقتم الله عليكم كفيلا ، لا معنى له عند بشر غير ذلك .. ومن قال هذا فقد أعظم الفرية على الله عز وجل ، وكفر به ، وحل دمه باجماع الأمة . وقال الله عز وجل : « ولا تجعلوا الله عرضه لأيمانكم » فزعم بشر أن معنى ولاتجعلوا الله ولاتخلقوا الله ، لامعنى له عنده غير ذاك .. وكل من قال هذا من الخلق فهو كافر حلال الدم باجماع الأمة ، لأنه حكى أن الله أخبر بمثل هذا . وقال الله عز وجل : « ويجعلون لله البنات سبحانه » فزعم بشر أن معنى ويجعلون لله البنات ، يخلقون لله البنات ، لا معنى لذلك غير هذا . فقال المأمون : ما أقبح هذه المقالة وأعظمها ، وأشنعها .. فحسبك يا عبد العزيز ، فقد صح قولك ، وأقر بشر بما حكيت عنه ، وكفر نفسه من حيث لم يدر .

قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لى أن أنتزع بآيات بقيت وأختصر . قال المأمون : قل ما شئت . قال عبد العزيز : قال الله عزوجل : « وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله » فزعم بشر أن معنى جعلوا لله خلقوا لله أنداداً ، ومن قال هذا فهو كافر حلال الدم ، أى كان قد أخبر بمثل هذا عن الله عز وجل . وقال : « وجعلوا لله شركاء الجن » فزعم بشر أن معنى جعلوا خلقوا لله . لامعنى لذلك غير هذا . ومن قال هذا فهو كافر حلال الدم باجماع الأمة .

قال المأمون : حسبك فقد أثبت حجتك كلها فى هذه المسألة ، وانكسر قول بشر ، وأبطلت دعواه ، فارجع إلى بيان ما قد انتزعت ، وشرحه ومعانيه ، وما أراد الله عز وجل به ، وماهو من (جعل) مخلوق ، وماهو غير مخلوق ، وما تتعامل به العرب فى لغاتهم .

قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، إن (جعل) فى كتاب الله يحتمل معنيين ، معنى خلق ، ومعنى صير .. ولما كان جعل يحتمل معنيين : معنى خلق ، ومعنى صير ، لم يدع الله فى ذلك اشتباها على خلقه ، فيلحد الملحدون

ويشبه المشبهون على خلقه ، كما فعل بشر وأصحابه ، حتى جعل عز وجل على كل من الكلمتين علما دليلا — فرق بين (جعل) الذى بمعنى خلق و (جعل) الذى بمعنى صير .

فأما جعل الذى هو معنى خلق ، فان الله جعله من القول المفصل ، فأنزل القرآن به مفصلا ، وهو بين لقوم يفقهون ، والقول المفصل يغنى السامع إذا أخبر به ، عن أن توصل الكلمة لغيرها من الكلام ، إذ كانت قائمة بذاتها على معناها ، فمن ذلك قول الله عز وجل : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » فسواء عند العرب ؛ قال جعل أوقال خلق ، لأنها قد علمت أنه أراد بها خلق ، لأنه أنزله من القول المفصل ، وقال : « جعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » فقالت العرب أن معنى هذا ، وخلق لكم ، إذ كان قولا مفصلا ، وقال : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » فعقلت العرب عنه ، أنه عنى خلق لكم ، إذ كان من القول المفصل ، فسواء قال خلق ، أو جعل .

أما (جعل) الذى هو على معنى التصيير ، لامعنى الخلق ، فان الله عز وجل أنزله من القول الموصل الذى لايدرى المخاطب به ، حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها ، فيعلم ماأراد بها ، وإن تركها مفصولة لم يصلها بغيرها من الكلام لم يفهم السامع لها ما يعنى بها ، ولم يقف على ما أراد بها ، فمن ذلك قوله عز وجل : « ياداود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض » . فلو قال « إنا جعلناك » ولم يصلها بـ« خليفة فى الأرض » ، لم يعقل داود ما خاطبه به عز وجل ، لأنه خاطبه وهو مخلوق ، فلما وصلها بخليفة عقل داود ما أراد بخطابه ، وكذلك حين قال لأم موسى « وجاعلوه من المرسلين » .

فأرجع أنا وبشر يا أمير المؤمنين فيما اختلفنا فيه من قول الله عز وجل : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » إلى سنة الله فى كتابه فى الجعلين جميعا ، وإلى سنة العرب أيضا مما تتعارفه ، وتتعامل به ، فان كان من القول الموصل ، فهو

كما قلت أن جعله قرآنا عربيا ، أى صيرة قرآنا عربياً ، وأنزله بلغة العرب ولسانها ، ولم يصيره أعجميا ، فيبين له بلغة العجم ...

(تراجع رسالة الحيدة كلها) .

المناظرة الثانية

كتب المأمون فى القول بخلق القرآن

كتب المأمون إلى ولاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن وهو ما أرسله إلى نائبه إسحاق بن إبراهيم ، وما يرويه لنا الطبرى فى نص كتابه ،وهو :

أما بعد ؛ فان حق الله على أئمة المسلمين ، وخلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية ، وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة ، وعمى عنه ، ضلالة عن حقيقة دينه ، وتوحيده ، والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، ووا جب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين ، على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ، ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل فى محكم كتابه ، الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى « إنا جعلناه قرآنا عربيا » فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » . وقال : عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق »

فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها . وقال سبحانه : « الر ، كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » ، وكل محكم منفصل دخله محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه . ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ، ونحلتهم .

ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم ، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، ونقل أديمهم ، وفساد دياناتهم ، ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم إليها التى جروا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم . وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، ورءوس الكلالة المنقوصون من التوحيد حظا ، والمخسوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، لسان إبليس الناطق فى أوليائه ، والمائل على أهوائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه وتطرح شهادته ، ولايوثق بقوله ولاعمله ، فانه لاعمل إلا بعد يقين ، وإلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من أهل الإيمان بالله وبتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله ، والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلا . ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ،

وأن أولاهم يرد شهادته فى حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ، فاذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم . والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم . وتفقد آثارهم حتى لاتنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين والإخلاص للتوحيد . واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله ، وكتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم — فى أشخاص سبعة نفر — منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب ، وأبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل ابن أبى مسعود ، وأحمد بن الدورقى ، فأشخصوا إليه ، فامتحنهم ، وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره ، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ؛ فاقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم ، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعد : فان من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ،

والائتمام بعدله فى بريته أن يجهدوا الله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع فى الدين من وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثراً من رسول الله ونبيه محمد ﷺ باقبالهم واشتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم ، وتزيد فى عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله والذى بان به عن خلقه وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التى لايبلغ أولاها ، ولايدرك مداها ، وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه ، وحدثا هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : « إنا جعلناه قرآنا عربيا» وتأويل ذلك « إنا خلقناه » كما قال جل جلاله «وجعل منها زوجها ليسكن إليها » وقال تعالى « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا» وقال سبحانه : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » . فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شبه الصفة ، وأخبر أنه جاعله وحده . فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه ﷺ : « لاتحرك به

لسانك لتعجل به » . وقال جل شأنه : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » ، وقال تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوكذب بآياته » وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ثم أكذبهم على لسان رسوله ﷺ ، فقال لرسوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً » فسمى الله تعالى القرآن ذكراً ، وإيمانا ونورا وهدى ، ومباركا ، وعربياً ، وقصصاً ، فقال سبحانه : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » . وقال جل جلاله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله » وقال تعالى : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، وقال سبحانه : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

فجعل له أولا وآخراً ، ودل عليه أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ، والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد فى قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه به والأشياء أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظاً على الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة فى أمانة ، ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك ، وانصصهما عن علمهما فى القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد إلا لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا يقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات

على الحقوق ، ونصهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره ، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيده الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين وأحضر أبا حسان الزيادى ، وبشر بن الوليد الكندى ، وعلى بن أبى مقاتل ابن غانم ، والذيال بن الهيثم ، وسجادة ، والقواريرى ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطى ، وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبى إسرائيل ، وابن الهرش ، وابن علية الأكبر ، ويحيى بن عبد الرحمن العمرى ، وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب كان قاضى الرقة ، وأبا نصر التمار ، وأبا معمر القطيعى ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المضروب ، وابن الفرخان وجماعة منهم النضر بن شميل ، وابن على بن عاصم ، وأبو العوام البزاز ، وابن شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق .

فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ، فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . فقال : أقول القرآن كلام الله . قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شىء . قال : القرآن شىء ؟ قال : هو شىء . قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق . قال : ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك . وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ما قلت لك . فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله أحد فرد لم يكن قبله شىء ، ولا بعده شىء ، ولا يشبهه شىء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه . قال : نعم وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل ما تقول ياعلى ؟ قال سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة ، وما عندى غير ما سمع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال ، القرآن مخلوق ؟ قال القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء ، سمعنا وأطعنا فقال للكاتب : اكتب مقالته .

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلى بن أبى مقاتل . فقال له مثل ذلك ، ثم قال لأبى حسان الزيادى ما عندك ؟ قال سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها ، فأقر بما فيها ، ثم قال من لم يقل هذا القول ، فهو كافر . فقال القرآن مخلوق هو ؟ قال القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فسار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا . قال القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين . قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولايأمر بها الناس ، ولايدعوهم إليها ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتنى به ، فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شىء ، فإن أبلغتنى عنه بشىء صرت إليه ، قال ما أمرنى أن أبلغك شيئا ، قال على بن أبى مقاتل ، قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبوحسان ما عندى إلا السمع والطاعة ، فمرنى آتمر . قال ما أمرنى أن آمرك ، وإنما أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال ما تقول فى القرآن ؟ قال هو كلام الله . قال أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله ، لا أزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ، فلما أتى إلى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، وأمسك عن لايشبهه شىء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه

ابن البكاء الأصغر . فقال : أصلحك الله ، إنه يقول سميع من أذن ، بصير من عين . فقال إسحاق لأحمد بن حنبل ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال هو كما وصف نفسه . قال فما معناه ؟ قال لا أدرى ، هو كما يصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلا رجلا كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلا هؤلاء النفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن علية الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم ابن إدريس بن بنت وهب بن منبه ، والمظفر بن مرجان ، ورجلا ضريراً ليس من أهل الفقه ولايعرف بشىء منه ، إلا أنه درس فى ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرمة ، وابن الأحمر .

فأما ابن البكاء الأكبر ، فانه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربيا » ، والقرآن محدث لقوله « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » قال له إسحاق فالمجعول مخلوق ؟ قال نعم . قال فالقرآن مخلوق قال : لاأقول مخلوق ولكنه مجعول . فكتب مقالته ، فلما فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر فقال : أصلحك الله . إن هذين القاضيين أئمة فلو أمرتهما . فأعادا الكلام قال له إسحاق هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال فلوأمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لتحكى ذلك عنهما . قال له إسحاق إن شهدت عندهما بشهادة ، فستعلم مقالتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت إلى المأمون فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم ، وقد ورد كتاب المأمون هو جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم وهاهو ذا .

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه كان إليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة ، وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القرآن . وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم وتكشيف أحوالهم وإحلالهم محالهم ، تذكر إحضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ،

ومسألتك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدلالة على حظهم وإطباقهم على نفى التشبيه . واختلافهم فى القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم أنه مخلوق بالإمساك عن الحديث ، والفتوى فى السر والعلانية ، وتقدمك إلى السندى وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود ، وبث الكتب إلى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماء من حضروا مقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله ، ويسأله أن يصلى على عبده ورسوله محمد ﷺ ، ويرغب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته .

وقد تدبر أمير المؤمنين ماكتبت به من أسماء من سألت عن القرآن ، وما رجعت إليك فيه كل امرىء منهم ، وما شرحت من مقالتهم ، فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام فى ذلك واستعهاده أمير المؤمنين ، فقد كذب بشر فى ذلك ، وكفر ، وقال الزور والمنكر . ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره ، عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانصصه عن قولى فى القرآن ، واستتبه منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح ، والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فأشهر أمره ، وأمسك عنه ، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله ، وكذلك إبراهيم بن المهدى فامتحنه بمثل ما امتحنت به بشراً ، فانه كان يقول بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ ، فان قال إن القرآن مخلوق ، فأشهر أمره واكشفه ، وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما على بن أبى مقاتل فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم ، والمتكلم له بمثل ماكلمته به مما لم يذهب عنه ذكره ، وأما الذيال ابن الهيثم ، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتفيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ، ومحتذيا سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ، وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام وقوله إنه لا يحسن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبى فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل ، وإنه إن كان لا يحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها . وأما الفضل ابن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ماكان منه بمصر وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك ؛ فإنه من كان شأنه ، وكانت رغبته فى الدنيا الدرهم ، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثاراً لعاجل نفعهما ، وإنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه . فما الذى حاد به عن ذلك ، ونقله إلى غيره . وأما الزيادى ، فأعلمه أنه كان متحللا لأول دعى كان فى الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ ، وكان جديراً أن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور . وأما المعروف بأبى نصر التمار فان أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره .

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بقوله الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تربصا بمن استودعه ، وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه من تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيراً

عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إياه ، وهو معتقد للشرك ، منسلخ من التوحيـــد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى معمر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لولم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم ، إلا لإربائهم ، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا ، وصاروا للنصارى مثلا ، وأما أحمد بن شجاع ، فأعلمه أنك صاحبه بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام ، وأنه من الدينار والدرهم دينه .

وأما سعدويه الواسطى فقل له : قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به ، والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقريب بها ، متى يمتحن فيجلس للحديث ، وإن المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه فى شغله باعداد النوى وحكه لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد ، وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما ، وأما القواريرى ففيم تكشف من أحواله ، وقبوله الرشا ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله فتقدم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه ، وترك الثقة به والاستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمرى ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف ، وأما محمد بن الحسن على بن عاصم ، فإنه كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التى حكيت ، وأنه بعد صبى يحتاج إلى التعليم ، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مسهر ، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن ، فجمجم عنها ولجلج فيها ، حتى دعا له أمير

المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميا فانصصه عن إقراره فان كان مقيما عليه ، فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله .

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكر أمير المؤمنين وأمسك عن ذكره فى كتابه ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدى فاحملهم أجمعين . موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم فى طريقهم حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم لمن يأمر بتسليمهم إليه ، لينصهم أمير المؤمنين ، فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فانفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط ليعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله .

مناظرة (١) أحمد بن أبى دؤاد

لشيخ فى مجلس الواثق

أدخل على الواثق شيخ من أهل الشام مقيداً ، وهو جميل الوجه ، تام القامة ، حسن الشيبة ، فاستحيا منه ، ورق له ، فما زال يدنيه ويقربه ، حتى قرب منه ، فسلم الشيخ بأحسن السلام ، ودعا بأبلغ الدعاء ، وأوجزه .

فقال له الواثق : اجلس . ثم قال له : يا شيخ ، ناظر ابن أبى دؤاد على ما يناظرك عليه . قال الشيخ: يا أمير المؤمنين ، إن ابن أبى دؤاد يقل ،

(١) هذه المناظرة مروية عن الواثق رواها ابنه المهتدى ، وهى بأكلها فى كتاب حياة الحيوان للدميرى .

ويصغر ويضعف عن المناظرة . فغضب الواثق ، وقال : أبو عبد الله بن أبي دؤاد يقل ويصغر ، ويضعف عن مناظرتك أنت . فقال الشيخ : هون عليك يا أمير المؤمنين ما بك ، وائذن لى فى مناظرته . فقال الواثق : ما دعوتك إلا للمناظرة . فقال الشيخ : يا أحمد بن أبي دؤاد إلى ما دعوت الناس ، ودعوتنى إليه . فقال: إلى أن تقول القرآن مخلوق ، لأن كل شيء من دون الله مخلوق .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت أن تحفظ على وعليه ما نقول ، قال : أفعل . فقال : يا أحمد ، أخبرنى عن مقالتك هذه ، أواجبة داخلة فى عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملا ، حتى يقال فيه ماقلت .

قال ابن أبي دؤاد : نعم .

فقال الشيخ : يا أحمد ، أخبرنى عن رسول الله ﷺ ، حين بعثه الله عز وجل ، هل ستر شيئا مما أمره الله به فى دينه ؟

قال ابن دؤاد : لا .

فقال الشيخ : فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى مقالتك هذه ؟

فسكت ابن أبي دؤاد .

فقال الشيخ له : تكلم ، فالتفت الشيخ إلى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين ، واحدة ، فقال الواثق : واحدة .

قال الشيخ : يا أحمد ، أخبرنى عن آخر ما نزل الله من القرآن على رسول الله ﷺ فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » فقال الشيخ : أكان الله تبارك وتعالى الصادق فى إكمال دينه ، أم أنت الصادق فى نقصانه ، فلا يكون الدين كاملا ، حتى يقال فيه مقالتك هذه ، فسكت ابن أبي دؤاد . فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجب . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين : اثنتان . فقال الواثق : اثنتـــان .

فقال الشيخ : يا أحمد ، أخبرنى عن مقالتك هذه : أعلمها رسول الله

ﷺ ، أم جهلها ؟ فقال ابن أبى دؤاد : علمها ، فقال الشيخ : أدعا الناس إليها ؟ فسكت ابن أبى دؤاد ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ثلاث : فقال الواثق : ثلاث .

فقال الشيخ : يا أحمد فاتسع لرسول الله ﷺ كما زعمت ، فلم يطالب أمته بها ، قال : نعم .

فقال الشيخ : واتسع لأبى بكر رضى الله عنه ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ، قال ابن أبى دؤاد : نعم . فأعرض الشيخ عنه ، وأقبل على الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين قد قدمت القول أن أحمـــد يقل ، ويصغر ، ويضعف عن المناظرة ، يا أمير المؤمنين ، إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ ، ولأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله تعالى عنهم ، فلا وسع الله على من لم يتسع له ما اتسع لهم .

فقال الواثق : نعم إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ، ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأبى بكر ، وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، فلاوسع الله علينا ، اقطعوا قيد الشيخ ، فلما قطعوا قيده ، ضرب الشيخ بيده إلى القيد ، ليأخذه ، فجذبه الحداد إليه ، فقال الواثق : دع الشيخ ، ليأخذه ، فأخذه الشيخ ، فوضعه فى كمه ، فقيل للشيخ : لم جاذبت عليه . فقال الشيخ : لأنى نويت أن أتقدم إلى من أوصى إليـه ، إذا أنا مت أن يجعله بينى وبين كفنى حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة وأقول : يارب ، سل عبدك هذا لم قيدنى ، وروع أهلى وولدى وإخوانى بلا حق أوجب ذلك على ؛ وبكى الشيخ ، وبكى الواثق ، ثم سأله الواثق أن يجعله فى حل وسعة مما ناله منه . فقال الشيخ : والله يا أمير المؤمنين ، قد جعلتك فى حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ ، إذ كنت رجلا من أهله . فقال الواثق : لى إليك حاجة، فقال الشيخ : إن كانت ممكنة فعلت، فقال الواثق : تقيم قبلنا ، فتعلم فتياننا ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن ردك إياى إلى الموضع الذى أخرجنى منه هذا الظالم أنفع لك من مقامى عندك ، أصير إلى أهلى وولدى ، فأكف دعاءهم ، فقد خلفتهم على ذلك .

الأشاعرة والماتريدية

اشتد طغيان المعتزلة باسم الخلفاء ، ولم يتركوا فقيها معروفا ، أو محدثا مشهورا أو إماما متبعا إلا أنزلوا به محنة فى عقيدته ، وابتلاء فى فكرته . فكرههم الناس ، وصاحب ذكرهم ذكر البلاء والمحن ، وتأريث العداوات والإحن ، وإلقاء الشر فى النفوس ، والدس للعلماء عند السلطان ، حتى نسى الناس خيرهم بجوار ذلك الشر المستطير ، والفتنة الطخياء ، والبلية العامة ، نسوا دفاعهم عن الإسلام وبلاءهم فيه وتصديهم لأهل الأهواء من الزنادقة والسمنية وغيرهم ، نسوا هذا كله ولم يذكروا لهم إلا إغراءهم الخليفة بامتحان كل إمام تقى ، وكل ندب محتسب وكل مفت نقى ، وكل محدث مهدى . فلما جاء المتوكل وأبعدهم عن حظيرته وأدنى خصومهم إليه ، وفك قيود العلماء ، وترك هذه المحنة خضدت شوكتهم ، وتجرد لمنازلتهم المقاول من العلماء والفقهاء والمتكلمين ، وجادلوهم بلسان عضب وحجة دامغة ، ومن ورائهم العامة يؤيدونهم والخاصة يناصرونهم .

وظهر فى آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع رجلان امتازا بصدق البلاء ، وكثرة الأتباع والأولياء ، أحدهما أبو منصور الماتريدى ، وثانيهما أبو الحسن الأشعرى ، وكلاهما كان يدعو إلى ما كان يدعو إليه الفقهاء والمحدثون ، ومناصروهم دون المعتزلة .

وقد ولد الأول بقرية (ماتريد) من أعمال سمرقند ، وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، ونبغ حتى رجع الناس إليه فيما وراء النهر يأخذون عنه الفقه وأصوله وسائر علوم الدين ، وألف فى الأصول كتاب الجدل ، وفى الفقه كتاب مآخذ الشريعة ، ثم ذاعت شهرته فى علم الكلام ، حتى صار له مذهب يسلكه أهل خراسان يقارب مذهب الأشعرى الذى سنبينه ، وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تعليقاته على العقائد العضدية أن بين

الماتريدية والأشاعرة خلافا فى نحو ثلاثين مسألة ، ولكن أكثر العلماء على أنها مسائل جزئية . والاختلاف فيها لفظى ، فهما متفقان فى الغاية وأكثر الوسائل . وقد ألف الماتريدى فى علم الكلام كتاب الرد على الكعبى المعتزلى ، وكتاب أوهام المعتزلة ، وكتاب الرد على الرافضة ، وكتاب الرد على القرامطة ، وقد مات سنة ٣٣٢ ﻫ .

أما الأشعرى فقد ولد بالبصرة ، وتوفى سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة بعد الهجرة ، وتخرج على المعتزلة فى علم الكلام ، وتتلمذ لشيخهم فى عصره أبى على الجبائى ، وكان لفصاحته ولسنه يتولى الجدل والمناظرة نائباً عن شيخه ، إذ كان هذا يجيد الكتابة والدفاع بالقلم ولا يجيد النقاش باللسان . ولكن الأشعرى وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة فى تفكيرهم ، مع أنه تغذى من موائدهم ونال كل ثمرات فكرهم ، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين مع أنه لم يغش مجالسهم ، ولم ينل العقائد على طريقتهم ، ولذا عكف فى بيته مدة ، وازن فيها بين أدلة الفريقين ، وانقدح له رأى بعد الموازنة ، فخرج على الناس وجهر به ، وناداهم بالاجتماع عليه ، فرقى المنبر يوم الجمعة بالمسجد الجامع بالبصرة ، وقال :

أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى (أنا فلان بن فلان) كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله تعالى لا يُرى بالإبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع ، متصد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم . معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة ، لأنى نظرت ، فتكافأت عندى الأدلة ، ولم يترجح عندى شىء على شىء ، فاستهديت الله تعالى ، فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته كتبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد ، كما انخلعت من ثوبى هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ، ودفع إلى الناس ما كتبه على طريق الجماعة من الفقهاء والمحدثين ، وفيها ما أخذه على المعتزلة وما ناصر فيه الفقهاء والمحدثين ، وقد بين مذهبه ومآخذه على المعتزلة إجمالا فى مقدمة كتابه الإبانة ، وقد جاء فيها بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على النبى ﷺ :

أما بعد ، فإن كثيراً من المعتزلة ، وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى التقليد لرؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم ، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ، ولا أوضح به برهانا ، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين ، فخالفوا رواية الصحابة عن نبي الله ﷺ فى رؤية الله بالإبصار ، وقد جاءت فى ذلك الروايات من الجهات المختلفات ، وتواترت الآثار ، وتتابعت به الأخبار . وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ ، وردوا الرواية فى ذلك عن السلف المتقدمين ، وجحدوا عذاب القبر ، وإن الكفار فى قبورهم يعذبون ، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون ، ودانوا بخلق القرآن نظيراً لقول إخوانهم من المشركين الذين قالوا : إن هذا إلا قول البشر . فزعموا أن القرآن كقول البشر ، وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر نظيراً لقول المجوس الذين يثبتون خالقين : أحدهما يخلق الخير ، والآخر يخلق الشر ، وزعموا أن الله عز وجل يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء ، خلافا لما أجمع عليه المسلمون من أن ماشاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون ، ورداً لقول الله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » فأخبرنا أنا لا نشاء شيئا ، إلا وقد شاء أن نشاءه ، ولقوله تعالى : « فعال لما يريد » ولقوله سبحانه مخبراً عن شعيب أنه قال : « ومايكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » . ولهذا سماهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة ، لأنهم دانوا بديانة المجوس ، وضاهوا أقوالهم ، وزعموا أن للخير والشر خالقين ، كما زعمت المجوس ، وأنه يكون من الشر مالا يشاء الله : كما قالت المجوس ذلك ، وزعموا أنهم يملكون من الضر والنفع لأنفسهم رداً لقول الله تعالى : « قل لا أملك لنفسى ضراً ولانفعا إلا ما شاء الله » ، وانحرافا عن القرآن ، وعما أجمع عليه المسلمون ، وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم . وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله عز وجل ، ووصفوا أنفسهم بالقدرة على ما لم يصفوا الله بالقدرة عليه ، كما أثبت المجوس للشيطان من القدرة على الشر ما لم يثبتوه لله عز وجل ، فكانوا مجوس هذ

الأمة إذ دانوا بديانة المجوس ، وتمسكوا بأقوالهم ، ومالوا على أضاليلهم وقنطوا الناس من رحمة الله ، وآيسوهم من روحه ، وحكموا على العصاة بالنار والخلود ، خلافا لقول الله تعالى : « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » وزعموا أن من دخل النار لم يخرج منها ، خلافا لما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ : أن الله عز وجل يخرج من النار قوما بعد ما امتحشوا فيها ، وصاروا حمما . ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وأنكروا أن يكون لله يدان مع قوله : « لما خلقت بيدى » وأنكروا أن يكون لله عين مع قوله : « تجرى بأعيننا » وقوله : « ولتصنع على عينى » ونفوا ماروى عن رسول الله ﷺ من قوله : « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا » . وأنا ذاكر ذلك إن شاء الله بابا ، بابا ، وبه المعونة والتأييد، ومنه التوفيق والتسديد ، فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذى به تقولون ، وديانتكم التى بها تدينون ، قيل له قولنا الذى به نقول ، وديانتنا التى ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ، نضّر الله وجهه . ورفع درجته ، وأجزل مثوبته. وعن خالف قوله مجانبون ؛ لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين . وشك الشاكين . فرحمة الله عليه من إمام مقدم . وكبير مفهم وعلى جميع أمة المسلمين ، وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لانرد من ذلك شيئا ، وأن الله إله واحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وإن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله استوى على عرشه ، كما قال سبحانه « الرحمن على العرش استوى » ، وأن له وجها كما قال جل وعلا

« ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، وأن له يداً كما قال : « بل يداه مبسوطتان » . وأن له عينا بلا كيف كما قال تعالى : « تجرى بأعيننا » ، وأن لله علما ، كما قال سبحانه : « أنزله بعلمه » ، ونثبت لله قدرة كما قال : « أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ونثبت لله السمع والبصر ، ولاننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية ، ونقول إن كلام الله غير مخلوق وإنه لم يخلق شيئا إلا وقد قال له كن فيكون ، كما قال سبحانه « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . وأنه لايكون فى الأرض شىء من خير وشر إلا ما شاء الله . وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله الله ؛ ولانستغنى عن الله ، ولا نقدر على الخروج من علم الله ، وأنه لاخالق إلا الله ؛ وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدورة له كما قال سبحانه « والله خلقكم وما تعملون » وأن العباد لايقدرون أن يخلقوا شيئاً ، وهم يخلقون ، وكما قال سبحانه « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » وهذا فى كتاب الله كثير ؛ وأن الله وفق المؤمنين لطاعته ، ولطف بهم ، ونظر لهم ، وأصلحهم كانوا صالحين.ولو هداهم كانوا مهتدين كما قال تبارك وتعالى « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» .

وأنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره . حلوه ومره . ونعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا . . ونقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن من قال بخلق القرآن كان كافراً ، وندين أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ؛ كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ . ونقول إن الكافرين عنه محجوبون ، كما قال الله عز وجل : كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» .

ونرى ألَّا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه ، كالزنى ، والسرقة وشرب الخمر ، كما دانت بذلك الخوارج ، وزعموا أنهم بذلك كافرون . ونقول إن من عمل كبيرة من الكبائر مستحلا لها كان كافراً إذا كان غير معتقد تحريمها .

ونقول إن الله يخرج من النار قوما بعدما امتحشوا بشفاعة محمد ﷺ ونؤمن بعذاب القبر .. وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

وندين بحب السلف الذين اختارهم لصحبة نبيه ﷺ ونثنى عليهم بما أثنى الله عليهم ، ونتولاهم . ونقول إن الإمام بعد رسول الله ﷺ أبوبكر رضى الله عنه ، وأن الله أعز به الدين ، وأظهره على المرتدين .. ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم عثمان نضر الله وجهه ، قتله قاتلوه ظلما وعدوانا ، ثم على بن أبى طالب رضى الله عنه . فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ ، وخلافتهم خلافة النبوة ، ونشهد للعشرة بالجنة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ ، ونتولى سائر أصحاب رسول الله ﷺ ، ونكف عما شجر بينهم ، وندين لله أن الأئمة الأربعة راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم فى الفضل غيرهم . ونصدق بجميع الروايات التى أثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا ، وأن الله سبحانه وتعالى يقول « هل من سائل ؟ هل من مستغفر ؟ » وسائر ما نقلوه وأثبتوه .

ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم ، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة . وندين بترك الخروج عليهم بالسيف وترك القتال فى الفتنة . ونقر بخروج الدجال . ونؤمن بعذاب القبر ، ومنكر ونكير ، ونصدق بحديث المعراج ، ونصحح كثيراً من الرؤيا فى المنام ، ونرى الصدقة عن موتى المؤمنين ، والدعاء لهم ، ونؤمن أن الله ينفعهم ، ونقول إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآياته . وقولنا فى أطفال المشركين أن الله عز وجل مؤجج لهم ناراً فى الآخرة ، ثم يقول اقتحموها ، كما جاءت الرواية بذلك . ونرى مفارقة كل داعية لفتنة ومجانبة أهل الأهواء ، وسنحتج لما ذكرنا من قولنا .

هذه خلاصة قيمة لآراء الأشعرى بعد أن ترك الاعتزال ، ودان بما تعتقده جماعة الفقهاء والمحدثين ، ونستنبط من هذا هذه الأمور :

١ — أنه يرى أن يأخذ بكل ما جاء به الكتاب والسنة من عقائد ، ويحتج لها بكل وسائل الإقناع والإفحام .

٢ — أنه يأخذ بظواهر النصوص فى الآيات الموهمة للتشبيه من غير

أن يقع فى التشبيه ، فهو يعتقد أن لله وجهاً لاكوجه العبيد ، وأن لله يداً لا تشبه أيدى المخلوقات .

٣ — إنه يرى أن أحاديث الآحاد يحتج بها فى العقائد ، وهى دليل لإثباتها وقد أعلن اعتقاد أشياء ثبتت بأحاديث الآحاد .

٤ — أنه فى آرائه كان يجانب أهل الأهواء جميعا والمعتزلة ، ويجتهد فى ألا يقع فيما وقع فيه كثير من المنحرفين .

وفى الحق إن كثيراً من آرائه كانت وسطا بين المغالين وطريقا مستقيما بين الآراء المتجاذبة الأطراف ، وإن الدارس لحياة ذلك المفكر العظيم لايجد من العنت عليه أن يختار طريقا وسطاً لعلمه الغزير واطلاعه الواسع .

وكتابه « مقالات الإسلاميين » يدل على اطلاع كبير وفهم دقيق للفرق الإسلامية على اختلاف منازعهم ، وتباين مذاهبهم وتباعد مسالكهم . ولايصعب على المتقصى أن يثبت ذلك الاعتدال فى كل فكرة من أفكاره ، وعقيدة من عقائده. فرأيه فى الصفات وسط بين المعتزلة والجهمية الذين نفوا الحياة والسمع والبصر والحشوية والمجسمة الذين شبهوا الله تنزهت صفاته بالحوادث ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً . ورأيه فى القدرة وأفعال الإنسان وسط بين الجهمية والمعتزلة ، فالمعتزلة قالوا هو قادر على الإحداث والكسب معاً . والجهمية قالوا : إن الإنسان لايقدر على إحداث شىء ولا كسب شىء . فقال الأشعرى العبد لا يقدر على الإحداث ويقدر على الكسب [1] ، وقالت المشبهة إن الله يرى يوم القيامة مكيفا محدودا ، وقالت المعتزلة والجهمية أنه سبحانه لايرى بحال من الأحوال . فسلك الأشعرى طريقا بينهما . فقال يرى من غير حلول ولا حدود ، وقالت المعتزلة لله يد. يد قدرة ونعمة . وقالت الحشوية يده يد جارحة . فسلك الأشعرى طريقا وسطا ، فقال يده يد صفة كالسمع والبصر . وقالت المعتزلة : القرآن كلام الله مخلوق مبتدع . وقالت الحشوية الحروف المقطعة ، والأجسام التى يكتب عليها ، والألوان التى يكتب بها ، وما بين الدفتين كلها قديمة [2] فسلك الأشعرى

---

(١) تبيين كذب المفترى فيما نسب لأبى الحسن الأشعرى .

(٢) تبيين كذب المفترى ص ١٥٠ .

طريقا بينهما وقال : القرآن كلام الله قديم غير مغير ، لا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع ، فأما الحروف المقطعة والأجسام والألوان ، والأصوات المحدودات مخلوقات مخترعات ، وقالت المعتزلة إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعاته لا يخرج من النار قط ، وقالت المرجئة من أخلص لله سبحانه وتعالى وآمن به فلا تضره كبيرة مهما تكن ، فسلك الأشعرى طريقا بينهما ، وقال المؤمن الموحد الفاسق هو فى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عاقبه بفسقه ، ثم أدخله الجنة ؛ وقالت الرافضة إن للرسول صلوات الله وسلامه عليه ولعلى رضى الله عنه شفاعة من غير إذن الله ولا أمره ، وقال المعتزلة لا شفاعة له بحال من الأحوال فسلك الأشعرى طريقا وسطاً وقال إن للرسول صلوات الله وسلامه عليه شفاعة مقبولة فى المؤمنين المستحقين للعقوبة ، يشفع لهم بأمر الله وإذنه ، ولا يشفع إلا لمن ارتضى .

وهكذا تراه سلك فى مذهبه مسلك الاعتدال والوسط ، وفى الوسط الحق والقسطاس المستقيم فى كثير من الأوقات .

وقد سلك الأشعرى فى الاستدلال على العقائد مسلك النقل ، ومسلك العقل : فهو يثبت ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله ورسله واليوم الآخر ، والملائكة والحساب والعقاب والثواب ، ويتجه إلى الأدلة العقلية ، والبراهين المنطقية يستدل بها على صفات الله سبحانه وتعالى ، وقد استعان فى ذلك بقضايا فلسفية ، ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة وسلكها المناطقة ، والسبب فى ذلك هو :

١ — أنه تخرج على المعتزلة ، وتربى على موائدهم الفكرية ، فنال من مشربهم وأخذ من منهلهم ، واختار طريقتهم فى إثبات العقائد وإن خالفهم فى النتائج ، وباعد بينه وبين ما وصلوا ، وقد علمت أن المعتزلة سلكوا فى استدلالاتهم مسلك المنطق والفلسفة .

٢ — وأنه قد تصدى للرد على المعتزلة ومهاجمتهم ، فلابد أن يلحن بمثل حجتهم ، وأن يتبع طريقتهم فى الاستدلال ، ليفلج عليهم ، ويقطع

شبهاتهم ، ويفحمهم بما بين أيديهم ، ويرد حججهم عليهم .

٣ — وأنه تصدى للرد على الفلاسفة ، والقرامطة ، والباطنية ، والحشوية ، والروافض ، وغيرهم من أهل الأهواء الفاسدة ، والنحل الباطلة ، وكثير من هؤلاء لايقنعه إلا أقيسة البرهان ، ومنهم فلاسفة علماء لايقطعهم إلا دليل العقل : ولايرد كيدهم فى نحورهم أثر أو نقل .

وقد نال الأشعرى منزلة عظيمة ، وصار له أنصار كثيرون ، ولقى من الحكام تأييداً ونصرة . فتعقب خصومه من المعتزلة والكفار وأهل الأهواء فى كل مكان ، وبث أنصاره فى الأقاليم والجهات ، يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها ، ولقبه أكثر العلماء بإمام أهل السنة والجماعة .

ولكن مع ذلك بقى له من علماء الدين مخالفون منابذون ، فابن حزم يعده من الجبرية لرأيه فى أفعال الإنسان (١) ، ويعده من المرجئة لرأيه فى مرتكب الكبيرة (٢) وقد تعقبه فى غير هاتين المسألتين ، ولكن مع ذلك قد ذاب مخالفوه فى لجة التاريخ الإسلامى ، واشتد ساعد أنصاره ، جيلا بعد جيل ، وقويت كلمتهم وقد حذوا حذوه وسلكوا مسلكه ، وقاموا بما كان يقوم به هو والماتريدى من محاربة للمعتزلة والملحدين ، ومنازلة لهم فى كل ميدان من ميادين القول ، وكل باب من أبواب الإيمان ومذهب من مذاهب اليقين .

ومن أبرزهم وأقواهم شخصية وأبينهم أثراً أبو بكر الباقلانى (٣) فقد كان عالماً كبيراً ، هذب بحوث الأشعرى ، وتكلم فى مقدمات البراهين العقلية للتوحيد ، فتكلم فى الجوهر والعرض ، وأن العرض لايقوم بالعرض ، وأن العرض لايبقى زمانين ، إلى آخر ما هنالك . ولم يقتصر فى الدعوة

---

(١) الجزء الثالث ص ٢٢ من الفصل فى الملل والنحل لابن حزم .

(٢) الجزء الرابع ص ٢٠٤ من الفصل فى الملل والنحل لابن حزم .

(٣) مات الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ .

المذهب الأشعرى على ما وصل إليه من نتائج ، بل ذكر أنه لايجوز الأخذ بغير ما أشار إليه من مقدمات لإثبات تلك النتائج ، فكان ذلك مغالاة وشططا فى التأييد والنصرة ، فإن المقدمات العقلية لم يجىء بها كتاب أو سنة ؛ وميادين العقل متسعة ، وأبوابه مفتحة وطرائقه مسلوكة ، وعسى أن يصل الناس إلى دلائل وبينات من قضايا العقول ونتائج القرائح لم يصل إليها الأشعرى . وليس من شر فى الأخذ بها ما دامت لم تخالف ما وصل إليه من نتائج ، وما اهتدى إليه من ثمرات فكرية .

ولذلك جاء الغزالى (١) من بعده ، فلم يسلك مسلك الباقلانى ، ولم يدع لمثل ما دعا إليه ، بل اعتقد أنه لايلزم من مخالفة مسلك الباقلانى والأشعرى فى الاستدلال بطلان المدلول والنتيجة ، وآمن بأن الدين خاطب العقول جميعا ، وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاء بالكتاب والسنة ، ولهم أن يقووه بما يشاءون من أدلة .

والحق أن الغزالى نظر فى كلام أبى منصور الماتريدى ، وأبى الحسن الأشعرى نظرة حرة بصيرة فاحصة ، لا نظرة تابع مقلد ، فوافقهما فى أكثر ماوصلا إليه ، وخالفهما فى بعض ما ارتآياه دينا واجب الاتباع ، ولذا رماه كثيرون من أنصارهما بالكفر والزندقة . واقرأ ما قاله فى رسالته «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » فقد جاء فيها :

إنى رأيتك أيها الأخ المشفق ، والصديق المتعصب موغر الصدر منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ، ولو فى قيد شعرة كفر ، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر . فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على نفسك ، لايضيق به صدرك ، وفل من غربك واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجرا جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولايقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من

---

(١) توفى الغزالى سنة ٥٠٥ هـ .

سيد المرسلين ﷺ ، وقد قالوا إنه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا إنه أساطير الأولين .

خاطب نفسك وصاحبك ، وطالبه بحد الكفر ، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى ، أو مذهب المعتزلى ، أو مذهب الحنبلى ، أو غيرهم ، فاعلم أنه غر بليد ، قد قيده التقليد ، فهو أعمى من العميان ، فلا تضيع باصلاحه الزمان . وناهيك حجة فى إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، إذ لا يجد بين نفسه ، وبين سائر المخالفين له فرقا وفصلا . ولعل صاحبك يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى ، ويزعم أن مخالفته فى كل ورد وصدر من الكفر الجلى ، فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفا عليه ، حتى قضى بكفر الباقلانى إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى ، وزعم أنه ليس هو وصفا لله زائداً على الذات ، ولم صار الباقلانى أولى بالكفر بمخالفته الأشعرى من الأشعرى بمخالفة الباقلانى ، ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثانى . أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان ، فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة ، فليكن الحق للسابق عليه ، أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم ، فبأى ميزان ومكيال قدرت درجات الفضل ، حتى لاح له أنه لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده . فان رخص للباقلانى فى مخالفته ، فلم حجر على غيره .. وما يدرك التخصيص بهذه الرخصة . وإن زعم أن خلاف الباقلانى يرجع إلى لفظ لا لتحقيق وراءه ، كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعما أنهما جميعا متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف فى أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد ، فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات وهو معترف بأن الله عالم محيط بجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات وإنما يخالف الأشعرى فى أنه عالم قادر بالذات أو بصفة زائدة ، فما الفرق بين الخلافين .. إلخ .

وترى من هذا كيف ينظر فى العقائد نظرة جريئة لا يقلد فيها إماما

ولا يتبع مذهبا من المذاهب المقررة فى العقائد ، وإن انتهى إلى قريب مما انتهى إليه الأشعرى والماتريدى وأنصارهما وأتباعهما .

ولقد جاء بعد الغزالى أئمة كثيرون اعتنقوا مذهب الأشعرى فى نتائجه وزادوا على دلائله ، منهم البيضاوى(١) ، والسيد الشريف الجرجانى(٢) ، وغيرهما من العلماء الأعلام ، والأئمة الأفذاذ الذين أحاطوا خبراً بالمعقول والمنقول ، وقد دونت دلائلهم ، وردودهم على المعتزلة وغيرهم فى علم الكلام الذى لا زال يدرس إلى الآن ، وفق الله الجميع للسداد ، وهداهم إلى سبيل الرشاد .

(١) توفى البيضاوى سنة ٧٠١ وكان مناظرا مجيدا ، واماما متعبدا ، وفقيها شافعيا مدققا .

(٢) توفى الجرجانى سنة ٨١٦ ، وكان فقيها حنفيا ، ملما بالعلوم العقلية ، ألف فيها كتبا انتفع الناس بها .

مختار من مناظرات الأشعرى

مناظرته للجبائى فى أسماء الله تعالى

دخل رجل على الجبائى ، فقال : هل يجوز أن نسمى الله عاقلا ؟ فقال الجبائى : لا ، لأن العقل مشتق من العقال ، وهو المانع ، والمنع فى حق الله محال ، فامتنع الإطلاق .

فقال أبو الحسن الأشعرى : فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيما ، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام ، وهى الحديدة المانعة للدابة عن الجموح ، ويشهد لذلك قول حسان :

فنحكم بالقوافى من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

وقول الآخر :

أبنى حنيفة حكموا سفهاءكم ... إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أى نمنع بالقوافى من هجانا ، وامنعوا سفهاءكم ، فاذا كان اللفظ مشتقا من المنع — والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعـالى .

قال الجبائى : فلم منعت أن يسمى الله عاقلا ، وأجزت أن يسمى حكيما ؟

قال الأشعرى : لأن طريقى فى مأخذ أسماء الله تعالى الإذن الشرعى ، دون القياس اللغوى ، فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ، ولو أطلقه الشارع لأطلقته .

مناظرة بينهما فى الأصلح والتعليل

سأل أبو الحسن الأشعرى أبا على الجبائى قائلا : ما قولك فى ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، وصبى ، فقال : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الدركات ، والصبى من أهل النجاة .

قال الأشعرى : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن ؟

قال الجبائى : لا ، يقال له : إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة ، وليس لك مثلها .

قال أبو الحسن : فان قال التقصير ليس منى ، فلو أحييتنى كنت عملت الطاعات بعمل المؤمن .

قال الجبائى : يقول له الله : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهى إلى سن التكليف .

قال أبو الحسن : فلو قال الكافر يارب علمت حاله كما علمت حالى ، فهلا راعيت مصلحتى مثله . فسكت الجبائى .

* * *

اختلاف المجتهدين
من القرن الثانى إلى منتصف القرن الرابع

امتازت تلك الحقبة من الزمن باتساع نطاق الحضارة فى كل المدن الإسلامية ، وسعة العمران . وبكثرة العلوم ، واتساع نطاق الحركة الفكرية لدخول كثير من الموالى فى الإسلام ، وكثرة الكتب المترجمة . وبتدوين السنة فى بطون الكتب ، بعد أن كانت فى صدور الرجال ، والعناية بمعرفة الصحيح من المروى عن رسول الله ﷺ ووضع قوانين وأسس لرواية السنة ، لكى يتبين بها الخبيث من الطيب ، والصحيح من المكذوب على رسول الله ﷺ . وبأن النزاع بين المجتهدين كان فى الأصول التى تستنبط منها الأحكام الشرعية ، وفى الأحكام نفسها .

الاختلاف فى السنة :

كانت كثرة الكذب على النبى ﷺ مع طول العهد سببا فى صعوبة معرفة الأحكام الشرعية من السنة ، ولذلك نبتت فى بعض الرءوس فكرة رفض الاحتجاج بالسنة ما لم تكن بيانا لقرآن ، والاقتصار على القرآن الكريم ، ويظهر أن هذا الفريق من الناس طوته لجة التاريخ ، واندثر لعدم استحقاقه للبقاء ، ولولا أن الأم للإمام الشافعى ذكرت فيه مناظرة قامت بين أحد القائلين به وبين الشافعى ما سمع بهم أحد ، ولعل هؤلاء كانوا من المعتزلة أهل الكلام ، فقد رأينا فى كتاب تأويل مختلف الحديث أنهم كانوا يجتهدون فى الفقه ، ورأينا أن الأم يذكر أن بعض أهل البصرة هم رافضو الاحتجاج بالسنة على ما سبق ، والبصرة عش الاعتزال على ما علمت .

والعلماء على أن السنة هى الأصل الثانى لمعرفة أحكام هذا الدين ، ولكنهم اختلفوا فى ذلك العصر فى أوصاف الأحاديث التى تصلح حجة لذلك ، وقد

بين ذلك كله بيانا وافيا فى علم أصول الفقه ؛ وإذ كانت هذه المسألة مثار جدل عنيف بين مجتهدى ذلك العصر الذى وضعت فيه هذه الأصول .

الاختلاف فى القياس والرأى :

فى هذا الدور اشتد النزاع بين أهل السنة وأهل الرأى وشنت غارة شعواء على أهل الرأى ، فلاقى هؤلاء خصومهم فى كل ميدان من ميادين القول ، وقام كل فريق يدلى بحجته . وقد رأينا كثيراً من عبارات الاستهزاء بالرأى صادرة عن أهل الحديث .

والعراق كان فى هذا العصر عش أهل الرأى كما كان كذلك فى سابقه ، وأقدمهم قولا بالقياس أبو حنيفة وأصحابه. وكان أكثر فقهاء هذا العصر على ذلك . وقد قال الأستاذ الخضرى : إن مبدأ اتخاذ القياس أصلا فى التشريع قد انتصر فى هذا الدور انتصارا عظيما ، وإن لم يكن الفقهاء على درجة واحدة فى استعماله فى الاستنباط، فأبعدهم أثراً ، وأرسخهم قدماً فيه الحنفية ، وأقلهم نفوذاً فيه الحنابلة والمالكية ، والشافعية بين الفريقين ، وابتعد عنه بعض أهل الحديث والشيعة ، وغلا الظاهرية فى رفضه .

النزاع فى الإجماع :

رأى قوم من الفقهاء إجماع العلماء على أمر من الأمور يوجب اتباع الأعقاب له ، لأن من لم يتبعهم يسير فى غير سبيل المؤمنين ، ورأى آخرون أن الإجماع ليس بحجة ، بل أنكر وجوده . وكان الشافعى يقول إن الإجماع حجة ، ولكنه كان إذا ناظر أنكر وجوده ، وقال الإمام أحمد بن حنبل: من ادعى الإجماع فهو كاذب ، وقد جرت مناظرات كثيرة بين المجتهدين فى الإجماع ، وفى كتاب الأم الشىء الكثير منها .

وقد كان من موضوعات نزاعهم أمور أخرى منها أصل التكليف ، ومنها دلالات الألفاظ ، وغير ذلك ، وقد كان ثمرة تلك المناظرات علم أصول الفقه كما علمت .

وكان الاختلاف فى الفروع قد شمل المسائل الواقعة والفرضية ، واشتد واتسع ، وكانت ثمرته ظهور المذاهب الأربعة وغيرها .

والخلاف فى هذا الدور كما فى الدور الذى سبقه كان يقوم على الاجتهاد المطلق ، ولم يكن للتقليد فيه أثر ، ولكن فى آخر هذا الدور كانت تظهر بعض روائح التقليد ، وسرعان ما تزول ، وكانت حرية الرأى واسعة ، والمناظرات قائمة على قدم وساق ، كل يدافع عن رأيه فى قوة ، وثبات وسعة صدر ، ولم تكن مهاترة فى القول إلا نادرا ، لإخلاص المتناظرين ، وقوة فكرهم ، وتأدبهم بآداب الدين الحنيف .

وقد جاء وليداً للمناظرات فى أصول الفقه والفروع فى هذا العصر علم الجدل الذى قال فيه ابن خلدون :

هو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ، ومنه ما يكون صوابا ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا ، وكيف يكون مخصوصا منقطعا ، ومحل اعتراضه ومعارضه وأين يجب عليه السكوت (١) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

مختار من مناظرات الفقهاء في ذلك العصر

مناظرة بين محمد بن الحسن والشافعي

قال محمد بن الحسن : ما تقول فى رجل غصب من رجل ساجة ، فبنى عليها بناء ، أنفق فيه ألف درهم ، ثم جاء صاحب الساجة ، فأثبت بشاهدين عدلين أن هذا اغتصب هذه الساجة وبنى عليها ، ماكنت تحكم ؟

قال الشافعي : أقول لصاحب الساجة أن تأخذ قيمتها ، فان رضى حكمت له بالقيمة ، وإن أبى إلا الساجة قلعتها له ، ورددتها إليه .

قال محمد : فما تقول فى رجل اغتصب من رجل خيط حرير ، فخاط به بطنه ، فجاء صاحب الخيط ، وأثبت بشهادة عدلين أن هذا اغتصب هذا الخيط ، أكنت تنزع الخيط من بطنه ؟ قال الشافعي لا . قال محمد : الله أكبر ، تركت قولك . قال الشافعي : لا تعجل ، أخبرنى لولم يغصب الساجة من أحد ، وأراد أن يقلع هذا البناء عنها ، أيباح له ذلك ، أم يحرم عليه ؟ فقال محمد يباح ، فقال الشافعي : أفرأيت لوكان الخيط خيط نفسه ، فأراد أن ينتزعه من بطنه ، أمباح له ذلك ، أم محرم عليه ؟ فقال محمد : بل محرم ؛ فقال : فكيف نقيس مباحا على محرم .

قال محمد : أرأيت لو أدخل غاصب الساجة فى سفينة ، ولجج فى البحر ، أكنت تنزع اللوح من السفينة .

قال الشافعي : آمره أن يقرب سفينته إلى أقرب المراسى إليه ثم أنزع اللوح ، وأدفعه إلى صاحبه .

قال محمد : أليس قد قال رسول الله ﷺ : لا ضرر ولا ضرار ؟ فقال الشافعي : هو أضر بنفسه ، ولم يضر به .

ثم قال الشافعي : ما تقول فى رجل اغتصب من رجل جارية ، فأولدها عشرة كلهم قد قرءوا القرآن الكريم ، وخطبوا على المنابر ، وحكموا بين المسلمين ، فأثبت صاحب الجارية بشاهدين عدلين ، أن هذا اغتصبها منه ، ناشدتك الله

بماذا كنت تحكم ؟ قال : أحكم بأن أولاده أرقاء لصاحب الجارية ، فقال الشافعى : أيهما أعظم ضررا أن تجعل أولاده أرقاء أوتقلع البناء عن الساحة ؟

مناظرة بين الشافعى وإسحاق بن راهويه

تناظر إسحاق بن راهويه مع الشافعى فى جلود الميتة إذا دبغت . فقد قال الشافعى دباغها طهورها : فقال إسحاق ما الدليل ؟ فقال الشافعى : حديث الزهرى عن عبيد الله عن عبد الله بن عباس عن ميمونة أن النبى ﷺ مر بشاة ميتة ، فقال : هلا انتفعتم بجلدها .

قال ابن إسحاق : حديث ابن حكيم : كتب إلينا رسول الله ﷺ قبل موته بشهر ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب — أشبه أن يكون ناسخا لحديث ميمونة ، لأنه قبل موته بشهر .

قال الشافعى : هذا كتاب وذاك سماع .

قال إسحاق : إن النبى ﷺ كتب إلى كسرى ، وقيصر ، وكان حجة عليهم عند الله . فسكت الشافعى .

* * *

الخلافة فى الفقه
من القرن الرابع إلى عصرنا هذا

كان الناس فى العصور السابقة قسمين : أحدهما مجتهد يطلب الدين من أصوله والثانى مقلد يأتى أهل العلم ، فيسألهم عن حكم الدين فى الأمر الذى عرض له .

أما الناس فى هذه العصور ، فقد استولت عليهم روح التقليد ، وأصبح الفقيه من يعرف ما استنبطه غيره ، لا من يستنبط الأحكام من مصادرها ، وشاع تقليد أصحاب المذاهب السابقة . حتى قال الإمام أبوالحسن الكرخى : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى مؤولة أومنسوخة ، وكل حديث كذلك فهو مؤول أومنسوخ (١) . ولم يعرف أن أحداً أقدم على فتح باب الاجتهاد بعد أن أحكموا إغلاقه ، إلا الإمام الجوينى والد إمام الحرمين ، وعدداً قليلا من العلماء اجتهدوا فى بعض المسائل .

ولكن لماذا غلقت أبواب العلم أمام العقول ، وقد كانت مفتحة ، وركزت العقول فى محيط التقليد الضيق ، وقد كانت فى ساحة الاجتهاد المتسعة الأرجاء ؟ السبب فى ذلك عدة أمور منها :

تعصب التلاميذ لآثار أساتذتهم من الأئمة المجتهدين الذين أناروا العصر السابق ، وكشفوا ظلمات المسائل بنور عقلهم الساطع ، وإن التعصب لفكرة يحمل الإنسان على الجمود عليها ، والتعلق بأهدابها ، ودعوة الناس إليها ، وتحبيذها ، وكذلك فعل أولئك الذين جاءوا بعد الأئمة السابقين ، فقد عنوا بدراسة مذاهبهم ، ونشرها بدل السير على منوالها ، والاجتهاد كما اجتهد أصحابها ، فوثق الناس بالسابقين ، وشكوا فى أنفسهم .

---

(١) تاريخ التشريع للأستاذ محمد الخضرى .

القضاء :

كان الخلفاء يختارون قضاتهم أول الأمر من المجتهدين ، لا من المقلدين ، ولكنهم فى هذه العصور آثروا اختيارهم من المقلدين ، ليقيدوهم بمذهب ، وليعينوا لهم ما يحكمون به ، بحيث يكونون معزولين عن كل قضاء يخالف ذلك المذهب ، ولأن بعض القضاة المجتهدين كان يتعرض لتخطئة الفقهاء ، فيكون حكمه مثار نقد عند الناس ، لا سبب اطمئنان لهم ، وحكم القضاة يجب أن يكون داعية اطمئنان ، لا داعية انتقاد ، ليطمئن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم . وكان تقييد القاضى بمذهب يرتضيه الخليفة سببا فى نشر هذا المذهب ، واكتفاء أكثر الناس به .

سعى الحكام المستبدون لإغلاق باب الاجتهاد ، لأنهم وجدوا فى استمراره مفتوحا ما قد ينقض عليهم أمرهم ، إذ العقول ، إذا اتجهت بحرية إلى ما فى الدين من حقائق ، ونهلوا من ينابيعه ، وجدت من أصوله ما ينقض دعائم يبنيها الظالمون ، ويؤسس قواعدها الغاشمون .

تدوين المذاهب :

فتدوينها سهل على الناس تناولها ، والناس دائما يطلبون السهل اليسير ، دون الصعب العسير .

كان يدفع الناس إلى الاجتهاد فيما سبق تعرف أحكام حوادث جدت لا يعرفون حكمها ، وشئون عرضت لا يدركون أمر الشريعة فى شأنها ، فلما جاء المجتهدون فى الدور السابق ، ودونوا أحكام الحوادث التى عرضت والتى يحتمل عروضها ، صار الناس كلما عرضت لهم مسألة وجدوا السابقين قد تعرضوا لها ، فاكتفوا بمقالهم فى شأنها ، فسدت حاجتهم بما وجدوا ، فلا حافز يحفزهم إلى بحث جديد ، وساعد ذلك ما للأقدمين من تقدير ، وما يكسبهم الزمن من إجلال ، وعناية الأمم بتكريم السلف الصالح من الماضين ليرتبط حاضرها بماضيها برباط متين .

لهذا كله انصرف الناس إلى التقليد ، اللهم إلا فى تعرف علل الأحكام فى المذهب ، وهذا هو الذى يسمى تخريج المناط ، أو ترجيح بعض الآراء فى المذهب على غيرها ، ويسمى من أوتى القدرة على ذلك المجتهد فى المذهب .

المناظرات والجدل :

لا تظن أن المناظرات قد قلت عن العصر السابق ، لإقفال باب الاجتهاد ، وإحكام إغلاقه ، بل إن المجادلات قد اشتدت ، وشاعت ، ولكن بينما كان الغرض منها فيما سبق الوصول إلى معرفة حكم من الأحكام ، صار الغرض منها فى هذه العصور نصرة مذهب على مذهب ، وقد شاعت مجالس المناظرات شيوعاً كثيراً ، فكانت لا تخلو منها مدينة فى العراق أو خراسان .

كانت المناظرات تعقد أمام الوزراء والكبراء ، ويحضرها كثير من أهل العلم ، وبلغ سيلها أعلى ارتفاعه ، حتى كانت تعقد فى مجالس العزاء .

قال أبو الوليد الباجى : العادة ببغداد أن من أصيب بوفاة أحد ممن يكرم عليه ، قعد أياما فى مسجد ربضه ، يجالسه فيها جيرانه ، وإخوانه ، فإذا مضت أيام عزوه ، وعزموا عليه فى التسلى إلى عادته من تصرفه ، فتلك الأيام التى يعقد بها فى مسجده للعزاء ، مع إخوانه وجيرانه لا تقطع فى الأغلب إلا بقراءة القرآن الكريم ، أو بمناظرة الفقهاء فى المساجد .

انثال الناس على المناقشات الفقهية ، واشتدت المناقشة بين الشافعية والحنفية ، وما كان الدافع معرفة علل الأحكام ، أو استنباط قواعد الشرع ، بل إرضاء نهمة التعصب ، وشهوة الحكام . وكان حجة الإسلام الغزالى من أحدّ الناس فى الجدل والمناظرة ، وأقواهم فى الأخذ بناصية خصمه ، ولكنه تاب إلى الله ، ولم يعد هذا النوع من النقاش من التعاون على طلب الحق ، بل قال فى هؤلاء المتناظرين : إن هؤلاء القوم يلبسون على أنفسهم بقولهم إن التعاون على طلب الحق من الدين .

وقال أبو حيان التوحيدى : سمعت أباحامد يقول لطاهر العبادلى : ولاتعلق كثيراً لما تسمع منى فى مجلس الجدل ، فإن الكلام يجرى فيه على ختل

الخصم ومغالطته ، ودفعه ومغالبته ، فلسنا نتكلم لوجه الله خالصا ، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا فى الكلام، وإن كنا فى كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى ، فإنا مع ذلك نطمع فى سعة رحمة الله تعالى .

وقد أدت تلك الملاحاة ، وهذه المناقشات التى كانت تتخذ أحيانا للمغالطات إلى أمرين :

إحدهما : إتمام وضع علم أدب البحث والمناظرة ، الذى سماه ابن خلدون علم الجدل ، وقد بينا أنه ابتدأ فيما سبق .

ثانيهما : اشتداد التعصب المذهبى الذى انتقل إلى مخاصمات فعداوات ، وسرى ذلك إلى العامة ، حتى كاد يؤدى إلى تناحر ، ووصلت الحال إلى أن بعض الفقهاء كان لا يجوز إمامة المخالف للمذهب ، وفى ذلك شطط ، وخروج عن جادة الاعتدال ، فإن الأئمة رضوان الله عليهم كان كل منهم يجل رأى الآخر ، وإن كان يخالفه ، والقاعدة الفقهية المأثورة التى تقول : مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب ، كانت قانونهم .

وقد كان الشافعى يقول عن أبى حنيفة : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة . وكان يقول لأحمد بن حنبل: إذا صح الحديث عندك فأعلمنى به .

هذا ولا زال إلى الآن أثارة قليلة من التعصب بين أهل المذاهب ، نرجو أن تزيلها سعة العقول والأفهام .

* * *

ترجمة خطيبين
من خطباء الجدل

الحسن البصري

من سنة ٢١ – ١١٠ هـ

هو شيخ المفكرين فى العصر الأموى ، وإمام الزهاد ، وقدوة الوعاظ ، وذو اللسن والبيان ، والتقوى والإيمان .

وإذا كان من الواجب عند دراسة المفكر أن نرد آراءه ومناحى تفكيره إلى عناصرها الأولى ، وينابيعها التى نهل منها ، فمن اللازم أن نبين عند الكلام على الحسن أسرته ودمه وجنسه ، والبيئة التى ترعرع فى ظلها ، وشدا فى جوها ، ونما تحت سلطانها ، وأن نبين أعماله التى تولاها ، فسارت على وفقها عاداته ، وتكونت على نهجها ملكاته .

أسرته :

ولد الحسن من أبوين من الموالى ، بل من رقيق الفرس ، فأبوه يسار من أسرى ميسان (١) أسره المغيرة بن شعبة عند فتحها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد صار مولى زيد بن ثابت رضى الله عنه ، وأمه خيرة من السبايا ، وصارت مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين ، وفى بيتها ولد الحسن ، وقد منحته أم المؤمنين كلاءتها ورعايتها ، حتى أن أمه ربما غابت فى حاجته ، فيبكى ، فتعطيه ثديها تعلله به إلى أن تجىء أمه (٢) .

من هذا السياق نفهم أنه ولد ، وأمه أمة لأم المؤمنين أم سلمة ، وإذا طبقنا الحكم الشرعى فى هذه الحال وجب أن نقول أن الحسن ولد على الرق ، لأن ابن الأمة يتبع أمه فى رقها ، ما لم يكن ابن سيدها .

---

(١) قرية أو صقع بالعراق .

(٢) ويروى ابن خلكان أن ثديها در عليه ، فشربه ، ويقول : فيروون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك . أ هـ .

ولكن يسهر ان أم سلمة أعتقته هو وأمه ، أو أعتقته فقط ، لأنا لانعرف له مالكا سواها ، ويظهر أن العتق جاءه وهو صغير ، لأن الرواة لم يذكروه على أنه عبد لأم المؤمنين ، ولو أنه استمر عبدا أمدا طويلا لاشتهر ذلك ، ولتناقلته الرواة ، ولعل الحجاج كان يرمى إلى تعبيره برقه صغيراً عندما قال مخاطبا جند الشام ، إذ بلغه تفسيقه له : أيشتمنى عبيد أهل البصرة ، وأنتم حضور ، فلا تنكرون .

وكان أبوه مولى لزيد بن ثابت كما علمت ، وأمه مولاة لأم سلمة ، وفى وسط هذه الحكمة ولد ، ومن أفاويقها رضع ، ومن مناهلها العذبة شرب ، وهو فوق ذلك من الموالى ، والموالى كانوا فى مقدمة الباحثين فى العلوم ، والحاملين لواءها فى العصر الإسلامى .

وانظر إلى ما قاله ياقوت فى معجمه :

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص — صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى ، فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبى رباح ، وفقيه أهل اليمن طاووس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقيه أهل الكوفة النخعى ، وفقيه أهل الشام مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى إلا المدينة المنورة ، فإن الله تعالى خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب .

ولعل السبب فى ذلك :

١ — اشتغال العرب بالجهاد والحرب والرياسة والسياسة ، وإدارة شئون الدولة ، وتفرغ هؤلاء للعلوم ، فعالجوها ومحصوها .

٢ — أن الموالى فقدوا السلطان ، ووجدوا فى قيادة الأفكار ، والسيادة العقلية معوضا لما فقدوا .

٣ — أن موالى الصحابة اختصوا بخدمتهم واتباعهم فورثوا علمهم ، ونقلوا للأجيال أفكارهم .

٤ — هؤلاء الموالى حضر ، ورثوا ثقافة فكرية عن أممهم ، ونزعات

عقلية اتجهوا بها إلى دراسات دينية ، فغرسوا أقوى الغرس ، وأنتجوا أطيب الشراب .

نشأته وتعليمه :

ولد الحسن بالمدينة المنورة ، ونشأ بوادى القرى ، ثم عاد إلى المدينة المنورة ، وعاش فى بيت له صلة بالبيوت النبوية ، ولا نعلم بالتعيين الزمن الذى بقى فيه بالمدينة المنورة . ويظهر أنه قضى فيها السنين الأولى من شبابه ، فانه يروى أنه كان بالمدينة المنورة إذ قتل عثمان ، وكانت سنه أربع عشرة سنة .

جاء فى المنية والأمل : قال الحسن كنت بالمدينة يوم قتل عثمان ، وكنت ابن أربع عشرة سنة : وروى الحسن أن أمير المؤمنين (عليا) لما بلغه قتل عثمان ، وهو فى ناحية المسجد رفع يده ، وقال : اللهم لم أرض ولم أمالئ .

فهذا الخبر يدل على أنه كان بالمدينة ، وهو يافع ، ولا ندرى إلى متى استمر وأقام وقد كانت المدينة المنورة عش الصحابة ، وإليها يفد كل زعماء الأمم المفتوحة ، وفيها من كل طوائف الناس أفواج وجموع ، لأنها كانت قصبة الحكم الإسلامى ، وطبعى أن يتورد الناس على قصبة دولتهم ، ومقر حكمهم ، ففى المدينة المنورة التقى الحسن ببعض الصحابة ، وقد قال : لقيت ثلثمائة من الصحابة منهم سبعون بدريا ، فأخذ عنهم وتلقى كثيراً من علومهم .

كان عمر لا يوزع الأسارى إلا بعد أن يجيئوا إلى المدينة ، وكان فى هؤلاء الأسرى أشراف من الفرس والروم ، فماجت المدينة بهم ، وكانوا متعلمين على النهج الذى ساد فى أممهم ، ودخل كثير منهم فى الإسلام ، فصبغوا الحياة الإسلامية بصبغتهم .

على هؤلاء وأولئك تلقى الحسن البصرى علومه الأولى ومعارفه ، وهو ناشىء ، والتقى فى دراسته علم الدين بالعلوم الفارسية ، والنزعات التى كانت للأمم السابقة .

وانتقل بعد ذلك إلى العراق ، وفى العراق الملل والنحل والأهواء ، وقد كان موطنا لمدنيات قديمة ، كان السريان قد انتشروا فيه ، وأنشئوا لهم

مدارس به قبل الإسلام ، وكانوا يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكان فى العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل فى كثير من العقائد ، وكان فى الحيرة يونان مثقفون ، وكان العراق فى الإسلام ميدانا للحروب والفتن ، والتناحر المذهبى بين الشيعة والخوارج وغيرهم .

فى ذلك المزدحم من الأفكار ، والمضطرب الفسيح من الآراء ، وفى ذلك المزيج من النحل والأهواء ، أتم الحسن رجولته ، والنفس القوية تستخلص غذاءها الروحى من كل الأفكار ، كالرجل القوى يستخلص قوته من حسك السعدان ، ومن وسط القتاد ، فلا عجب إذا تغذت نفس الحسن البصرى من هذه الأفكار المتضاربة ، والآراء المتناحرة ، واستخلصت من بينها ما ينميها ويقربها . وإن النفس القوية تستفيد من باطل الآراء كما تستفيد من صحيحها إذ تعرف ما فى الباطل من دخل ، وما فى ثناياه من خطل ، فيكون إدراكها للحق على بينة ويقين . وليس قوياً فى نفسه هو الذى يتحير فى وسط الشبهات ومتنازع الأهواء والأفكار ، ولكن القوى فى نفسه هو الذى يتخير مذهبه الحق وسط أعاصير الأهواء ، فلا يتطرق الشك إلى قلبه ، ولا يرد الاضطراب إلى نفسه ، بل لا يزيده اضطراب الآراء إلا يقينا ، والتحام الأفكار إلا تثبيتا ، كالشجر الثابت يأخذ من الريح العاصف غذاءه ولا يصاب بأذى .

وكذلك كان الحسن البصرى ، فنى معتلج الآراء ، ومضطرب المذاهب اتخذ له مذهبا فى الدين آمن به حق الإيمان ، وأذعن له حق الإذعان ، وكان كالطود الأشم تصطدم به الرياح ، فتتبدد حوله ، وهو جاثم فى مكانه ، يستخلص من تلك الفتن مايدعم حجته ، وينير محجته ، ويقوى به دعوته ، ويثبت ما رآه فى الدين حقا ، وفى أخلاق الناس منارا .

وقد استنبط بعض الكتاب من حال أبيه وأمه ، وكونهما كانا فارسين من الأسارى وأنهما لقناه اللغة الفارسية صغيراً ، وأجادها كبيراً . وفى الحق أنه ليس بين أيدينا سند تاريخى أثبت ذلك أو نفاه ، ولانستطيع أن نتعرف من كلامه أنه كان يجيد الفارسية أو لايجيدها . إذ أن أفكاره وآراءه كانت

إما عملية ، وإما اعتقادية ، وكلتاهما كانت تمت إلى الدين بسبب وثيق ، وإلى الأفكار التى انتشرت فى عصره بصلة .

الأحوال الاجتماعية فى عصره :

رأى الحسن البصرى عصرين متناقضين ، رأى الإسلام ، وقد اكتملت قوته ، وعمت هدايته ، ورأى الفتن وقد اشتدت ، والإحن الجاهلية وقد استيقظت من سباتها ، ووثبت من مرقدها .

نعم قد أدرك طرفا من عصر الخلفاء الراشدين وأشطراً من عصر الأمويين رأى فى العصر الأول حكم الإسلام قائما ، الصولة فيه للحق ، والأخلاق يتأثرون فيها أدب النبى الكريم ، والمؤمنون فيه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ، بأسهم على عدوهم ، وهم يد واحدة على كل خصومهم ، ويد واحدة فى إصلاح شئونهم . ورأى الأحداث قد قسمت المسلمين ، فريق مع الإمام العادل ، وفريق قد خرج عليه ، وتأول ، ثم رأى كيف أخذت الوحدة فى الانشقاق ، والهوة فى الاتساع ، حتى جاء العصر الأموى ، فوجد الأمة تجتمع فى بعض الأحيان ، وتختلف فى أكثرها ، ورآها فى اجتماعها وافتراقها قد ضعف فيها صوت الدين ، وإن اشتدت الدعوة إليه ، فى وسط زوبعة من الاختلاف والانقسام والمنازعة والخصـــام .

وفى غفلة الناس أو انتباه من بعضهم استيقظت العصبية الجاهلية ، وقويت الاختلافات القبلية التى نهى عنها الإسلام ، وساد التفاخر بالأنساب وبالأحساب لا بالأعمال والتقوى ، وانتشر التهاجى والإقذاع فى الشتم والطعن ، ولم يجد الخلفاء الأمويون حرجا دينيا يمنعهم من أن يأمروا الناس بسب على رضى الله عنه على المنابر ، وفى المجالس ، وكأن ذلك فريضة دينية واجبة الأداء وقربة محتسبة الجزاء .

كان لكل ذلك أثر فى نفس الحسن البصرى ، ولكن أثر الأولى موجب جعله يدرك قيمة الدين ، وأثر الثانية سابق جعله يفهم ما فى الانشقاق من آثام ،

وما فى هجر الدين من مفاسد ، ولذا كان يدعو الناس إلى الأخذ بما أخذ به سلف الأمة والاهتداء بهديهم ، والسير فى طريقهم ، واتباع نهجهم ، وانظر إليه وهو يصف أثر سلف الأمة فى نفسه ، وأثر عصر الفتن فيها ، إذ يقول لأصحابه : والله لو أن رجلا منكم أدرك من أدركت من القرن الأول ، ورأى من رأيت من السلف الصالح ، لأصبح مهموما ، وأمسى مغموما ، وعلم أن المجد منكم كاللاعب ، والمجتهد كالتارك ، ولو كنت راضيا عن نفسى لوعظتكم ، ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها ، ولذا أبغضتها وأبغضتكم .

أيها الناس إن لله عبادا قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا الأيام القلائل ، لما رجوه فى الدهور الأطاول . أما الليل فقائمون على أقدامهم يتضرعون إلى ربهم ، ويسعون فى فكاك رقابهم ، تجرى من الخشية دموعهم . وأما النهار فحلماء علماء أتقياء أخفياء ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، يخالهم من الخشية مرضى ، وما بهم مرض ، ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها ، ولهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم ، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم . أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

وفى عصره التقت سذاجة العرب بحضارات الأمم ذوات الحضارات القديمة ، وابتدأ العرب ينهلون من مناهل هذه الحضارات التى التقت فيه عادات العرب بعادات غيرهم من الأمم ، واصطدمت عواطف مختلفة ، وتصارعت العادات ، وتغالبت القوميات ، فكانت بجوار المعارك السياسية الفاشية والاضطرابات الفكرية السائدة معارك نفسية قوامها اصطدام مدنيات واضطراب حضارات .

وفى عصور الاضطراب هذه تصهر العقائد ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . تظهر عقائد وآراء وأفكار ، ولكنها سرعان ما تذوب وتطويها لجة التاريخ ، وفى وسط ذلك الملتحم ، وذلك

الهياج الفكرى يتحمس كل معتقد لما يعتقده ، وكل مفكر لما يرتئيه .
وقد كان الحسن البصرى فى منهجه مؤمنا مخلصا لإيمانه ، لذلك تحمس للإيمان ، واشتد فى طلبه ، فكان له المنزلة الأولى فى عصره .

الحالة السياسية فى عصره :

أدرك الحسن نوعين من الحكم ، أدرك حكم الدين قائماً ، وأمر المسلمين شورى بينهم ، وأدرك حكم الغلب وقد اشتد واحتد . أدرك عصر الخلفاء الراشدين ، والخليفة فيه يقول : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . وأدرك عصر بنى أمية ، وخطيبهم يقول : من قال لى اتق الله قطعت عنقه . وفوق ذلك أدرك الحكم وهو ينتقل من خلافة إلى ملك رفيق ، فملك عضوض .

نشأ نشأته الأولى والناس فى أمن ودعة واطمئنان وسلام ، يطيعون الله ، ويطيعون أولى الأمر ، ويجدون فى أولى الأمر منفذين لأحكام الدين فيهم ، مقيمين لما أقام الله ، خافضين لما خفض ، عن الشرع يصدرون ، يشعر الناس بأن الحاكم ليس إلا أحدهم ، ولكنه معنى بأمورهم ، عليه أن يقيم حكم الله فيهم . ولما ظهرت رءوس الفتن ، وبدت أنياب الشر ، وأخذ الناس ينشرون السوء عن الخليفة الثالث ، حتى قتلوه ، كان الحسن قد سار يافعا ، فعلم هذه الفتنة ، ورآها رأى العين ، وأدرك ما جرته من ويلات .

رأى بعد ذلك الخليفة الرابع ، وقد رفع سلاح الحق فى وجه الباطل ، يناضله البيان الرائع الآخذ بنياط القلوب ، وبالسيف أحيانا ، ثم رأى بعضا من العرب أخذوا ينحازون إلى الباطل ، لثقل الحق عليهم ، ورأى كيف اختلف أهل الحق فى حقهم ، واجتمع المبطلون فى باطلهم .

غير أنه لم يخب ويضع فى هذه الفتن الطخياء ، بل آثر السكون ، لاضطراب حبل الأمور ، واختلاط الحق بالباطل ، وأن الناس يخبطون عشواء ، وصوت الداعى إلى الحق لايصل إلى الأسماع عند اشتداد الفتن واصطخاب الإحن .

رأى أن النائم فى هذه الفتن خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم ،

والقائم خير من الساعي ، لأن سيل الشر قد طم ، والقلوب عليها أقفالها ، والأسماع قد أصمتها هوجاء الفتن .

وقد استمرت تلك الفتن سنين حدثت فيها أحداث ، وفسدت فيها الأمور ، وهزعت الأخلاق ، ورميت الكعبة المشرفة بالمنجنيق ، وقتل ابن ذات النطاقين ، ورأى شدة فى الحكام ، لم تعهد فى سلف هذه الأمة ، رأى زياد ابن أبيه ينشر حكما لايعتمد على الحق ، ورأى الحجاج يحاكيه ، فيأخذ الناس بشدة لم يعرف لها فى تاريخ الإسلام نظير ، دماء تهراق ظلما ، وفساد يعم الآفاق ، وتتبع لأهل الفقه والدين ، وتسقط لهفوات المسلمين ، وتقص لعورات المؤمنين .

كان لكل هذا أثر سلبي وإيجابي فى نفس الحسن وآرائه ، ومنهجه الذى سار عليه . ويجب أن نعلم أن النفوس تتلقى من بيئتها ما يوائمها ، ويسايرها ، ونفس تقية عرفت طرائق الصالحين ، لابد أن يكون تأثير هذه السياسة فيها مغايراً لتأثيرها فى نفس من كان عنده استعداد للشر والطغيان ، إذ هى بينما تغرى هذا بالطغيان ، تنفر ذلك من السلطان ، وتوجهه نحو الديان .

إن النفس التقية الوادعة المؤمنة إن رأت نوعا من حكم الطغاة ، اتجهت إلى رضوان الله تبتغيه ، وإلى جنات النعيم ، وعكفت على توجيه الناس إلى الآخرة ، ليرجو فيها المثوبة ، لأنهم يئسوا من أية راحة فى هذه الدنيا ، ولعل هذه السياسة كانت من أسباب توجيه الحسن إلى الدعوة إلى الآخرة ، والاستهانة بالدنيا .

بل لعل هذه السياسة وهى التى دفعت كثيراً من الصحابة والتابعين إلى العكوف على دراسة القرآن الكريم ، وتفهم أحكام الدين ، ورواية أحاديث النبى ﷺ كانت من أسباب انصراف الحسن إلى تلك الدراسات الدينية الواسعة النطاق بدل الاشتغال بالسياسة العملية ، وفيه استعداد لها (١) .

---

(١) لبيانه وقوة نفوذه ، كما يتبين ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

ولقد كانت الملاحاة السياسية بين بنى أمية ، والخارجين عليهم ، من خوارج وشيعة ، ذات أثر كبير فى آراء الحسن الدينية ، التى لها صلة بالسياسة كما سنبين .

الأحوال الفكرية فى عصره :

فتحت العراق وفارس ، والشام ومصر ، وغيرها فى عصر الخلفاء الراشدين ، ووجد بعد الفتح دعاة للإسلام بأقوالهم وبسيرتهم ، وبحكم العدل ينشر بينهم ، وبانقاذهم الناس من الاضطهاد الدينى فى مللهم ، فكان طبعيا أن يتحرك المتحمسون لتلك الديانات ، للدفاع عن كيانها ، وكان طبعيا أن تكثر المناقشات فى الديانات ، وأن يلتحم الجدل فيها فى العصر الأموى بين المسلمين وغيرهم ، وكان العراق مهداً لكثير من هذا الخلاف ، وذلك الجدل .

ولما دخل الموالى فى الإسلام دخلت معهم نحل مختلفة ، وآراء فى الدين مضطربة ، فنشأ من بينهم المجسمة المشبهة ، وغيرهم ، وكان هذا كله مثار جدل ، وملتحم أفكار ، والاختلاف السياسى وما تبعه من انقسام إلى خوارج وشيعة ، وأمويين ، وانقسام كل جماعة فيما بينهم تبعه اختلاف فكرى شديد ، والتحام مذهبى عنيف .

فكان لهذا وذاك أثر فكرى فى تكوين الحسن البصرى آراءه ومذاهبه فى أصول العقائد .

وفى عهده ابتدأت العلوم الدينية تتكون ، فابتدأ التابعون يستخرجون أحكام الدين من القرآن الكريم يفرعونها ، ويفصلونها ، وكان ذلك النحو فى العراق وابتدأ الحديث يدون فى هذا العصر ، فكان لكل هذا أثر فى نفس الحسن ، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه اجتمع بثلثمائة صحابى أخذ عنهم ، وتلقى عليهم ، صح لنا أن نقول أنه اجتمعت له دراسات دينية عالية مع استعداد قوى ، وإيمان ثابت ، فكان منه قائد فكر ، وزعيم جيل .

صفاته :

جمع الله للحسن من الصفات ما جعله وحيد عصره علما وفضلا . وها هى ذه :

الذكاء :

كان ذكيا حاد الذكاء قوى الإدراك ، وكان عميق الفكرة ، لا يكتفى بالنظرة الأولى فى الأمور ، بل يرددها مرتين ، ويراجع الفكرة حتى يتكون الرأى ، فإذا تكون فهو الجبال الراسيات . سئل أنس عن مسألة فقال : سلوا مولانا الحسن ، فقيل له ؛ أتقول ذلك ؟ فقال : سلوا مولانا الحسن ، فإنه سمع وسمعنا ، وحفظ ونسينا . وانظر إلى مناقشاته للحجاج ، فإنها تدل على بديهة حاضرة ، وذهن جبار ، ونفس قوية . قال له الحجاج مرة ما تقول فى على وعثمان . قال : قول من هو خير منى عند من هو شر منك ، قال فرعون لموسى ما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى [1] .

حرية الفكر مع الايمان الصادق :

يعتبر الحسن ممن أدرك عصر الصحابة ، فهو تابعى ، وقد تلقى علوم الدين من أفواههم ، وسرت نورانيته إليه من قلوبهم ، وكان مع تأثره طريق السلف ، واقتفائه آثارهم ، يجتهد فيما يعرض من الأمور بعقل قوى ، جامعا بين المعقول والمنقول ، لا يحاكى أحداً من غير دليل ، ولا يتبع غيره من غير برهان . ادلهمت فتن فكرية ، وأثيرت زوابع كلامية ، ومذاهب كثيرة ، فما أعماه مدلهمها ، ولا أذهب استقلال فكره خطوبها ، بل رأيه يستمده من قلبه ، ولا يستفتى سواه ، وسنبين ذلك واضحا عندما نتكلم عن آرائه .

الشجاعة :

فى وسط ذلك الجو الخانق حبست الآراء فى الصدور ، وكتمت الألسنة عن أن تنطق بما تعتقده القلوب ، ولكن الحسن بما آتاه الله من قلب جرىء ،

---

(١) المنية والأمل للمرتضى .

ونفس مؤمنة بما تعتقد ، وقلب واثق بالله شديد الإيمان به كان يقرر الحق ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولا عقاب معاقب ، كان فى درسه حر الفكر ، حر القول ، لا يقصد بقوله إرضاء أحد ، بل يقصد إحقاق الحق .

سأله رجل عن الفتن ، فقال لا تكن مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء ، فأراد إحراجه رجل من أهل الشام . فقال له : ولامع أمير المؤمنين ، يا أبا سعيد ، فغضب ، وخط بيده ، ثم قال : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد !!! نعم ولا مع أمير المؤمنين .

حاوره النضر بن عمار والى البصرة ، فكان من قوله : اتق الله أيها الرجل فى نفسك . وأيم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك فى مكانك ، يعلون المنابر ، وتهتز لهم المواكب ، ويجرون الذيول بطرا ورياء الناس ، يبنون المدر ويؤثرون الأثر ، ويتنافسون فى الثياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن ، وياويلهم «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

بنى الحجاج داراً بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : الحمد لله ، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده ، وإلى فرش فينجده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء ، فيقول انظروا ماذا صنعت ، لقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ، أما أهل السموات فقد لعنوك ، وأما أهل الأرض فقد مقتوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء وغورت فى دار الغرور ، لتذل فى دار الحبور . ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ، ولا يكتمونه .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام . فقال أيشتمنى عبيد أهل البصرة ، وأنتم حضور ، فلا تنكرون ، ثم أمر باحضار الحسن فجاء ، وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع ، حتى دخل على الحجاج . فقال إيها

يا أبا سعيد ، أما كان لإمرتي عليك حق حين قلت ما قلت . فقال يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب إليك ممن آمنك حتى تبلغ الخوف ، وما أردت الذى سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك العفو والعقوبة ، فافعل الأولى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر منه وحباه .

ولم يكن فى شجاعته مشهورا بل كان معتدلا متزنا يقدر للرجل قبل الخطو موضعها ، ولذلك كان يتخذ التقية درعا حصينا ، كما سنبين ذلك فى صلته بأمراء بنى أمية .

الزهد :

كان زاهدا فى عرض الدنيا ، طالبا لثواب الآخرة ، يغلب الخوف على الرجاء والعقاب على الثواب . وهنا نلاحظ فى زهده ثلاثة أمور (١) :

الأمر الأول : أنه كان يتهم نفسه ، فليس ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فتراه يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ، ويستهين بكل ما قدم من عمل . قال عبد الواحد ابن زيد : لو رأيت الحسن ، لقلت صب على هذا حزن الخلائق من طول تلك الدمعة وكثرة ذلك النشيج . وقيل له : صف لنا الحسن ، فقال : رحمه الله أبا سعيد كان والله إذا أقبل كأنما رجع من دفن حميمه ، وإذا أدبر كأن النار فوق رأسه ، وإذا جلس كأنه أسير قدم لضرب عنقه .

قيل له يوما كيف أصبحت يا أبا سعيد ؟ فقال : والله ما من انكسرت سفينته فى لجج البحر بأعظم منى مصيبة . قيل ولم ذاك ؟ قال : لأنى من ذنوبى على يقين ، ومن طاعتى وقبول عملى على وجل ، لا أدرى أقبلت منى أم ضرب بها وجهى ، فقيل له : أنت تقول ذلك يا أبا سعيد .. فقال ولم لا أقول ذلك . وما الذى يؤمننى من أن يكون الله سبحانه وتعالى قد نظر إلى وأنا على بعض هناتى نظرة مقتنى بها ، فأغلق عنى باب التوبة ، وحال بينى وبين المغفرة ، فأنا أعمل فى غير معتمل .

---

(١) ابن الجوزى .

وفى الحق إن النظرة الناقدة الفاحصة لعيوب النفس هى باب التهذيب وطريق التكميل ، فالنفس اللوامة هى المهذبة ، والنفس المحبذة هى المغترة ، وما كان الضمير المستيقظ إلا لائما ، متقصيا للسيئات التى وقعت ، مستصغرا للحسنات التى كانت، دافعا للمثل الأعلى ، ومسيراً المرء وراء الغاية السامية .

الأمر الثانى : لم يكن راغبا عن الحلال الطيب ، بل سائراً فى جادة الاعتدال ، يطلب لذات هذه الحياة كما يبتعد عن موبقاتها معتقدا أن لا رهبنة فى الإسلام ، وأن تحريم ما أحل الله ليس من كمال الإيمان . حضر مرة وليمة وحضرها رجل من المتقشفين فلما قدمت الحلواء رفع الرجل يده رياء وتصنعا ، فأكل الحسن وقال : كل يا لكع بيته ، فلنعمة الله عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته عليك فى الحلواء . وسمع رجلا يعيب الفالوذج فقال : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، ما عاب هذا مسلم .

وكان يحب الاستماع ، ويميل إلى الغناء . قال ابن عون أدركت ثلاثة يتشددون فى السماع ، وثلاثة يتساهلون فى الغناء ، فأما الذين يتساهلون ، فالحسن والشعبى والنخعى ، وأما الذين يتشددون فمحمد بن سيرين ، والقاسم ابن محمد ، ورجاء بن حيوة .

ومع أننا نحكم بأنه كان ينال من طيبات الحياة وحلالها نقول إنه يَعْدُ عن زخارفها ويرغب عن زينتها ، وكان إلى الزهاده أقرب . قال العلاء بن زياد سائلا له : رجلان تفرغ أحدهما للعبادة ، واشتغل الآخر بالسعى على عياله أيهما أفضل ؟ فقال الحسن ما اعتدل الرجلان ، الذى تفرغ للعبادة أفضل .

الأمر الثالث : كان يختلط بالناس ولا يعتزلهم ، فليس من العباد المنقطعين عن الجماعة ، ولكنه كان قواما بالليل ، وكان أحيانا يخلو ويعتكف . قال حميد خادمه : قال الشعبى يوما ، أريد أن تعلمنى إذا خلا الحسن يوما ، لأجتمع به خاليا ، فأعلمت بذلك الحسن ، فقال عرفه ، وليأت إذا شاء ، فخلا الحسن يوما ، فأعلمت الشعبى ، فبادر وأتينا منزل الحسن ، فوجدناه مستقبل القبلة وهو يقول : ابن آدم لم تكن فكونت ، وسألت فأعطيت ،

وسئلت فبخلت ، بئس والله ويحك ما صنعت . وسلمنا عليه ، ووقفنا ساعة فما التفت إلينا ، ولا شعر بنا ، فقال : الرجل والله فى غير ما نحن فيه ، فانصرفنا ولم نجتمع به .

التسامح :

لم يكن فى تدينه متعصبا تعصبا يدفعه إلى أن يكون كارها لكل انسان ما لم يأخذ بدين الإسلام ، بل فتح صدره لكل شخص مهما تكن نحلته ، واستوحى من حقيقة الإسلام الدعوة إلى المحبة والسلام ، لا إلى الحرب والخصام ، ولذا كان يحضر درسه النصارى وغيرهم لفتح صدره لهم . وكان هو يوادهم ، ويحاسنهم .

يحكى أن نصرانيا من المترددين على مجلسه لسماع أقواله مات ، فذهب الحسن إلى أخيه ليعزيه فقال له : أثابك الله على مصيبتك ثواب من أصيب بمثلها من أهل دينك ، وبارك لنا فى الموت ، وجعله غير غائب عنا ننتظره ، وعليك بالصبر فيما نزل بك من المصائب . وذلك تسامح لم يعرف إلا فى الصالحين الأقوياء الإيمان الذين يأخذون بلب الدين ومرماه ، ويتركون اللجاجة والخصام ، لنفور الشريعة السمحة عنها ، ولأن معاملة المخالفين بالمودة تحببهم فى الشريعة وأهلها ، ولقد قال تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

الفصاحة :

تفصح الحسن بوادى القرى ، ونال من اللغة العربية أشطرها ، بل إنى لا أغالى إذا قلت إنه نشأ نشأة عربية خالصة ، ولو أنه فارسى ، لذلك كان فصيحا ، بارع الحكمة ، قوى البيان ، رائع المعانى . يحكى فى بيانه صورة صادقة لهداية المؤمنين ، وعظة للمتقين ، فقد هذب بيانه ، وراض نفسه ، وقوى إيمانه ، حتى قال فيه الأعمش : مازال الحسن يعتنى بالحكمة حتى نطق بها . وسمعه آخر وهو يعظ فقال : لله دره إنه لفصيح إذا لفظ ، نصيح إذا

وعظ ، قيل للحجاج من أخطب الناس . قال : صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة . يعنى الحسن . وقال أبو عمرو بن العلاء : مارأيت أفصح من الحسن البصرى ، ومن الحجاج الثقفى . فقيل له فأيهما أفصح ، قال الحسن .

وقد كان ذا لفظ نقى سهل رقيق ، متخير عذب ، قد جملته معانى الزهادةوالورع والتقى.سمعته أم المؤمنين عائشةرضى الله تعالىعنها يتكلم فقالت : من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين ؟ .

قوة شخصيته :

يعد الحسن البصرى من أقوى رجال الفكر الإسلامى شخصية ، وأشدهم نفوذا ، وأبعدهم فى تاريخ الفكر مدى ، أجلته العامة ، ورفعته الخاصة ، وهابه الحكام ، واستحيا من سمته القساة الطغام ، نهل من ينبوع علمه أكثر زعماء الفرق فى عصره ، ودانوا له بالإجلال ، حتى كان واصل يضع مواعظه موضع التقدير ، مع ما نشب بينهما من خلاف . شتم الحجاج وهو القاسى الشديد القسوة ، ولما حضر بين يديه وخاطبه استحيا أن يعاقبه مهابة وإجلالا. وحدث عن نفوذه عن العامة ولاحرج ، فيروى أنه لما مات شيعت البصرة كلها جنازته .

ما السر فى هذا النفوذ :

لا شك عندى فى أن الحسن قد أتاه الله قوة روحية ، جعلته يستولى على نفس مخاطبه وقلبه ، فيقيدهما بما يريد ، ويدفع بهما إلى ما يرى ، وينبغى من سداد،وتلك خاصة قد وهبها الله لذوى النفوس السامية التى تقود ولاتقاد.

هذا وقد ظهرت فى الحسن مزايا أخرى أحلته من الناس فى مكانة التجلة والإجلال . كان ذا سمت حسن ، وكان ذا إرادة قوية وخلق متين ، والناس لايرتفعون بعلم غزيرفقط ، بل بذلك وبخلق متين . قيل لعبد الواحد صاحب الحسن بأى شىء بلغ الحسن فيكم إلى ما بلغ ، وكان فيكم علماء وفقهاء . فقال إن شئت عرفتك بواحدة أو باثنتين . فقلت عرفنى بالاثنتين.

فقال كان إذا أمر بشيء أعمل الناس له، وإذا نهى عن شيء أترك الناس له. قلت فما الواحدة؟ قال: لم أر أحداً قط سريرته أشبه بعلانيته منه، وكل هذا ولا شك من مظاهر قوة الإرادة وقوة الخلق، وقوة الإيمان، ومن الناس من يرى الآراء الحسنة، ولكنه يتجافى عمله عن رأيه، وليس ذلك إلا لضعف إرادته وضعف إيمانه، وعدم تماسك أخلاقه وانحلال نفسه.

وليس من شك فى أن للشكل الجثمانى دخلا فى الاحترام إذا أضيف إليه الخلق وقوة الروح، وقد كان الحسن ممن آتاه الله بسطة فى العلم والجسم، وقد قالوا إنه كان من أجمل أهل البصرة، تام الخلق، حتى قالوا إن عرض زنده كان شبرا، ثم كان أن سقط عن دابته، فحدث بأنفه ما شوهه.

وكان يحترم نفسه، ويتعفف عن الذهاب إلى الحكام، والانتماء إليهم لا يتملقهم ولا يندفع إلى مجالسهم. ورد أعرابى البصرة، فقال من سيد هذا المصر؟ قالوا: الحسن بن أبى الحسن، قال فبماذا ساد أهله؟ قالوا: استغنى عما فى أيديهم من دنياهم، واحتاجوا إلى ما عنده من أمر دينهم، فقال الأعرابى: لله دره هكذا فليكن السيد حقا.

وكان يجمل تلك السجايا علم عزيز، فتضافرت هذه الأسباب، وكونت لها مهابة عالية عظيمة، كان بها ذا شخصية قوية نفاذة إلى القلوب.

علمه:

كان عالما فقيها محدثا متكلما، وقد جمع الله له ميزتين عظيمتين، فقد أخذ من علم السلف، ونال من الأفكار العقلية الفلسفية خير ما فيها، كانت نزعته الدينية تدفعه إلى تأثر السلف الصالح، والاقتباس من نورهم، فكان إذا ذكرت الصحابة يقول: قدس الله أرواحهم، شهدوا وغبنا، وعلموا وجهلنا. فما أجمعوا عليه اتبعناه، وما اختلفوا فيه رفعناه. وقد كان مقامه فى أرض العراق، واتصاله بالفرق الإسلامية، واطلاعه على بعض الآراء والمنازع التى كانت فيها، وهى أثارة من علم الأولين من الأمم التى سكنتها، سببا فى أن نال أشطراً من المنازع العقلية، وإنك لتلمح ذلك واضحا فى

آرائه فى العقيدة ، وآرائه فى الدين ، وآرائه فى السياسة ، ألا تراه يوافق الخوارج فى تخطئة على فى التحكيم ، ولكن لايكفره ، وانظر إليه وهو يقول : لم يزل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه مظفرا مؤيدا بالنعم ، حتى حكم ، ولم تحكم والحق معك ؟ ألا تمضى قدما لا أبالك ؟

وفى الحق إنا نلاحظ فوق ما سبق أنه لم يكن متخصصا فى مادة لا يجيد سواها ، بل كان ملما بأكثر المنازع التى اشتهرت فى عصره ، يختار منها أجودها وأحكمها . ولا نصف علمه وفكره وقوة مواهبه بخير مما وصفه به قرة الحرانى الحكيم فيما نسبه إليه أبو حيان التوحيدى ، إذ قال :

كان الحسن بن أبى الحسن البصرى من درارى النجوم علما وتقوى وزهدا وورعا وعفة ورقة وتألها ، وفقها ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانيا ، ولا قريبا مدانيا ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته ، عاش تسعين سنة ، لم يقرف بمقالة شنعاء ، ولم يزن بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقى الأديم ، محروس الحريم ، يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم باقتناعه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يتبعه فى كلامه ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة . وهو فى جميع هذا كالبحر العجاج تدفقا ، وكالسراج الوهاج تألقا ، ولا تنس مواقفه ، ومشاهده فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان بن فلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنيه لائمة فى الله ، ولاتذهله رائمة عن الله ، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ، ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ؟ ومن ذا يجرى مجراه .

آراؤه فى أصول الدين :

لم نر للحسن كتبا قد دونت فيها آراء ، ومذاهب ، ولكن وجدنا آراء منقولة بالرواية ، وهو يشبه سقراط فى أنه ربى رجالا ، ولم ينشىء كتبا ، ولذا كان من العسير الحصول على آرائه فى كل ما تصدى له ، وبيان وجهة نظره فيما ارتآه . وإنا لنعثر على آرائه فى بطون الكتب مبتسرة ، ونلمس من المأثور من كلامه ما نراه دافعا دفعة إلى تلك الآراء ، وها هى ذى آراءه فى أصول العقيدة :

رأيه فى الايمان :

يرى الحسن أن الإيمان الجدير باسم الإيمان هو ما يدفع إلى العمل به ، فالإيمان فى نظره يستلزم العمل حتما ، وذلك الرأى يشبه رأى سقراط فى المعرفة ، فهو يرى أن الفضيلة المعرفة ، لأن معرفة الخير تستلزم فى نظره عمله .

ومن السهل أن ترى من كلام الحسن ما تستدل به على أخذه بذلك الرأى وهذا المنزع ، قال فى بعض مواعظه : الرجل الذى يحب الله يحب التعب ، ويؤثر النصب ، هيهات لا ينال الجنة من يؤثر الراحة ، من أحب ما عند الله سخا بنفسه إن صدق ، وترك الأمانى ، فانها سلاح النوكى . قيل له كيف ترى يا أبا سعيد فى الرجل يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب . قال : ما أعرف هذا من أخلاق المؤمنين . وكان يقول : إن الرجل إذا طلب القرآن والعلم لله ، لم يلبث أن يرى ذلك فى خشوعه وزهده وحلمه وتواضعه .

وانظر إلى تلك الموعظة التى رويت له ، فإنك ترى فيها هذا الرأى واضحا ، ثم يدلل على رأيه ويقول : ابن آدم إنك ان تجمع إيمانا وخيانة ، كيف تكون مؤمنا ، ولا يأمنك جارك ، أو تكون مسلما ، ولا يسلم الناس منك ، أليس قد روى عن النبى ﷺ أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له : وكان ﷺ يقول : ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه.

رأيه فى مرتكب الكبيرة :

وقد بنى على رأيه فى حقيقة الإيمان رأيه فى مرتكب الكبيرة ، فهو يرى أن مرتكب الكبيرة منافق ، لأنه لو كان مؤمنا ما ارتكبها ، و ما يعلنه من الإيمان لم ينل صميم القلب ، وانظر إليه وهو يقول : الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف ، وقومه ذكر العرض ، وأما الكافر فقد قمعه السيف وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية ، وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففى الحجرات ، والطرقات ، يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة ، ويلك قتلت وليه ثم تتمنى عليه جنته .

رأيه فى أفعال الانسان :

يظهر من مجموع المأثور عن الحسن أنه يرى أن أفعال الشر إنما هى من العبد لا من الله ، وأن العبد يخلق الشر بقدرة أودعها الله إياه ، ولكن الشهرستانى ينكر أن يكون ذلك رأى الحسن ، فقد جاء فى الملل والنحل : رأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصرى ، كتبها إلى عبد الملك بن مروان ، وقد ساله عن القول فى القدر والجبر فأجابه بما يوافق مذهب القدرية ، واستدل فيها بآيات من الكتاب ، ودلائل من العقل . ثم قال : ولعلها لواصل ابن عطاء ، فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله تعالى

وعندى أن ذلك لايصلح إبطالا لما نسب إلى الحسن من رأيه فى أفعال الإنسان ، لأن عقيدة السلف فى القدر تضاربت أقوال العلماء بشأنها ، فالمعتزلة يعدونها مناصرة لهم ، والأشاعرة يعدونها موافقة لطريقهم ، وعلى فرض أن عقيدة السلف كمذهب الأشاعرة ، فلا نستطيع أن نقول : إنها كانت محل إجماع لم يخالفها مخالف منهم ، وقد روى عن على رضى الله عنه ومقامه فى الدين مقامه ما يخالف طريقة الأشاعرة ، فلا مانع إذن من أن يكون الحسن قد اعتنق هذا الرأى ، مع أنه يتأثر طريقة السلف .

وإذا كان لدينا من المأثور عنه أقوال صريحة فى اعتناقه هذا المذهب وجب أن نجزم بدلالتها على اعتناقه ، وقد روى عن الحسن كلام كثير يدله على ذلك ، منها الرسالة التى أشار إليها الشهرستانى ، ولا يقبل طعنه فى صدق نسبتها إليه ، كما لا تقبل نسبتها إلى واصل ، لأن عبد الملك قد مات ، وسن واصل حوالى ست سنوات ، وتلك سن لا تكون فيها آراء بداهة ، وعلى فرض أن واصلا كان فى عصر عبد الملك فى سن تكونت فيها آراؤه ، فاحتمال نسبتها إليه احتمال غير ناشىء عن دليل ، وليس له سند تاريخى يعتمد عليه . وإذا كان لدينا كلام كثير للحسن ينحو منحى هذه الرسالة بطل كل احتمال ، وفسد كل استدلال .

قال داود بن أبى هند : سمعت الحسن يقول كل شىء بقضاء الله وقدره ، إلا المعاصى . وكتب إليه الحجاج يقول : بلغنا عنك فى القدر شىء ، فاكتب إلينا بقولك ، فكتب إليه ، وكان فى رسالته إن أهل الجهل قالوا : إن الله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها ، لتبين لهم أن الله لايضل إلا بتقدم الفسق والكفر ، لقوله تعالى : « ويضل الله الظالمين » أى يحكم بضلالهم ، وقال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، وما يضل به إلا الفاسقين » .

ومنها : واعلم أيها الأمير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يعولون فى أمر دينهم بزعمهم على القضاء والقدر ، ثم لايرضون فى أمر دنياهم إلا بالاجتهاد والبحث والطلب ، والأخذ بالحزم فيه ، ولا يعولون فى أكثر دنياهم على القضاء والقدر .

قال أبو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه . من هذا كله يبدو لنا أن الحسن كان رأيه فى إرادة الإنسان كرأى المعتزلة .

رأيه فى بنى أمية :

بينا لك أن الحسن قد اعتزل السياسة عمليا ، ولكن لم يعتزلها فكريا

بل كون له رأيا فى كل الأحداث التى نزلت بالأمة الإسلامية وقد علمت أنه كان من الموالين لعلى رضى الله عنه ، ولم يخطئه إلا فى التحكيم .

وانظر إلى وصفه له كرم الله وجهه ، فقد جاء فى نوادر أبى على القالى :
عن هشام بن حسان قلت للحسن البصرى : يزعم الناس أنك تبغض عليا .
قال : أنا أبغض عليا .. كان سهما صائبا من مرامى الله عز وجل ، ربانى هذه الأمة وذا فضلها وشرفها ، وذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ ، وزوج فاطمة الزهراء ، وأبا الحسن والحسين ، لم يكن بالسروقة لمال الله ، ولا بالنئومة فى أمر الله ، ولا بالملولة لحق الله ، أعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما له فيه وما عليه حتى قبضه الله إليه ، ففاز برياض مونقة ، وأعلام مشرقة : أتدرى من ذاك؟ذاك على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وعندما بلغه مقتل الحسين بن على رضى الله عنهما بكى وانتحب وتأوه وقال : واحسرتاه ، ماذا لقيت هذه الأمة ، قتل ابن دعيها ابن نبيها ، اللهم كن له بالمرصاد ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

لذلك نقرر فى يقين أن الحسن لم يكن من أنصار بنى أمية ، ولكنه لم يدع الناس إلى الخروج عليهم ومنابذتهم ، وإذا سئل فى درسه عن الخروج على الحكام الظالمين حرم ذلك ولم يبحه ، وقد كان يأخذ بالموعظة الحسنة فى هدايتهم ، وينقم عليهم مظالمهم .

ولعل سائلا يسأل لماذا سكت عن هذه المظالم ، ولم يدع الناس إلى الوقوف فى وجه الظالمين ، والضرب على أيديهم سالكا فى ذلك سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والجواب على ذلك :

١ — أنه لاحظ أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى فى الأمور واضطراب الأمن وفساد الأحوال ، وفوضى ساعة يرتكب فيها من المظالم مالا يرتكب فى استبداد سنين ، إذ الطبائع الفاسدة تظهر ، والجبلات المنحرفة تتبين ، فيشيع الشر . ويكثر الفساد ، وقد سأله رجل قائلا ما تقول فى

أئمتنا هؤلاء ، فسكت مليا . ثم قال : وما عسى أن أقول فيهم ، وهم يلون من أمورنا خمسا : الجمعة ، والجماعة ، والفيء ، والثغور ، والحدود ، والله لا يستقيم الدين إلا بهم ، وإن جاروا ، وإن ظلموا ، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون . والإصلاح بهم دفع خطر الفوضى ومظالمها .

وكان يقول : هؤلاء (يعنى الملوك) وإن رقصت بهم الهماليج ، ووطىء الناس أعقابهم ، فان ذل المعصية فى قلوبهم ، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم ، ومنعنا من الخروج عليهم ، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم .

٢ — ورأى أن كثرة الخروج على الولاة يحل الدولة الإسلامية ، ويجعل بأس المسلمين شديدا فيما بينهم ، فيكلب فيهم عدوهم ، ويحرب عليهم خصومهم ويستعدى عليهم موتورهم .

٣ — ذلك إلى أنه رأى الدماء تهرق فى الخروج بدون حق يقام ، ومظلمة تدفع ، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم .

٤ — ووجــد أن الطريق المعبد لإصلاح هذا الأمر إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم ، رأى أن الفساد عم الاثنين ، وتغلغل فى الفريقين ، فاعتقد أن الحكام لون من ألوان الشعب ، ومظهر حاله ، فلن يتغيروا ما لم يتغير هو ، والملازمة بينهما ثابتة ، فإذا اتجه الشعب إلى إصلاح حاله ، وصار فى الطريق تبعه حتما صلاح الحكام . سمع رجلا يدعو على الحجاج فقال : لاتفعل رحمك الله . إنكم من أنفسكم أوتيتم . إننا نخاف إن عزل الحجاج ، أومات أن تليكم القردة والخنازير ، فقد روى أن النبى ﷺ قال : عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونون يولى عليكم . ولقد بلغنى أن رجلا كتب إلى بعض الصالحين يشكو إليه جور العمال ، فكتب إليه يا أخى ، وصلنى كتابك تذكر ما أنتم فيه من جور العمال ، وأنه ليس ينبغى لمن عمل بالمعصية أن ينكر العقوبة ، وما أظن الذى أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب . والسلام .

ورأيه هذا الذى ارتآه من أن صلاح الشعب يتبعه صلاح الحاكم ، وأن الثورة ليست هى الطريق لإصلاح نظام الدولة هو رأى جوستاف لوبون فى

إصلاح نظام الحكومات ، واقرأ كتاب الثورة الفرنسية ترى ذلك الرأى واضحاً بأدلته .

من كل هذا ترى أن الحسن كان ينكر مظالم بنى أمية ، وينكر الخروج عليهم ، ويرى أن حكمهم ليس هو الحكم العدل القائم على أساس من الهداية ، وقد كان يعتقد أن الحكم المنتظم حقا ما قام على أساس الشورى ، وكان ينقم من بنى أمية عامة ، ومعاوية خاصة أن جعل الحكم وراثيا بعد أن كان شوريا .

كان يرى أن أمرين أفسدا الناس سياسيا فى عصره . أحدهما : ما فعله عمرو بن العاص من رفعه المصاحف ، والأمر الثانى إشارة المغيرة بن شعبة على معاوية بالعهد لابنه يزيد . وقال فى هذا : من أجل هذا بايع هؤلاء لأبنائهم ، وصارت الخلافة تتوارث ، ولولا ذلك لكانت شورى ، لايليها إلا من اتفق على فضله واستحقاقه الإمامة إلى يوم القيامة . وجاء فى المنية والأمل أنه قال : أربع خصال فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة : خروجه على هذه الأمة بالسفهاء ، حتى ابتزها بغير مشورة منهم ، واستخلافه يزيد ، وهو سكير خمير يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال النبى ﷺ : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجر بن عدى ، فياله من حجر وأصحاب حجر .

وللحسن وصف للحاكم العادل ، ذكره فى كتاب أرسله إلى عمر بن عبد العزيز إذ طلب منه ذلك الوصف ، وهاهو ذا الكتاب :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله قد جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم

الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ، ووضعته كرها ؛ وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله، ويسمعهم ، وينظر إلى الله ، ويريهم ، وينقاد إلى الله ، ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم . واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا فتزود له بما يصحبك : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه» . واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر مافى القبور ، وحصل مافى الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين ، وإنك فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل . لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم ، وإنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى

ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى عليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

اتخاذ الحسن التقية :

يظهر أن الحسن مع ما أبداه كان يخفى آراء أخرى ويمتنع عن إعلانها خشية أن تقع عليه المظالم ، ويشتد به استبداد الأمويين . يروى أنه كان إذا حكى عن على شيئا فى ملأ من الناس ، قال عنه أبو زينب .

قال إبان بن عياش قلت يا أبا سعيد . وما هذا الذى يقال عنك إنك قلته فى شأن على ؟ فقال : يا ابن أخى أحقن دمى من هؤلاء الجبابرة ، لولا ذلك لسالت بى أعشب .

ولاشك أن هذا أخذ بمبدأ التقية وهو أن يخفى الإنسان ما يعتقده خشية أن يقع عليه ظلم ، بل يظهر غيره من غير أن يكون فى ذلك ضرر على جمهرة المسلمين ، وقد بنى ذلك على بعض آيات وردت فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم »، فقد أبيح النطق بالكفر مع إضمار الإيمان ، ومثل قوله تعالى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة » . فأبيح فى هذه الآية موالاة الكافرين عند الخوف منهم تقية من غير ضرر دينى يلحق المسلمين .

ولكن أخذ الحسن بمبدأ التقية هذا لم يكن كثيراً ، بل كان قليلا ، ولم نعلم أنه دفعه إلى مناهضة آرائه الدينية أصلا ، ولكن كان يدفعه إلى المواربة أحيانا فى آرائه السياسية .

اتصاله بالحكومة فى عهده :

تولى الحسن فى شبابه الكتابة للربيع بن زياد والى خراسان . وفى عهد الدولة الأموية طلبه عدى بن أرطأة ليوليه قضاء البصرة فرفض .

وقال ابن الجوزى : قيل لما ولى عدى بن أرطأة البصرة عزم على أن يولى الحسن القضاء ، فهرب الحسن ، واستتر ، وكتب إليه :

أما بعد ، أيها الأمير فإن الكاره للأمر غير جدير بقضاء الواجب فيه ، وإن العامل للعمل بغير نية حقيق ألا يعان عليه ، ولك فى المختاريز للأمر الذى دعوتنى إليه كفاية وقناعة ، وقصدك إياهم ، وتعويلك عليهم أولى بك وأصون لعملك ، فانه لا خير فى الاستعانة بمن لايرى أن العمل الذى يدعى إليه واجب عليه ، وفرض لازم له ، فعافنى أيها الأمير عافاك الله ، وأحسن إلى بترك التعرض لى ، فان الله لايضيع أجر من أحسن عملا .. فعافاه وأكرمه ، وقال : والله ماكنت لأبتليه بما يكرهه .

ويظهر أن الذى حمله على الرفض خشيته أن يعين بتوليه الظالمين . ولذا تولاه عندما طلبه عمر بن عبد العزيز ، وقال فيه عمر حينئذ . لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين .

وكان مع بعده عن الظالمين من ولاة بنى أمية ، كان إذا استشير أخلص فى الشورى ، ومحضهم النصيحة جريئة قوية . قال ابن الجوزى :

لما قدم عمر بن هبيرة والياً على العراق أحضر الحسن والشعبى ، فقال لهما : أصلحكما الله إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلى كتبا أعرف فى تنفيذها الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن سطوته ، فما تريان لى ؟ فقال الحسن للشعبى يا أبا عمرو ، أجب الأمير ، فرفق له فى القول ، وانحط فى هوى ابن هبيرة ، وكان ابن هبيرة لايستشفى دون أن يسمع قول الحسن ، فقال قل يا أبا سعيد فقال : أوليس قد قال الشعبى : فقال ابن هبيرة فما تقول أنت؟ فقال : أقول والله إنه يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ ، لايعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فلا يغنى عنك ابن عبد الملك شيئا ، وإنى لأرجو أن الله عز وجل يعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فانك لاتؤمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد نظرة يمقتك بها ، فيغلق عنك باب الرحمة .

واعلم أنى أخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول : « ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » . وإذا كنت مع الله عز وجل فى طاعته كفاك بوائق يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله ، وكلك الله إلى يزيد حين لا يغنى عنك شـــيئا .

دروسه :

كانت دروس الحسن التى يلقيها فى المسجد تحوى أنواعا كثيرة من المعلومات المتفرقة ، ففيها الحكمة والموعظة الحسنة ، والبحوث الكلامية التى فى مهدها نشأت المعتزلة ، وفيها الحديث ورواياته ، وفيها الفتيا والأحكام وفيها التفسير والقصص . وقد ورد منهله العذب كل الطوائف ، بل كل النحل ونهل منه الخاصة ، واستفاد منه العامة ، وفى حلقات دروسه ظهرت الفرق الكلامية : المعتزلة ، والحشوية ، وغيرهم ، فدل هذا على أن الناس على تباين مشاربهم وتعدد مذاهبهم كانوا يحضرون دروسه ، ويشتارون من حلاوة بيانه ، مدفوعين إلى ذلك بدافع من الدين ، أو بجاذبية اختص بهـــا ذلك الحكيم ، ويظهر أن أكثر أهل عصره تأثروا به ، ونالوا من علمه قليلا أو كثيراً على حسب اتصالهم به وقربهم منه أو بعدهم عنه ، وعلى حسن استعداداتهم وقواهم ، ويظهر أنه ما كان يخص بمواعظه مكانا دون مكان ، بل كان يلقيها حيثما لاحت له بارقة من حسن الأثر ، ينتهز الفرص إذا سنحت ، وكثيراً ما كان يعظ فى الجنائز ، حتى شاع أنه كان يسأل رفقاءه وغيرهم عند الدفن هذا السؤال ، ماذا أعددتم لهذه الفجوة ، أو نحو ذلك .

قصصه :

انتشر القصص فى المساجد فى عهد عثمان رضى الله عنه ، ومن جاء بعده من الخلفاء ، وقد قسمه الليث بن سعد إلى قسمين : قصص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه (١) لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص

---

(١) لعل هذا النوع من القصص كان فيه الكثير من الكذب ولذا كرهه .

الخاصة فهو الذى جعله معاوية ، ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى ﷺ ودعا للخليفة ، ولأهل ولايته وحشمه وجنده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة (١) .

وقد اختلط فى هذا القصص الصدق بالكذب ، ولذا اتهم الأكثرون من القصاص بالكذب ، وكان من القصاص الحسن ، ولكن قصصه امتاز بأنه كان يعتمد على التذكير بالآخرة ، ولا يحكى إلا الصدق . كان يجلس فى آخر المسجد بالبصرة ، وحوله الناس يسألونه فى الفقه وفى الفتن التى حدثت فى عهده ، فيجيبهم ، ويعظهم ، ويحدثهم بالمأثور ، ويقص عليهم .

ولأنه يتحرى الصدق فى قصصه أبقاه على رضى الله عنه عندما أخرج كل القصاص من المساجد .

ولما أنحى الغزالى باللائمة على القصاص ، لاقترافهم الكذب استثنى الحسن من بينهم .

ومما أثر عن قصص الحسن قوله :

روى أن عيسى عليه السلام قال للحواريين اعملوا لله ، ولاتعملوا لبطونكم ، فإن الطير لاتزرع ، ولاتحصد ، تغدو ولا رزق لها ، الله يرزقها ، فإن قلتم إن بطونكم أكبر من بطونها ، فهذه الوحوش من الدواب لاتزرع ولا تحصد ، تغدو ولا رزق لها ، الله يرزقها .

وكان يروى أن عائشة رضى الله عنها رأت رجلا متماوتا ، فقالت ما بال هذا ؟ فقال : إنه صالح ، فقالت:لا أبعد الله غيره ، كان عمر رضى الله عنه أصلح منه ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، دعوا التصنع ، فإن الله لايقبل من متصنع عملا .

---

(١) من كتاب فجر الإسلام نقله عن المقريزى .

جاء فى البيان والتبيين للجاحظ أن الحسن قال :

قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة ، وأمير المصرين ، وأشب الناس ، فلما صرنا به إلى الجبانة ، فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبا لهم ، فصلوا عليه ، ثم حملنا بشرا إلى قبره ، وحملوا صاحبهم إلى قبره ، ودفنا بشرا ودفنوا صاحبهم ، ثم انصرفوا وانصرفنا ، ثم التفت التفاتة ، فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشى فلم أر شيئا قط كان أعجب منه .

الخاتمــة :

قضى الحسن تلك الحياة الطويلة الزاخرة بجلائل الأعمال ، فى نفع وإرشاد ، وكان بحق مثلا كاملا للرجل الذى ساد الناس بمواهبه وأخلاقه . ولد عبدا ، ومات سيدا ، ولد مغمورا ، ومات مشهورا . أدرك فتناً كقطع الليل ، وكان فيها يلوح كما يلوح النجم الثاقب فى الدجنة الحالكة ، وما كان ذلك إلا بمواهبه ، وخلقه المتين ، وعقله الجبار ، وإيمانه بالواحد القهار ، هابه الحكام ، وأحبته الخاصة ، وتيمنت به العامة . ولقد كان ذا أثر فى تفكير كل من اتصل به من الرجال الذين أودعهم نفسه ، ونحل له مخزون فكره ، ودان له بالإجلال الموافقون له فى الرأى والمعارضون ، وما ذلك إلا لأنه فتح قلبه للناس ، وكانت سريرته كعلانيته ، فرضى الله عنه وأرضاه .

واصل بن عطاء

من سنة ٨٠ - ١٣١ هـ

لابد لنا قبل التعرض لصفاته وما امتاز به من مواهب وسجايا وآراء أن نشرح :

أولا : عنصره والدم الذى يسرى فى عروقه ، فان للعنصر والجنس الأثر الأكبر فى تكوين مواهب أصحاب المواهب وتوجيه أفكارهم .

ثانيا : البيئة التى أظلته والعصر الذى أحاط به ، وما اشتمل عليه من أحوال سياسية واجتماعية وفكرية ، فإن هذه الأجواء المختلفة تظهر المواهب ، وتوجهها ، وتوحى إليها بالآراء التى توائمها .

عنصره :

واصل من أصل فارسى ، وكان مولى لبنى ضبة وقيل لبنى مخزوم ، والموالى فى ذلك العصر كانوا قواد الحركات العلمية ، وأصحاب البدىء من الأفكار ، والجديد من النزعات ، كما بينا ، فى كل ناحية من النواحى العلمية نرى أثرهم واضحا ، وفعلهم ناجحا ، وفكرهم راجحا ، وحيثما رأيت نحلة فى الإسلام جديدة ، أو مذهبا فيه حديثا ، فاعلم أن نابتته نبتت فى رءوسهم ، عنهم صدر ، وإليهم يعود .

جاء فى العقد الفريد : قال لى ابن أبى ليلى قال لى عيسى بن موسى ، وكان ديانا شديد العصبية ، من كان فقيه العراق ؟ قلت الحسن بن أبى الحسن قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين ، قال فما هما ؟ قلت موليان . قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبى رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موال . قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح . قال فمن هؤلاء ، قلت موال ، فتغير لونه ثم قال فمن أفقه أهل قباء ، قلت ربيعة الرأى وابن أبى الزناد . قال فما كانا ؟ قلت من الموالى .

فاربد وجهه ، ثم قال ، فمن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس ، وابنه ، وابن منبه ، قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانتفخت أوداجه ، وانتصب قاعدا . قال فمن كان فقيه خراسان؟قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى. قال فما كان عطاء هذا ؟ قلت مولى . فازداد وجهه تربدا ، واسود اسوداداً ، حتى خفته ، ثم قال فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول . فقال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى . فتنفس الصعداء ، ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة ، وعمار بن أبى سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت إبراهيم النخعى والشعبى . قال فما كانا ؟ قلت عربيان ، فقال الله أكبر ، وسكن جأشه .

ولما كانت العلوم فى الموالى والنحل من بينهم تنبت ، وعن آرائهم تصدر ، لعل السبب فى ذلك يرجع إلى الأمور الآتية :-

أن العرب فى عصر الدولة الأموية كانت لهم السيادة والسلطان ، وكان عليهم الحرب والنزال ، فشغلهم كل ذلك عن العكوف على الدرس والاستقصاء والبحث والتعمق ، والموالى رأوا بين أيديهم فراغا ، فأزجوه بالمدارسة والتنقيب والاطلاع والتمحيص ، ووجدوا أنهم فقدوا السلطان ، فأرادوا أن يسدوا تلك الخلة ، وينالوا الشرف عن طريق آخر وهو المعرفة والعلم ، والنقص قد يؤدى إلى الكمال ، والحرمان قد يدفع الإنسان إلى كبرى الغايات ، وجلائل الأعمال ، وذلك ما كان بالنسبة لهؤلاء الموالى ، فقد سيطروا على الفكر العربى الإسلامى ، وان كان للعرب الغلب المادى .

أن العرب لم يكونوا أهل صناعات ، والعلم إذا تفرغ له الإنسان صار كأنه صناعة له . قال ابن خلدون من كلام طويل فى هذا المقام : ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من معناهم من الموالى وأهل الحواضر .

أن الصحابة استكثروا من الموالى ، وكان هؤلاء تبعا ، وملازمين يصاحبونهم فى غدوهم ورواحهم ، فيأخذون عنهم ما عرفوا من رسول الله ﷺ ، حتى إذا انتهى عصر الصحابة ، كان أولئك حملة العلم للعصر الذى يليه ، ولذلك كان أكثر التابعين منهم .

ومما يروى فى هذا أن عكرمة مولى ابن عباس ، كان على الرق يوم مات ابن عباس فباعه ولده على من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه عليا ، فقال له ما خير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف ، فاستقاله ، فأقاله ، فأعتقه .

أن أولئك الموالى ينتسبون إلى أمم عريقة ، ذات أفكار قديمة وآراء دينية ، فكان لهذه تأثير فى تكوين أفكارهم ، وتوجيه أذهانهم بل معتقداتهم . وانظر إلى قول جوستاف لوبون فى كتابه الآراء والمعتقدات : دلت التجربة والاختبار على أن للأمم ذات الماضى الطويل آراء ومعتقدات واحدة فى بعض الموضوعات الأساسية . ليست روح الشعب عبارة عن تصوير نظرى ، بل هى حقيقة ذات حياة تكونت من تقاليد وأفكار وأساطير وخيالات متكاثفة فى النفس تكاثفا إرثيا . ومعنى ذلك أن كل شخص ينتمى إلى أمة ذات ماض طويل فى حضارة ، وثقافة لابد أن يكون فى نفسه ميراث فكرى من جنس حضارة هذه الأمة ، هذا الميراث يكون استعدادا كامنا تنميه ، أو تخفيه بيئته الاجتماعية أو الفكرية ، لذلك لا يأخذنا العجب ، إذا رأينا كثيراً من هذه الآراء ، وتلك النحل التى ظهرت فى العصر الأموى ، ونمت فى العصر العباسى ، لها نظير فى النحل الفارسية القديمة والمذاهب المسيحية أو اليهودية ولكنها تفترق عنها بأن تلك هذبها الإسلام ، إن كان أصحابها ممن أشربت قلوبهم حبه .

إذا علمت ما امتاز به الموالى فى الإسلام ، وأن واصلا كان منهم ، فلا تعجب إذا كان بعد ذلك رئيس فرقة تكلمت فى أصول الاعتقاد ، وخالفت فى طرائق تفكيرها ، وفى بعض ما أنتجه فكرها المألوف عند

الفقهاء والمحدثين الذين تتبعوا المنصوص عليه فى الكتاب والسنة لا يعدونه إلى ماوراء ذلك .

بيئته :

إن المفكر ذا الأثر فى أفكار أهل عصره لا تكون آراؤه بديئة لم تكن لها مقدمات سابقة ، ولا عش فرخت فيه ، حتى ظهرت تلوح لكل من يطاب ، علماً بل هى نتيجة لمقدمات سبقت ، وثمرات لأشجار غرست ، ووسط مناح فكرية تشعبت ، فالمفكر العظيم نتيجة سبقتها مقدمة ، ومقدمة تتلوها نتيجة ، هو ثمرة جيل ، وغارس الأصول لجيل .

والبيئات التى يتغذى منها المفكر ، هى الأحوال السياسية فى عصره ، والأحوال الاجتماعية ، والأحوال الفكرية .

أما الأحوال السياسية فى العصر الأموى فهى كما تعلم ، دولة مستبدة لا تعتمد على قوة من الحق ، تريد أن تفرض حكمها فرضا على الناس ، وتتخذ لذلك وسائل الإغراء تارة والتحذير أخرى ، تستدنى القلوب بالمال أحيانا ، وتبرق بالسيوف أحيانا كثيرة ، وقد شق عصا طاعتها كثيرون ، بعضهم امتشق الحسام ، وبعضهم سكن ، وفى نفسه لوعة ، وفى قلبه حسرة ونفرة . كثر خروج الخوارج على الدولة ، وشغلوها بغاراتهم ، وأحيانا كانت تكون كفتهم قريبة من الرجحان ، والشيعة قد استقرت فى العراق وفارس وخراسان إن لاحت بارقة نجاح ظهروا ، وإن رأوا مدلهمات الخطوب سكنوا ، ولم يكن ذلك التناحر السياسى خاليا من النزعات الفكرية بل إنها سادته ، وسيطرت عليه ، فالخوارج كانوا يفكرون فى كل شىء ، فى حكم مرتكب الكبيرة ، ثم فى حال الخلفاء الراشدين ، وغير ذلك من المسائل التى يتعلق بعضها بالإمامة وبعضها بأصول الاعتقاد ، والشيعة فكروا فيمن يستأهل الإمامة ، وانشعبوا فى ذلك إلى فرق كثيرة على ما تعلم ، ولم يقتصروا على ذلك ، بل اتجهوا إلى العقائد ، ففكروا فيها ، بل إلى الفروع ، فكانت لهم آراء خاصة بهم ومذاهب فقهية امتازوا بها ، فالأحوال السياسية تبعها أحوال فكرية متشعبة .

الأحوال الاجتماعية :

حسبك أن تعلم أن واصلا قضى أكثر حياته فى العراق ، والعراق كان موطنا لطوائف مختلفة الأجناس ، فمنهم عرب ، وأغلبهم مضريون ، ومنهم النبط ، ومنهم فرس ، ومنهم آراميون ، ولكل طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد تستمدها من مدنيتها الأولى وجنسيتها القديمة ، وحد الإسلام دينهم ، ولكنه لم يجمع أهواءهم ، ولم يوحد أجناسهم ، ولذلك بدت فى العراق أهواء مختلفة ، وإحساسات متناقضة ، نجم من هذه العناصر مخلوط غير تام المزاج ، يتوحد فى ظاهره ، ويختلف فى باطنه ، ولذلك سادته الفتن ، وخطبة زياد البتراء ، وخطب الحجاج المختلفة أصدق مصور لأحوال العراق الاجتماعية فى ذلك العصر ، ولكن كان بجوار أهل الشقاق والفتن فى العراق زهاد كثيرون من أمثال الحسن البصرى والشعبى وغيرهما من كبار رجال الدين الممتازين .

الأحوال الفكرية :

امتازت الحالة الفكرية فى العصر الأموى بظاهرتين إحداهما دينية ، والأخرى علمية ، فأما الدينية فهى أن الأحكام الدينية ابتدأت توضع لها قواعد جامعة ، وكان فى كل جهة إمام فى الدين له مدرسته ، فأبو حنيفة فى العراق ، ومالك فى الحجاز ، والليث فى مصر .

وأما العلمية الفلسفية فهى أن الترجمة ابتدأت تظهر ، وحركة النقل من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية أخذت تنتشر ، وأولئك الأجانب الذين تفصحوا فى العربية أخذوا يدونون بها ما قرءوه فى لغاتهم ، وكان بعضهم قد مهر فى الفلسفة والعلوم قبل إسلامه ، فهذا عبد الملك بن أبجر الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز أيام كان واليا على مصر كان فى أول أمره مدرسا فى الإسكندرية ومن علماء مدرستها وأمثاله كثيرون ، وعنهم أخذت الأفكار الإسلامية تنهل من علم الفرس واليونان ، والعراق الذى تربى فيها واصل ونشأ ، كان السريان منتشرين فيه قبل الفتح ، ولهم مدارس يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكانت فى العراق مذاهب نصرانية يتجادل أصحابها فى

كثير من العقائد ، فكان لابد أن تتخلف من هذا بجمعية آراء وأفكار خمدت في أثناء الحروب ، ثم استيقظت بعد أن قرت سياسة البلاد ، ولما دخل كثير من أهل العراق في الإسلام أخذت هذه الآراء تصطبغ بالصبغة الإسلامية ، ويزهر منها ما يتفق مع الإسلام ، ويذبل منها ما يخالفه (١) .

إذا كان ذلك كذلك فلا تعجب إذا رأيت أكثر الفرق الإسلامية قد نبتت في العراق ، خصوصا الفرق التي تجانفت عن بعض الأصول الإسلامية ، والفرق التي نزعت منزعا فلسفيا في إثبات العقائد كالمعتزلة ، ولاعجب إذا كان شيخهم واصلا ممن تغذى من تلك الحركات الفكرية التي ظهرت في العراق في ذلك العصر .

نشأته :

ولد واصل بن عطاء بالمدينة المنورة . ولكن لا نعلم الزمن الذي مكثه فيها بالتعيين لنعرف ما ارتسم في ذهنه من عادات أهلها ، وما كان يظلها من أفكار وآراء ، وقد انتقل إلى العراق ، ويظهر أنه قضى فيه سن التعلم ، فقد جاء في الملل والنحل أنه كان تلميذا للحسن البصري يقرأ عليه العلوم والأخبار ، واستمر تلميذا للحسن إلى أن اعتزل مجلسه عندما اختلفا في مسألة مرتكب الكبيرة ، ويظهر أنه كان ينتاب مجالس غيره من العلماء ، بل يظهر أنه كان يغشى مجالس الشيعة ، حتى عد ممن تخرج عليهم وتربى ، وحتى أنه كان يقال أخذ واصل الاعتزال عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية . وإذا ساغ لنا أن نستنبط من آرائه نوع تربيته ، وأثر العلماء الذين تخرج عليهم ودارسهم ، فيجب أن نقرر أنه اتصل بالخوارج والشيعة وأهل الحديث وأرباب النحل المختلفة ، فإن آراءه مزيج من كل هذه العناصر ، تكونت واتحدت ، فكونته ، وأظهرته ، فمذهبه في مرتكب الكبيرة ، ومذهبه في الإمامة ، ومذهبه في العقائد ، تلمح فيها كل التعاليم السابقة كما سنبين ذلك جليا عند الكلام على آرائه .

ومن المعروف عندنا أنه لا يتخرج المفكر على الرجال فقط ، بل يستمد من

---

(١) فجر الإسلام .

البيئة العامة التى تظله والآراء التى تضطرب وتتناحر فى عصره ، وخلاصة الكتب التى يقرؤها ، ولذلك يجب علينا أن نقول : إن واصلا قد استمد من العراق وورث ما فيه من نزعات فكرية ، واضطرابات مذهبية ، فعصر كل ذلك واستساغ منه ما يلائم نفسه ، ومايتفق مع هديه وإيمانه ، فقد كان شديد الإيمان بالله ، قويا فى دينه ، كما سنبين ذلك عند الكلام على صفاته ، وعلى دفاعه عن آرائه .

وقد كان كثير المراقبة لعيوبه شديد المؤاخذة لنفسه ، ولذلك هذبها أتم تهذيب ، وكملها أكبر تكميل . إن الإنسان لايتخرج على الكتب والرجال فقط ، بل لإرادته أحيانا أثر كبير فى نفسه ، فتوجيه الإنسان عقله وسيطرة إرادته على هواه من الأمور التى تكمل فكره ، وتهذب نفسه ، وتربى ملكاته ، ويظهر أن واصلا كان عنده من هذا القدر الوافر ، يدلنا على ذلك أمران :

أحدهما : أخذه نفسه بالابتعاد عن الراء إذ رأى لثغته فيها ، كما سنوضح ذلك .

ثانيهما : امتناعه التام عن الغضب فى مجادلاته ، وأخذه نفسه بذلك . وانظر إلى ماروى عنه مع عمرو بن عبيد ، فإن إنسانا سأل عمرًا هذا عن شيء فى القدر بحضرة واصل ، وغضب عمرو على سائله ، وأجابه له بما لم يرضه ، فقال له واصل : يا أبا عثمان إياك وأجوبة الغضب ، فإنها مندمة ، والشيطان يكون معها ، وله فى تضاعيفها همزة ، وقد أوجب الله على نبيه أن يستعيذ من همزات الشيطان ، وأن يكونوا معه بقوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين .. » إلخ الآية ، وقلما شاهدت أحداً تثبت فى جوابه ، وما ينطق به لسانه ، فيلحقه لوم .

صفاته :

امتاز واصل بصفات جعلته من كبار الرجال حقا ، وأعظم تلك الصفات :

صمته :

فلم يكن ثرثارا كثير الفضول ، بل كان لاينطق إلا بقدر معلوم ، وإلا عند الحاجة . وقد جاء فى المنية والأمل : كان واصل يلازم مجلس الحسن ، ويظنون به الخرس من طول صمته ، فمر ذات يوم عمرو بن عبيد ، فأقبل عليه بعض مستحبى واصل ، فقال هذا الذى تعدونه فى الخرس ، ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه (١) . والسكوت فى مواطن السكوت يجعل المجادل أقوى على خصمه ، وأعرف بمواضع ضعفه ، فإذا رمى أصاب ، وإذا جودل أجاب ، وكان كلامه فصل الخطاب .

قدرته على الخصام والجدل :

كان مع صمته قوى الذهن حاضر البديهة ، فهو يسكت عندما لايكون الكلام واجبا ، فإذا وجب القول تدفق كالسيل المنحدر فى الوادى ، فلا يترك مقالا لقائل ، ولا شبهة لمشتبه ، وهو بصير بمرامى الكلام وغاياته . وفى الحق أن القدرة على البيان ، وصرع الأخصام فى مقام النزال تستدعى خمسة أمور ، كلها اجتمعت لديه ، وتوافرت فيه ، وهذه الأمور هى :

مقدرته على التصرف وعدم الحبسة الفكرية : مع ثبات الجنان ، وتلك كانت فيه :

ومما يدل على ذلك القصة التى حكاها صاحب الكامل إذ جاء فيه : حدثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل فى رفقة ، فأحسوا الخوارج فقال واصل لأهل الرفقة إن هذا ليس من شأنكم ، فدعونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ، قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ، ويعرفوا حدوده ، فقالوا قد أجرناكم ، قال فعلمونا ، فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا فامضوا

---

(١) هذا يدل على أنه اتصل بالشيعة والخوارج وغيرهم وتأثر بهم وإن كان قد رد عليهم ، فإن المخالف قد يتأثر بمخالفه وإن ناضله ونازله .

مصاحبين ، فإنكم إخواننا ، قال ليس ذلك لكم قال الله تبارك وتعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا ذاك لكم ، فساروا بأجمعهم ، حتى بلغوا المأمن (١) .

هذه قدرة على تصريف الأمور ومعرفة كيف يستدرج الخصم إلى ما يريد او لم يتخذ هذا لكان نصيبه القتل حتما ، ولكنه كان يفهم عقلية الخوارج فاستغلها ، وعرف من أين ينالهم ، فينجو من شرهم .

حضور البديهة :

لتواتيه بالألفاظ الجيدة ، والمعانى المحكمة ، والأساليب التى تأخذ باللب فى أوجز زمن ، ولقد آتاه الله ذلك الحظ منها ، وليس أدل على ذلك من قدرته على تجنب الراء فى كل خطبة من غير إخلال بالمعنى ، ولا مجافاة للعربية الفصيحة ، مع تصديه للارتجال فى أكثر المناسبات ، فإن ذلك لايتأتى إلا لشخص أسعفته بديهة حاضرة ولسن ، وسرعة خاطر وقوة ذهن ، وذكاء فطرى .

الحلم والتأنى :

فقد عرفت مجانبته للغضب ، ورأيه فيه ، وأنه يعقب اللوم فيما سلف من القول .

اطلاع غزير :

وقد عرفت مقدار اطلاعه وإلمامه بأقوال الفرق الإسلامية التى ظهرت فى عصره ووجوه الرد عليها .

الفراسة الصادقة :

وربما كانت هى أعظم العوامل فى الجدال ليعرف المجادل من ملامح خصمه ما تكنه نفسه وما يجول بفكره ، فيأخذ له العدة فى أقل مدة ، وقد

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٠ .

يأخذ عليه طريقه إذا كان هو المتكلم ، ويرد على الدليل قبل إلقائه ، ويميت فكرته عند سنوحها ، وقد آتى الله واصلا من ذلك القدر الوفير ، والحظ الكبير ، وأظنك قد لمحت ذلك فى مجـادلته مع الخوارج التى نقلهـا صاحب الكامل .

اللثغة :

كان واصل ألثغ بالراء ، وقد عرف ذلك النقص فيه ، فاندفع إلى تكميل نفسه من هذه الناحية ، ليستطيع التغلب على ذلك العيب الخلقى ، فلم يقوم لسانه ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يقوم بيانه ، فمنع الراء من كلامه ، وانتصر فى ذلك انتصارا عظيما ، وقد واتته فى ذلك بديهة حاضرة ، وعلم بدقائق اللغة غزير ، ومادة مهيأة معدة ، وأمدته اللغةبسعة مترادفها ، وكثرة موادها ، وسهولة تناولها ، وانظر إلى ماقاله الجاحظ فى محاولة واصل التغلب على ذلك العيب :

ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذا كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل ، وزعماء الملل ، وأنه لابد من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة وسهولة المخرج ، وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وإن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة ، وأن ذلك أكبر ما تستمال به القلوب ، وتنثنى إليه الأعناق وتزين به المعانى ، وعلم واصل أنه ليس معهماينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، كنحو ماأعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه وسلامه من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابع النبوة ومع المحبة والاتساع والمعرفة ، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبى ﷺ :

لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومع ما أعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة إلى أن حل الله تلك العقدة ، ورفع تلك الحبسة وأسقط تلك المحنة . ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ، ويغالبه ، ويناضله ، ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذه الحال ، حتى صار لغرابته مثلا ، ولظرافته معلما لما استجزنا الإقرار به ، والتأكيد له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومثاقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان .

القدرة على الارتجال :

إذا كان من الخطباء السياسيين من يجيد الخطابة ، وإن كانت مقدرته على الارتجال غير كبيرة ، كما كانت حال بعض خطباء اليونان والرومان فى الأزمنة القديمة ، فمن المحال أن يكون ذلك شأن الخطيب المناظر ، فإن المناظرة ومساجلة الآراء تستدعى القول للتو والساعة ، ليرد على المناقش حجته ، ويأخذ عليه محجته ، وليبدهه بما لاينتظره من حقائق ، ويرد عليه ما يتعرض به ، وعلى ما يريد أن ينقض به دليله . .

وقد كان واصل بما آتاه الله من ثبات جنان ، وحضور بديهة ، ومواتاة الألفاظ التى تنحدر على فيه ، وبتسييب سيبها عندما يريد — من أقدر الناس على الارتجال وبيده مخاطبه بمالا ينتظر من حجج بينات ودلائل واضحات ، واقرأ خطبته الخالية من الراء التى ارتجلها وقد تبارى مع خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى فى القول أمام عبد الله بن عمر بن عبد العزيز — ترى مقدار قوته فى الارتجال ، وها هى ذه :

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوه ، ودنا فى علوه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يئوده حفظ ما خلق ،

ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعا ، وعدله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه وتم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، وتواضع كل شي لعظمته ، وذل كل شيء لسلطانه ، ووسع كل شيء فضله ، لا يعزب عنه مثقال حبة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه ، علا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام ، ويعصى فيحلم ، ويدعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وأشهد شهادة حق وقول صدق باخلاص نية وصحة طوية أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه . ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ، ودين الحق ، فبلغ مألكته ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يصده عنه زعم زاعم ، ماضيا على سنته ، موفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى وأتم وأنمى وأجل وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه ، وخاصة ملائكته ، وأضعاف ذلك إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والمجانبة لمعصيته وأحضكم على ما يدنيكم منه ، وزلفكم إليه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها ، وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شيء منها يزول ، فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبت لكم من حبائلها ، وأهلكت من جنح إليها واعتمد عليها ، وأذاقتهم حلوا ، ومزجت لهم سما ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمحملها ، وطحنتهم بكلاكلها ، وعضتهم بأنيابها ، وعاضتهم من السعة ضيقا ، ومن العزة ذلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تحس

منهم أحدا ، ولا تسمع لهم نبسا ، فتزودوا عافاكم الله ، فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ، جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظه وسعادته ، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب ، إن أحسن قصص المؤمنين وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا تلى عليكم فأنصتوا له ، واسمعوا لعلكم تفلحون ، أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، « قل هو الله أحد، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد » . ثم قال نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحى المبين ، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم (١) .

تقواه وزهده :

كان واصل ممن امتلأ قلبه رهبة ، وروعة ، ومراقبة لله ، وثقة به ، واطمئنانا لحكمه وسكونا لقضائه . وقد رأيت ذلك واضحا فى خطبته السابقة ، وقد قال الجاحظ فيه : لم يشك أصحابنا أن واصلا لم يقبض دينارا ولا درهما . وفى ذلك قال بعضهم فى مرثيته :

ولا مس دينارا ولا مس درهما ولا عرف الثوب الذى هو قاطعه

---

(١) قد ذكر هذه القصة فى شعره صفوان الأنصارى مادحا واصلا فقال كما فى البيان والتبيين :

فسائل بعبد الله فى يوم حفله وذاك مقام لا يشاهده وغد
أقام شبيبا وابن صفوان بعده بقول خطيب لا يجانبه القصد
وقام ابن عيسى ثم قفاه واصل فأبدع قولا ماله فى الورى ند
فما نقصته الراء إذ كان قادرا على تركها واللفظ مطرد سرد
ففضل عبد الله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلات له الشكر
فأقنع كل القوم شكر حبائهم وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد

كان واصل يقول : المؤمن إذا جاع صبر . وإذا شبع شكر ، وبذلك أخذ نفسه ، وسار على هذا النهج ، واتبع هذا الطريق فهو صابر أو شاكر. مطمئن فى كلتا الحالتين .

لم يعهد إليه عمل حكومى ، ولم يسع إليه ، ويظهر أنه كان ذا إقطاع أو ذا تجارة ، ولكن من مجموع أعماله يفهم أنه ما كان معنيا بتدبير ماله ، وربما كان يعنى بتدبيره ربيبه أبو عبد الله الغزالى . كان جل عنايته نشر مذهبه ، والرد على مخالفيه ، مالئا قلبه بتقوى الله :

لقد كان شديداً فى الله شدة لاحد لها ، كان صديقا لبشار بن برد ، فلما عرف فيه الإلحاد قاطعه ونافره ، وسعى فى نفيه فنفاه ، وكان يقول فيه : إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات لهذا الأعمى الملحد . وكان بشار قبل ذلك يمدحه ويقول فيه :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا ... وحبروا خطبا ناهيك من خطب
وقال مرتجلا تغلى بداهته ... كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد ... قبل التصفح والإغراق فى الطلب

فلما قاطعه واصل قال فيه :

مالى أشايع غزالا (١) له عنق ... كنقنق (٢) الدو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم ... أيكفرون رجالا أكفروا رجلا

---

(١) كانوا يلقبون واصلا بالغزال قيل لأنه كان يجلس فى سوق الغزالين عند ربيبه أبي عبد الله مولى قطن الهلالى ، وقال أبو العباس المبرد فى الكامل كان يلقب بذلك ، لأنه كان يلزم الغزالين ، ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . وجاء فى البيان والتبيين كان واصل بن عطاء غزالا .

(٢) النقنق الظليم والدو الفلاة ، والمراد أن له عنقا طويلة ، كعنق النعامة ، وقد قال فيه عمرو بن عبيد قبل معرفته عندما رآه : أرى عنقا ، لا يفلح صاحبها . فسمعه واصل ، فلما سلم وجلس ، قال لعمرو : أما علمت أن من عاب الصنعة فقد عاب الصانع ، لتعلق ما بينهما ، فاسترجع عمرو ، وقال لا أعود لمثلها يا أبا حذيفة . الفهرست لابن النديم .

الجرأة فى الحق :

كان جريئا فى الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم ، إذا اعتقد جرى اعتقاده على شفرة لسانه سيفا بتارا قاطعا ، شاقا لحجب الظلمات يجأر باسم الله ، ويدافع لله . سأل سائل الحسن البصرى عن حكم مرتكب الكبيرة : أهو من أهل الإيمان أم من الكفار ، فأجاب واصل غير ملتفت لأى أمر سوى الحق ، الذى أحس بصوته يجلجل فى قلبه : إنه فى منزلة بين المنزلتين . ثم اعتزل المجلس إلى آخر ماهو مشهور معروف .

جاء فى كتاب البيان والتبيين أنه كان يزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد رسول الله ﷺ ، فقيل له وعلى أيضا . فأنشد :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصحبينا

ولا نعرف مقدار ذلك الزعم من الصحة . ولكنه إذا صح يكون دليلا ليس فوقه دليل على قوته فيما يعتقد ، وكيف كان لايهاب أحداً . كان يرى رأيا سيئا فى معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، ولايمتنع عن المجاهرة به مع أن سيف بنى أمية مشهور ، ورماحهم مشرعة ، وسلطانهم قاهر ، ولكنها النفس المؤمنة ليس لسوى الله عليها سلطان ، ولا لغيره قوة ، وإذا عظم سلطان الله على النفس ضعف سلطان العبد عليها ، وإذا امتلأت النفس بقوة الله لم تستخذ للإنسان ، ولم تهن لمخلوق .

وأولئك الذين تحررت عقائدهم من ربق التقليد ، ونفوسهم من مظاهر الخنوع والضعف ، فلم يميتوا فى نفوسهم مذاهبهم ، ولم يخمدوا فيها نيران الحق المقدس ، أولئك هم قادة الفكر الإنسانى ، وأولئك هم هداة الإنسانية ، ورواد الحق ودعاته ، ويظهر من أخبار واصل أنه كان فى الرعيل الأول من هذا النوع .

آراؤه :

كان موضوع آراء واصل الأمور التى شغلت أهل عصره ، وكانت موضوع مناظراتهم وملاحاتهم ، فهى بنت بيئته ، ترعرعت فى مهدها ،

ونمت واستغلظت سوقها تحت ظلها — ولئن كانت آراء الشخص صورة عقله . لقد كانت آراء واصل سالكة طريق الاعتدال ، إذا أضيفت إلى آراء معاصريه وهى بالتالى تدل على تفكيره الهادىء المتزن ، وعقله المسدد المستقيم ، كانت آراؤه وسطا بين متجاذبين ، وملتقى متناحرين .

ولقد ذكر الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل أموراً أربعة ارتآها واصل وها نحن أولاء ذاكروها ، لا على أنها هى الأمور التى شغلت كل تفكيره ، بل على أنها أمثلة نسوقها لإثبات ما قلناه ، وهو أن آراءه وسط بين متنازعين دائمـــا .

كان واصل ينفى صفات الله سبحانه وتعالى من القدرة والإرادة والعلم والحياة فهو يقول : الله قادر ، ولكن من غير قدرة زائدة على الذات ، الله عالم ، ولكن من غير علم زائد على الذات ، وفى الحق أن مذهبه هذا ما دفعه إليه إلا الخشية من أخطار فرق ثلاث : اندفعت إلى وصف الله بما لا يليق الأولى المجسمة وأهل الحلول الذين كانوا يزعمون أن الله يحل فى مكانه كالحوادث . والثانية الحشوية الذين كانوا يثبتون لله تعالى صفات كثيرة مما يتصف بها الحوادث حتى قال قائلهم : استثن اللحية والفرج ، واثبت ما عداهما من صفات الإنسان لله . والثالثة النصارى الذين قالوا بالتثليث (الأقانيم الثلاثة) وظن واصل أنه لو أثبت صفات الله قديمة زائدة على الذات لحكم بتعدد الآلهة ، ولقال مقال النصارى .

رأى واصل كل هذا ، ورأى القرآن الكريم يصف الله بالقدرة والإرادة وغيرها ، فأثبت ما جاء فى القرآن الكريم ، وابتعد عن أن يثبت أن القدرة زائدة والإرادة زائدة وهكذا .

قال إن المرتكب للكبيرة فاسق ، وأنه فى منزلة بين الكفار والمؤمنين وفى الحق إن مذهبه فى هذا هو الوسط بالنسبة للمذاهب الشائعة فى هذا العصر فإن الحسن البصرى كان يرى أنه منافق ، والخوارج كانوا يرون أنه كافر ، وبعضهم يكفره ، ويكفر أولاده ، والمرجئة يرون أنه مؤمن ولا يضر مع الإيمان معصية ، بل غلا بعضهم ، فقال إن الإيمان الاعتقاد بالقلب وإن أعلن

الـكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام ، وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الإسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل من أهل الجنة .

فى وسط ذلك المضطرب شق واصل لنفسه مهيعا وسطا ، ونريد أن نتركه يحتج لدعواه هذه ، لتعرف طريق فهمه للدين وأصوله . قال : وجدت حكم الله فى المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة . قال تعالى « الله ولى الذين آمنوا » . و« الله ولى المؤمنين » . « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » . « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار » ؛ « يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه » .

فوجب أن صاحب الـكبيرة ليس بمؤمن ، لزوال أحكام المؤمنين عنه ووجدت حكم الله على الـكفار على ضربين ، ضرب حد لقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليــوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الـكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فهذا حكم الله فى أهل الـكتاب وهو زائل عن صاحب الـكبيرة ، وهذا هو الضرب الأول . وقوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء » وهذا حكم الله فى مشركى العرب وغيرهم من الـكفار سوى أهل الـكتاب وهو زائل عن صاحب الـكبيرة . ثم بينت السنة المجمع عليها أن الـكفار لا يورثون ، ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك بصاحب الـكبيرة وهذا هو الضرب الثانى .

فوجب أن صاحب الـكبيرة ليس بكافر لزوال أحكام الـكفار عنه ووجدت حكم الله فى المنافق ما جاءت به السنة المجمع على صحتها من أنه إن ستر نفاقه فلم يعرف عنه ، ولم يشتهر به ، وكان ظاهره الإسلام ، فهو عندنا مسلم له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، وإن أظهر كفره استتيب ، فإن تاب ، وإلا قتل ، وهذا الحكم زائل عن صاحب الـكبيرة ، فوجب أن

صاحب الكبيرة ليس بمنافق لزوال أحكام المنافقين عنه ، وإذن مرتكب الكبيرة يسمى فاسقا فاجرا لتسميته بذلك فى كتاب الله ، ولإجماع الأمة على هذه التسمية .

قوله إن الإنسان خالق أفعال نفسه بقوة أودعها الله إياه ، ولقد كان مذهبه وسطا بين نهجين ، كلاهما ضلال بعيد ، كان بعض الدهريين ينسبون المخلوقات إلى الدهر ، أو إلى الطبيعة ، أو نحو ذلك وهو كفر ليس فى ذلك من ريب ، وقد انتشر مذهبهم فى عصر واصل ، واطلع على مقالاتهم تلك .

وكان على الجانب الآخر طائفة من الجهمية التى تقول إن أفعال العباد هى أفعال الله سبحانه ، والإنسان لا إرادة له فيما يعمل ، بل الله يفعل فعله على يديه ، كما يجرى الريح ، وكما ينبت الزرع ، وكما يحرك الأرض ، وقد رأى واصل فى ذلك خرقا للعدل الإلهى ، وهدما لقانون الجزاء من عقاب المسىء ، وإثابة المحسن ، بل رأى فيه هدما للتكليف ، ولمح من ورائه هدم الشرائع الدينية ، لأنه لا معنى لتكليف الإنسان أمراً لا إرادة له فيه ، ولا قدرة له عليه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . هذا ما رآه وأنت تراه وسطا لآراء متجاذبة وأفكار متضاربة .

كان يرى فى أهل واقعة الجمل من فريقى على وطلحة أن أحد الفريقين فاسق من غير تعيين ، ولذا كان يقول لا تقبل شهادة اثنين : أحدهما من فريق على ، والآخر من فريق طلحة ، ومذهبه فى الحقيقة وسط لرأى معاصريه . وقد شرح ذلك البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق ، فقال : زعمت الخوارج أن طلحة ، والزبير ، وعائشة ، وأتباعهم يوم الجمل كفروا لقتالهم عليا ، وأن عليا كان على الحق فى قتال أصحاب الجمل ، وفى قتال أصحاب معاوية بصفين إلى وقت التحكيم ثم كفر بالتحكيم ، وكان أهل السنة والجماعة يقولون بعدم فسق الفريقين فى حرب الجمل ، وقالوا إن عليا كان على الحق فى قتالهم ، وأصحاب الجمل كانوا مخطئين فى قتال على ، ولم يكن خطؤهم كفرا ولا فسقا يسقط شهادتهم ، وأجازوا الحكم بشهادة عدلين من

كل فرقة من الفريقين ، وخرج واصل من قول الفريقين ، وزعم أن فرقة من الفريقين فسقة لا بأعيانهم ، وأنه لا يعرف الثقة منهما . وأنت ترى أن مذهبه فى هؤلاء وسط بين الخوارج والجماعة .

مناظراته :

قد شرحنا لك فى أوصاف واصل أنه كان من أقدر أهل عصره على الجدل والخصام ، وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وملاقاة الخصم بقدم أثبت من قدمه ، وبرهان أسطع من برهانه . وقلنا إنه كان جامعا لكل الصفات التى تقتضى الغلب فى النقاش ، والسبق فى ميدان المناظرة : فراسة صادقة ، وجنان رابط ، وجأش ثابت ، وعقل رزين ، لا يطيش ، وبديهة حاضرة ، وقدرة على التصرف فى الأمور ، لا يعتريه حصر ، ولا يأخذه فزع ، وعلم غزير ، وإحاطة تامة .

ولذا كان له الغلب على الأقران فى ميدان الخصام ، لا يعترض عليه بالاعتراض إلا أسرع إلى تفنيده ، ولايقام عليه دليل إلا أسرع إلى تزييفه . وذلك مقام صعب لا يصل إليه إلا أولو الألباب ، وذوو المرتبة الأولى فى البيان .

جاء فى العقد الفريد : إن الجوابات هى أصعب الكلام كله مركبا ، وأعزه مطلبا ، وأغمضه منصبا ، وأضيقه مسلكا ، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة ، يروم فى بديهته نقض ما أبرم القائل فى رويته ، فهو كمن أخذت عليه الفجاج ، وسدت له المخارج ، قد اعترضته الأسنة ، واستهدف للمرامى ، لا يدرى ما يقرع به ، فيتأهب له ، ولا ما يفجؤه من خصمه ، فيقرعه بمثله ، ولاسيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام ، فقاده بزمامه بعد أن رأى فيه ، واحتفل ، وجمع خواطره ، واجتهد ، وترك الرأى يغب حتى يختمر ، فقد كرهوا الرأى الفطير ، كما كرهوا الجواب الدبرى ، فلا يزال فى نسج الكلام واستنباطه ، حتى إذا اطمأن شارده ، وسكن نافره ، صك به خصمه جملة واحدة ، ثم قيل

له : أجب ، ولاتخطىء ، وأسرع ، ولاتبطىء ، فتراه يجيب بجواب من غير أناة ، ولا استعداد ، يطبق المفاصل ، وينفذ إلى المقاتل كما يرمى الجندل بالجندل ، ويقرع الحديد بالحديد ، فيحل به عراه ، وينقض به مرائره ، ويكون جوابه على أكثر كلامه كسحابات لبدت عجاجته ، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر ، ولا أعز من الخصم الألد الذى يقرع صاحبه ، ويصرع منازعه بقول كمثل النار فى الحطب الجزل .

لم يكن يناظر واصل حبا فى الغلب ، بل دفعاً لأوهام وأكاذيب سادت ذلك العصر ، وسيطرت على عقول كثيرين فيه ، وقد عنى نفسه بذلك ، حتى إنه كان يهمل بعض شأنه الخاص . كان يناظر الرافضة والدهرية ، والصائبة ، والزنادقة وغيرهم ليرد فرياتهم ، ويجعل كيدهم فى نحورهم . وشغلت مناقشته لهؤلاء كل خواطره ، وقد ذكرت زوجته بعض حاله فقالت : كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يصلى ، ولوح ودواة موضوعان ، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف ، جلس ، فكتبها ، ثم عاد فى صلواته (١) .

ولقد كان عليما بأفكار كثير من الزنادقة ، وأهل النحل المختلفة ، لأنه خالف كثيراً منهم ، وكان صديقا لبعضهم كما علمت من أخباره مع بشار ، وفى كتاب الأغانى : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم ابن أبى العوجاء ، ورجل من الأزد هو جرير بن حازم ، فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ، ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقى متحيرا مختلطا . وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية .

وقد كان مرجعا لكل من يجادل هؤلاء الخارجين عن حدود الإسلام

---

(١) المنية والأمل للمرتضى .

وموئلا لهم ، يصدرون عن رأيه إذا التبس عليهم الأمر . جاء فى كتاب المنية والأمل .

روى أن بحضر السمنية قالوا لجهم بن صفوان هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة . قال : لا . قالوا فحدثنا عن معبودك ، هل عرفته بأيها ؟ قال : لا . قالوا : فهو إذن مجهول . فسكت ، وكتب بذلك إلى واصل ، فأجاب وقال تشترط وجها سادسا ، وهو الدليل . فتقول لا يخرج عن المشاعر والدليل ، فاسألهم هل تفرقون بين الحى والميت ، والعاقل والمجنون ، ولابد من قولهم هذا عرف بالدليل ، فلما أجابهم بذلك ، قالوا ليس هذا من كلامك فأخبرهم فخرجوا إلى واصل وكلموه ، وأجابوه إلى الإسلام .

وقد كان يسجل كثيراً من ردوده ، ويقيدها ، وبعض مناقشاته كانت كتابية . وعن عمرو الباهلى أنه قال : قرأت لواصل الجزء الأول من كتاب ألف مسألة فى الرد على المانوية ، فأحصيت فى ذلك الجزء نيفا وثمانين مسألة (١) »

ولم يكن جدله مع المناقضين للإسلام فقط ، بل كان يجادل كثيراً من المسلمين المخالفين له فى مذهبه فى العقائد ، وكانوا كثيرين . ومما يروى أن خالد بن عبد الله القسرى قال له : بلغنى أنك قلت قولا فما هو ؟ فقال أقول يقضى الله بالحق ويحب العدل . قال فما بال الناس يكذبونك . قال يحبون أن يحمدوا أنفسهم ، ويلوموا خالقهم . فقال لا ، ولا كرامة ، الزم شأنك (٢) .

ومناقشاته كثيرة مع المسلمين الذين خالفوه . يروى فى هذا أنه اجتمع مع جعفر بن محمد الصادق ، فقال جعفر :

أما بعد ، فإن الله بعث محمداً بالحق ، والبينات ، والنذر والآيات ، وأنزل عليه « بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فنحن عترة رسول الله ﷺ ، وأقرب الناس إليه ، وإنك ياواصل أتيت بأمر يفرق الكلمة ، وتطعن به على الأمة ، وأنا أدعوك إلى التوبة .

---

(١) المنية والأمل .

(٢) الكتاب المذكور .

فقال واصل : الحمد لله العدل فى قضائه ، الجواد بعطائه ، المتعالى عن كل مذموم ، والعالم بكل خفى مكتوم ، نهى عن القبيح ، ولم يفضه ، وحث على الجميل ، ولم يحل بينه وبين خلقه ، وإنك يا جعفر ، وابن الأئمة شغلتك حب الدنيا ، فأصبحت بها كلفا وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وصاحبه وضجيعه ابن أبى قحافة ، وابن الخطاب ، وعثمان ، وعلى بن أبى طالب وجميع أئمة الهدى ، فإن تقبل الحق تسعد به ، وإن تصدق عنه تبوء بإثمك (١) .

رسله فى الآفاق :

لم يكتف واصل بمناظراته الكتابية والخطابية ، بل أرسل أتباعه فى الآفاق يردون على الزنادقة وغيرهم . قال أبو الهذيل : بعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأجابه خلق كثيرون ، وبعث إلى خراسان حفص ابن سالم ، فدخل ترمذ ، ولزم المسجد ، وناظر جهما (٢) فقطعه ورجع إلى قول الحق ، فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قول الباطل ، وبعث القاسم إلى اليمن ، وبعث أيوب إلى الجزيرة ، وبعث الحسن بن زكوان إلى الكوفة ، وعثمان الطويل إلى أرمينية .

وقد كان متتبعا لأخبار رسله ، ليتعرف أحوالهم ، فإذا لاحظ فى أحدهم خروجا عن الجادة أرسل إليه يعظه . يروى فى ذلك أنه بلغه أن عمرو بن عبيد يؤول بعض الأحاديث تأويلا فيه شطط ، فأرسل إليه كتابا جاء فيه :

عهدى والله بالحسن ، وعهدكم به أمسى فى مسجد رسول الله ﷺ بشرقى الأجنحة وآخر حديث حدثنا إذ ذكر الموت وهول المطلع ، فأسف على نفسه واعترف بذنبه ، ثم التفت والله يمنة ويسرة باكيا ، فكأنى أنظر إليه يمسح مرفضّ العرق من جبينه ، ثم قال : اللهم إنى قد شددت وضين

---

(١) ذكرت هذه الخطبة فى المنية والأمل وأنت ترى أن فيها مناقضة للآراء المروية عنه من شكه فى فسق على وأصحابه ، ولعله كان قد انتهى فى آخر حياته من شكه فى أحد الفريقين إلى الجزم ببراءة أحدهما .

(٢) جهم بن صفوان رأس الجبرية .

راحلتى ، وأخذت فى أهبة سفرى إلى محل القبر ، وفرش العفو ، فلاتؤاخذنى بما ينسبون إلى من بعدى ، اللهم إنى قد بلغت ما بلغنى عن رسولك ، وفسرت من محكم كتابك ما قد صدقه حديث نبيك ، ألا وإنى خائف عمراً ، ألا وإنى خائف عمراً ، ألا وإنى خائف عمراً ، شكاية لك إلى ربك جهرا ، وأنت لا أنت عن يمين أبى حذيفة أقربنا إليه . وقد بلغنى كثير مما حملته نفسك ، وقلدته عنقك من تفسير التنزيل ، وعبارة التأويل ، ثم نظرت فى كتبك ، وما أهدته إلينا رواتك من تنقيص المعانى ، وتفريق المبانى ، فدلت شكاية الحسن عليك بالتحيف بظهور ما ابتدعت ، وعظيم ما تحملت ، فلا يغررك تدبير من حولك ، وتعظيمهم طولك وخفضهم أعينهم عنك إجلالا لك ، غدا والله تمضى الخيلاء والتفاخر ، وتجزى كل نفس بما تسعى .

ولم يكن كتابى إليك ، وتجليبى عليك ، إلا ليذكرك بحديث الحسن رحمه الله ، وهو آخر حديث حدثناه ، فأد المسموع ، وانطق بالمفروض ، ودع تأويلك الأحاديث على غير وجهها ، وكن من الله وجلا .

تم بحمد الله وتوفيقه

الفهـــرست

الصفحة

صفحة

ترجمة خطيبين

من خطباء الجدل

رقم الإيداع ١٩٨٠/٣٦٧٧